الجزء الأول



الصحافة العربية

فيليب دي طرّازي



تاريخ الصحافة العربية

الجزء الأول

يحتوي على أخبار كل جريدة ومجلَّة عربية ظهرت في العالم شرقًا،
وغربًا مع رسوم أصحابها، والمحرّرين فيها، وتراجم، ومشاهيرهم.

تأليف

فيليب دي طرّازي

الكتاب: تاريخ الصحافة العربية .. الجزء الأول

الكاتب: فيليب دي طرّازي

الطبعة: ٢٠٢٠

صدرت الطبعة الأولي عام ١٩١٣

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

طرّازي ، فيليب دي
تاريخ الصحافة العربية.. الجزء الأول / فيليب دي طرّازي،
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
٢٣٥ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولى: ٢ – ٢٦ – ٦٨١٨– ٩٧٧– ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ٧٤٧٩ / ٢٠٢٠

تاريخ الصحافة العربية

الجزء الأول



يا معشرّ الصحبِ ذا رسم بهِ اقترّنت   رسـومكم وبهـا قـد صـا... مزدانـا

فتلـكَ آثارنـا أضـحتْ تضـمُّ معًـا   رغمًا عن الدهر في ذا السفر إخوانًا

المقدمة

أمَّا بعد فيقول الفقير إليه تعالى فيليب بن نصر بن أنطون بن نصر الله بن إلياس بن بطرس دي طرازي: إنني منذ سنتين أذعتُ نشرةً معلنًا فيها عزمي على تأليف كتاب شاملٍ لتاريخ الصحافة العربية في مشارق الأرض ومغاربها. فصادف مشروعي ارتياحًا لدى روام المكسائل التاريخية الذين اتحفوني برسائل التنشيط، واستحثوني عَلى إبراز هذا الفكر إلى حيز العمل. ولا يخفى ما يحول دون ذلك من المصاعب الكثيرة التي تستلزم درسًا طويلاً، وجهدًا متواصلاً لقلة ما كُتِب في هذا الموضوع حتى الآن. ولما كان قدماء الصحافيين قد طواهم الزمان وكادت آثارهم تنقرض بمرور الأيام، اضطررت إلى التفتيش عن صحفهم بكل وسيلة فعّالة فضلاً عن مفاوضة الشيوخ من معاصريهم لبلوغ الضالة المنشودة. فكأن خدمة الأدب والأدباء ذلّلت أمامي كلَّ الصعاب، ومهدت لي سبيل الوصول إلى الغاية المقصودة بعد البحث المدقق. ولكي يحيط العموم علمًا بأهمية هذا المشروع، أكتفي بإيراد عبارة شهيرة قالها أحد أفاضل الكتّاب وهي تستحق أن تُكتب بماء الذهب: «البلاد التي لا صحافة فيها، لا صحة فيها».

فأَقدمتُ عَلَى تحقيق هذه الأمنية تعزيزًا لمقام صحافتنا الشريفة، وإِعلاءً لمنارها أمام الغربيين الذين برزوا في هذا الفن الجليل، وجاهدوا في جادتهِ الجهاد الحسن. وهكذا تيسر لي بعد العناء الشديد أن أسدَّ

هذه الثلمة في لغتنا العربية وأزفّ عملي لكلّ ناطق بالضاد. وهو يحتوي عَلَى أخبار الصحف إفرادًا وإجمالاً مع أميال أصحابها، واسماء محرريها، وتراجم المشاهير منهم بعبارةٍ يفهمها الخاص والعام. وتخليدًا لذكرهم زيَّنت الكتاب برسوم الصحافيين الذين توقفت إلى الحصول عليها بعد بذل النفس والنفيس، آسفًا لعدم الفوز برسومهم قاطبةٌ. فجاءَ سفرًا جزيل المنافع، لا يستغني عنهُ السياسي، والصحافي، والمؤرخ، والشاعر، والأديب، والمصوّر،والتاجر،والأستاذ،والتلميذ،والحاكم، والمحكوم. إذ يجد فيه كل واحد منهم ما يتوق إليه من ضروب السياسة، أو كنوز الصحافة، أو آثار التاريخ، أو أساليب النظم، أو بدائع الرسوم، أو أطايب الأخبار والفكاهات ما لا يلاقيه في كتاب سواه. فانه أشبه شيء بدائرة معارف عصرية لا تقتصر موادها عَلَى الصحافة فقط؛ بل تتضمن أيضًا أكثر مطالب العلوم، والآداب، والفنون المفيدة.

وقد انتقدت كل جريدة، أو مجلة، أو نشرة، أو رسالة موقوتة بما تستحقه من المدح والذم، بقطع النظر عن مذاهب أربابها وأحوالهم الشخصية، وذلك بنية صادقة وقصد سليم. واستندت في ما رويتهُ إلى أوثق المصادر حرصًا عَلَى الحقيقة، وعملاً بحرفة التاريخ. وقسمت الكتاب إلى أربعة أقسام أو حقب بحيث تتناول كل حقبة قسمًا من أخبار الصحافة. ثمَّ صدرته بتوطئةٍ ذات ثمانية فصول في تعريف الصحافة وآدابها، واسماء مؤَرخيها وغير ذلك مما تهمُّ معرفته إتمامًا للفائدة، وختمتهُ بجدول عام يشتمل على اسماء الصحف بلا استثناء شيء منها على قدر ما يستطيعهُ باحث محقق في بلاد الشرق. وقد رتبتها بحسب

البلدان والمماليك التي ظهرت فيها، متتبعًا في تاريخ صدورها نظام الأقدم فالأقدم. وجعلتُ بجانب كلٍ منها أمم صاحبها، وبيان خطتها، ويوم نشأتها ليكون العمل وافيًا بكل أطرافهِ. ومع إقراري الصريح بأني لستُ من فرسان هذا الميدان، فإنني واثق بشهامة القرَّاء الكرام، وحملة الأقلام، وسائر أرباب النهضة الأدبية أنهم سيتلقون كتابي بسرور، ويطالعونه بلذة ينسياني شيئًا من التعب الذي عانيتهُ في المراجعة، والمقابلة، والمراسلة، والبحث، والتنقيب. وحَسبي الله ونعم الوكيل.

التوطئة

وفيها ثمانية فصول

الفصل الأول

تحديد الصحافة، وأَشهر مسمياتها، ومواضيعها المختلفة

الصحافة صناعة الصحف. والصحف جمع صحيفة: وهي قرطاس مكتوب. والصحافيون القوم ينتسبون إليها ويشتغلون فيها. والمواد الآن بالصحف أوراق مطبوعة، تنشر الأنباء والعلوم على اختلاف مواضيعها بين الناس في أوقات معينة. فإنَّ فيها من تواريخ الأُوَل، وأخبار الدول، وفكاهات الروايات، وغرائب الاكتشافات، وأسعار التجارة، وفنون الصناعة، وضروب الانتقاد، وشؤُون الاقتصاد، وأخلاق الغرباء، وغوائد البعداءِ ما يغني عن التوجه إلى بلادهم، ومخالطة شعوبهم، والوقوف عَلَى أحوالهم. ولذلك عوَّل الفضلاء على أنشأء الصحف بحيث أصبح سكان أقاصي المشرق يصل إليهم خبر أقاصي المغرب بأقرب حين بعد أن كانت الأنباء تتجاوز الأيام العديدة للوصول من مكان لمكان آخر مجاور لهُ. فتأتي مختلفًا فيها لا يكاد الباحث عنها يلعم الحقيقة.

وأوَّل مَن استعمل لفظة «الصحافة» بمعناها الحالي كان الشيخ نجيب الحدّاد [1] منشئ جريدة «لسان العرب» في الإسكندرية، وحفيد الشيخ ناصيف اليازجي. وإليه يرجع الفضل في اختيارها، فقلّدهُ سائر الصحافيين من بعده. وكانت تسمى الصحف في أول عهدها «الوقائع»؛

---

(١)مجلة سركيس: عدد أول: سنة ثانية

ومنها جريدة «الوقائع المصرية» كما دعاها بها رفاعة بك الطهطاوي. وسُميت أيضًا «غزتة»نسبة إلى قطعة من النقود بهذا الاسم كانت تُباع الصحيفة بها، فعرفت كذلك. وقيل أيضًا أن أول صحيفة ظهرت في البندقية سنة ١٥٥٦ كانت تسمى «غزتة»، فشملت هذه التسمية كل صحفة بلا استثناء. ولما نشأَت الصحافة العربية أُطلقت عليها لفظة غزتة لأنَّ هذه الصناعة كانت حديثة العهد عند الناطقين بالضاد، ولا أثر لها لدى كتابهم الأَقدمين.

السيدة لبيبة هاشم

صاحبة مجلة «فتاة الشرق» في القاهرة[١]

ولما أنشأ خليل الخوري سنة ١٨٥٨ جريدة «جريدة الأخبار» في بيروت أطلق عليها لفظ «جرنال»؛ وهو كلمة فرنسية معناها «يومي» أي المنسوب إلى اليوم للدلالة على الصحف اليومية، بينما كانت جريدته أسبوعية. وإليك ما كتبه أديبٌ أسحق في نبذة لهُ عنوانها «مباحث في الجرائد»، قال:

«ولا مناسبة بين الجرنال وبين الجريدة إلا أن يُقال أنه أطلق أولاً عَلَى الصحائف اليومية من قبيل تسمية الشيء بما هو عليه. ثمَّ عممه الإصطلاح فعُرِفت به الجرائد، يومية كانت أو غير يومية»

(١)نشرنا في خلال فصول «التوطئة» رسوم بعض السيدات المحصنات، ورجال الفضل الذين مدوا لنا يد المساعدة الأدبية في مشروعنا هذا كما نوهنا بذلك في الفصلين السادس والسابع من الباب المذكور.

ثمَّ رأَى الكونت رُشَيد الدحداح اللبناني صاحب جريدة «برجيس باريس» الباريسية سدَّ هذه الثلمة، فأختار لفظة «صحيفة»، وجرى مجراه أكثر أرباب الصحف في ذاك العهد وبعده. فما كان من أحمد فارس الشدياق اللبناني صاحب «الجوائب» في القسطنطينية، ومُناظر الكونت رُشَيد الدحداح في بعض المسائل اللغوية، إلاَّ أنه عقد العزيمة عَلَى استعمال لفظة «جريدة»؛ وهي «الصحف المكتوبة» كما ورد في معجمات اللغة. ومن ذاك الوقت شاع اسم الجريدة لدى جميع الصحافيين بمعناها العصري.

ومنهم مَن استعمل غير ذلك من المسميات؛ كالقس لويس صابونجي السرياني صاحب «النحلة» الذي اتخذ لفظة «نشرة» بمعني جريدة، أو مجلة. وهكذا صنع المرسلون الأميركيون أصحاب «النشرة الشهرية»، و«النشرة الأسبوعية» في بيروت وغيرهم. ومن تلك المسميات أيضًا «الورقة الخبرية»، أو «الرسالة الخبرية»، وقد استعملتهما جريدة «المبشر» مع أكثر الصحف الدورية في بلاد الدزائر المغربية التابعة لحكومة فرنسا في شمال إفريقيا. ومنها «أوراق الحوادث»؛ وهو الاسمالذي أطلقه للدلالة عَلَى صحف الأخبار: نجيب نادر صوايا منشئ مجلة «كوكب العلم» في القسطنطينية.

وكان الصحفيون لا يفرّقون أولاً بين الجريدة (Journal)، وبين المجلة (revue) في الاستعمال. ومن المعلوم أن الإفرنج أطلقوا اسم المجلة (revue) على الصحف الدورية التي تصدر عَلَى شكل الكراسة.

فلما تولى الشيخ إبراهيم اليازجي إدارة مجلة «الطبيب» البيروتية سنة ١٨٨٤ بالاشتراك مع الدكتورين بشاره زلزل، وخليل بك سعاده،أشار باستعمال لفظة «مجلة»[١]؛ وهي صحيفة عملية، أو دينية، أو أدبية، أو انتقادية، أو تاريخية، أو ما شاكل، تصدر تباعًا في أوقات معينة. فأثبتها بمعناها العصري، وتابعته في هذا الاصطلاح جميع المجلات التي صدرت بعدها والتي كانت قبلها. ثم شاعت في جميع الأقطار العربية شيوعًا أجهز عَلَى المعنى الأصلي حتى صار مهجورًا بالمرَّة. فلا يتبادر الآن إلى ذهن المطالع لدى عثوره عَلَى لفظة «مجلة» إلا الصحيفة الدورية دون سواها. ولا يطلق أحد من كتاب العصر هذه التسمية عَلَى «صحيفة فيها الحكمة» إلاَّ إذا كانت تصدر تباعًا في آونةٍ معينة. ومع ذلك إذا طالعت المعاجم العصرية لا ترى فيها للفظة المذكورة معناها الحالي الشائع، بل القديم المهجور[٢]. هكذا توفق العرب المولدون إلى وضع اسماء لمسميات الصحافة الحديثة. وهو مطلب غير بعيد على أهل هذه اللغة، طلبوه بأسبابه، ودخلوه من أبوابه.

وتختلف مواضيع الصحف باختلاف غايات أصحابها، ونزعاتهم، ومشاربهم. فتارة تكون دينية، وطورًا سياسية، وحينًا أدبية. وقِسْ عليها العلمية، والفنية، والانتقادية، والروائية، والهزلية، والتهذيبية، والإخبارية، والعمرانية، والقضائية، والأخلاقية، والتاريخية، وغيرها. ولكل من هذه التقاسيم الكبرى فروع، بل فروع وفروع يطول بنا شرحها لكثرتها؛ فنكتب

(١)«صحيفة فيها الحكمة» كما ورد في القاموس

(٢) قاموس سعاده: المقدمة

عنها صفحًا، وقد أصاب الدكتور شيلي شميل فيما كتبه بهذا المعني قال[1]: «الصحف أنواع بقدر المواضيع التي تتناولها معارف البشر، وربما قصَروها على فرع من علم، بل عَلَى مبحث من فرع استيفاءً للبحث. وساعدهم على ذلك كثرة خاصتهم، وحب عامتهم لرفع شأن العلم.. بحيث لم تنقصهم في سبيلها النفقات التي هي لحياة الصحف كالغذاء لحياة الأبدان. فتكاثر عددها عندهم جدًا حتى صارت فوائد العلم بها قريبة المنال، عامة العرفان في كل مكان. إذ ليس للعلم وطن يؤثره على وطن»

ولما كانت الصحف تصدر في آجال معلومة، فقد سماها الإفرنج «الصحف الدورية»، أو «الصحف الموقوتة»؛ أعني (Presse périodique) لأنها تُنشر شهرية، أو أسبوعية، أو يومية.

بل منها أيضًا ما مرتين في الشهر، أو الأسبوع، أو اليوم، أو غير ذلك من المواعيد.

---

(١)مجلة «الشفا»: المقدّمة: للدكتور شبلي شميل في القاهرة

الفصل الثاني

تعريف الصحافة من أقوال مشاهير الملوك، والكتَّاب، والصحافيين

تحت هذا العنوان نورد ما قاله أعاظم مشاهير الأرض، وأفاضل حملة الأقلام عند أكثر القبائل العربية وغيرها في تعريف الصحافة. وهي مجموعة نفيسة من الأقوال السامية الدالة عَلَى شرف هذه المهنة التي تحسب بلا مراء أعظم قوة في دولة القلم. فيرى القارئ مرآة تنعكس فيها أفكار أرباب الدين، والشرع، والسيف، والسياسة، والعلم، والأدب بمظهر حسن ترتاح إليه القلوب، وتهتدي بنبراسه عقول الكتَّاب. وقد اقتطفناها من مصادرها المختلفة بعد البحث الطويل، لأننا رأيناها جامعةً بين اللذة والفائدة، بل جديرةً بأن تدوَّن في بطون التاريخ. فعسى أن يتخذها الصحافيون الصادقون قاعدة لمصلحتهم التي تعلو كل مصلحة، ويبتروا لسان المتطفلين على هذه المهنة الجليلة؛ صونًا لكرامتها وخدمةً للحق. وقد سردنا أولاً أقوال مشاهير الأرض، ثم ألحقناها بأقوال حملة الأقلام مرتبة على حروف الهجاء لاسماء أصحابها:

قال إليابا لاون الثالث عشر: «الصحف رسالة خالدة».

وقال الأمبراطور نابليون الأول: «الصحافة ركن من أعظم الأركان التي تشيد عليها دعائم الحضارة والعمران».

وقال روزفلت رئيس جمهورية الولايات المتحدة في أميركا:«ليس الجرم الحقيقي هو من يعتمد القتل أو ارتكاب أعظم المعاصي، بل هو الذي يملك شيئًا لا يكون من أهله بالغش والخداع؛ كالصحافي المقلّد، أو السياسي المنافق. لأن الواجبات الأولية في الصحافي أو السياسي هو أن يكونا حاصلين على ثقة الشعب بمجرد القدوة الصالحة في الأعمال والأقوال».

وقال الأمير حسين كامل باشا نجل اسماعيل خديو مصر: «إن كل أمة متمدنة يجب عليها أن تحترم الصحافة، ونود أن تكون معها يدًا لنتعلم منها ونستفيد مما ينشر فيها من الفوائد».

الجرائد أكثر من أن تكون مهنة لتعيش أصحابها بل هي أشرف من ذلك ولها فوائد عامة عديدة

وقال اللرد رزبيري: «يجب أن تكون قاعدة الصحف: كن صادقاً ولا تخف»

وقال ثولستوي الفيلسوف الروسي الطائر الصيت: «الجرائد تفير السلام وصوت الأمة وسيف الحق القاطع ومجيرة المظلومين وشكيمة الظالم. فهي تهز عروش القياصرة وتدرك معالم الظالمين»

وقال اللورد ملنر أحد كبار الساسة الانكليز: «أن الصحافة أجل وأعظم حرفة في العالم. وربما أستثني من ذلك منصب الوزارة»

وقال فولتير الكاتب الفرنسي الشهير: «الصحفاة هي آلة يستحيل كسرها وستعمل عَلَى هدم العالم القديم حتى يتسنى لها أن تنشيء عالماً جديداً»

وقال تشارلس دانا: «أن الذريعة الوحيدة لتعلم الصحافة أن تفترسَّ الصحافة ولقتات الحبر»

وقال هنري وترسون:«أن أساس النجاح في الصحافة والعادات الجيدة والعقل الحاذق والشواعي الصادقة والتهذيب الكامل وبالتالي الثبات»

وقال الشيخ إبراهيم اليازجي صاحب مجلة «الضياء» في القاهرة: «الجرائد عند كل قوم تتخذ عنوانًا علي منزلتهم من العلوم، والآداب، والأخلاق، والعادات، لإنها المرآة التي تتجلى فيها صور هذه المعاني كلها وتتمثل بها درجة الكاتب والقارئ جميعًا، لأن الكاتب إنما يكتب على مكانة علمه وذوقه. وإنما يختار من المباحث ما يعلم أنه يقع من قارئه موقعًا مقبولاً، وإلا سقطت جريدته من نفسها فقضي عليها بالإهمال»

وقال الشيخ إبراهيم اليازجي، والدكتور بشاره زلزل منشئأ مجلة «البيان» في القاهرة: «فهي جليس العالم وأستاذ المريد، والموعد الذي يتلاقى فيه المفيد والمستفيد؛ بل هي خطيب العلم في كل ندوة وبريده

إلى كل خلوة، والمشكاة التي تستصبح بها بصائر أولي الألباب، والمنار الذي تأتمنه المدارك إذا اشتبهت عليها شواكل الصواب».

وقال أحمد الأزهري، ومصطفى الدمياطي صاحبا مجلة «المنتقد» في القاهرة: «إن نعمة الجرائد على البلدان لا تقل عما تشرّف به الإنسان من نعمة البيان. وأن كلَّ بلاد توفر حظها من هاته النعمة تكون اسمى وأرقى من التي تنلْ حظًا يدرك هذه النعمة».

وقال الشيخ أحمد حسن طباره منشئ جريدة «الاتحاد العثمانيي» في بيروت: «الصحافة قوة معنوية عظيمة عرف العالم المتمدن حقيقتها؛ فأكرم منزلتها ورفع مكانتها، وجعلها والوزارة في مرتبة واحدة. فبينما ترى فلانًا صحافيًا إذا هو متربع في دَسْت الوزارة، أو وزيرًا إذا هو جالس وراءَ منضدةِ الصحافة. وهذا المستر روزفلت رئيس جمهورية أميركا لم يكد يتخلى عن كرسي الرئاسة حتى عين رئيسًا لتحرير إحدى الجرائد الأميركية. على أن هذه القوة هي كسائر القوى التي أودعها الله في هذا المعترك الحيوي. فإن وجهتها إلى الخير والإصلاح أفادت فائدة كلية، وإن استعملتها في وجوه الأغراض والشهوات تضرَّت ضررًا كبيرًا»

وقال أحمد نديم صاحب جريدة «النصحية» في القاهرة: «الصحافة اليوم تعدُّ القوة الوطنية الكبرى؛ بل هي الجند الباسل الذي يهاجم ويدافع.... غير أنه جند سلام، لا جند حسام».

وقال إدوار جديّ صاحب مجلة «الصريا» في القاهرة:«لا شيء يدلُّ على أخلاق الأمة ومكانتها من الهيئة الاجتماعية مثل الجرائد، فهي المنظار الأكبر الذي ترقب فيه حركاتها وسكناتها، بل الصفحة البيضاء التي تُكتب فيه حسناتها وشيئاتها، بل هي رائد الإصلاح ومهب ريح التقدم والفلاح، بل هي كواكب الهدى السيارة، ومطلع شمس التمدن والحضارة. رآها الناس آية فهاموا بها، وعظموا شأنها، ورفعوا مقامها؛ فأصبحت من أعظم أسباب حياتهم الأدبية، بل من أعظم ما يحتاجون إليه في هذه الحياة».

وقال أديب بك إسحق صاحب جريدة «مصر» في القاهرة: «الجريدة لفظ أُطلق اصطلاحًا عَلَى الصحيفة المغردة، أو الصحائف المصفحة، تطبع في أوقات معينة مشتملة على أنباء، وآراء، ومباحث من السياسة، أو الأدب، أو العلم أو منهن جمعاء».

وقال أسعد خالد، ونعوم لبكي صاحبا جريدة «الرقيب» في بودي جانبرو:«والذي يُقال عن اليراع من حيث هو خادم العقل وممثل تصوُّراته بمرئيات، ومجسم أوهامه أجسام الحقيقة يقال عن الصحافة نزيعته بالفائدة، وشقيقته بحميد العاقبة. فهي المعرض تتعارض به نفسيات نفثاته، فمؤثرة حميد ومنبوذ أحمد. والساحة تعترك فيها صوارم الأقلام، فقتيلها راضٍ والقاتل بريء».

وقال الخوري افتيميوس عفيس، وحافظ عبد الملك منشئا «جريدة العالمين» في منتريال بأميركا:«يحسب بعضهم أن الصحافة مهنة لاستعطاء، ويعدُّها آخرون من أشرف المهن. إنها كالماء يتلون بلون الإناء، هي للاستعطاء إذا كان صاحبها مستجديًا، وهي شريفة إذا كان صاحبها شًريفا.... هي كالخطابة إلا أن صوتها يرمي إلى أقصى. تسيطر عَلَى الناس بشيء محسوس، ولكنهُ غير محدد ولا معروف... وقد تزول دولة السيف والمدفع وتلاشى قوة الكهرباء، وأما ذلك الفوز وتلك القوة المنبثقان من سماء الفكر والمتجليان على طور الصحافة فلن يزولا».

وقال الآباء اليسوعيون أصحاب جريدة «البشير» في بيروت: «الصحف إنما جُعلت لسد منافذ الرذيلة، وفتح أبواب الفضيلة».

وقالت الأميرة الكسندرة ملتيادي أفيرينوه صاحبة مجلة «أنيس الجليس» في الإسكندرية:«الصحافة إنما هي مدرسة جوالة ترود ما بين الأفهام لتصلحها، وتجول ما بين المدارك لتهذيبها. وأن كل منشئ لها إنما هو أستاذ لكل هوءلاء الناس الذين يثرونها. وحسبك بهذا تعريفًا للمنزلة العليا التي وصلت إليها، والمكان الرفيع الذي بلغتهُ دون سواها من فنون الآداب التي تقدمتها».

وقال الشيخ اسكندر العازار صاحب امتيار جريدة «صدى البرق» في بيروت: «الجرائد لسان الأمة، وهي كالحمامة تجوب البلاد وتحمل الأخبار إلى كل قطر».

وقال إلياس زيادة صاحب جريدة «المحروية» في القاهرة:«الصحافة دليل ارتقاء الأمة، فهي عنوان نشاطها وبرهان تقدمها. فكلما كانت جرائد أمة راقيةً كانت تلك الأمة راقية أيضًا. ومن الثابت الذي لا يحتاج إلى دليل أن الصحف الساقطة لا يتسنى لها أن تعيش في وسط مرلق، وأن الجرائد المرلقية لا يمكنها أن تحيى وتنشأ في دائرة منحطة».

وقال الأب انستاس الكرملي منشئ مجلة «لغة العرب» في بغداد: «الصحافة هي نتاج العقل والعقل العامل، وحيث لا عقل عامل لا صحافة. نعم قد يكون أصحاب البلد الواحد عقلاء، وعلماء، وأذكياء بدون نشر الصحف والمجلات بين ظرافيهم. لكن يقال عن هؤلاء الفضلاء النجباء الألباء أن عقولهم راكدة، جامدة، هامدة لا نشاط فيها، بل لا حراك فيها، بل ولا حياة فيها، وإنما طائر الموت قد نشر جناحيه عليها فاسكت منامتهم وأخمد ناشئتهم. والعكس بالعكس؛ أي إذا رأيت أمةً عاملة نشيطةً رافعةً علَم العلم ولواء العمران يخفق عليها حكمت بالضرورة أنها ذات صحافة راقية، وأن أهلها من أبعد الناس إمعانًا في الحضارة. وكما أن العاقل العامل قد يكون عاملاً لخير وعاملاً للشر، تكون الصحافة أيضًا عاملة للخير وعاملة للشر؛ فهي إذًا من أقوى الوسائل لبث الصلاح بين الأمة، كما أنها من أعمل العوامل لنشر المفاسد بين الصلحاء أنفسهم».

وقال أنطون الجميل منشئ مجلة «الزهور» في القاهرة:«كان حامل القلم كحامل السيف، في يمين كليهما سلاح ماض... وأصبح حامل القلم في العصر الحديث كالقابض عَلَى الصولجان، كلاهما نافذ الكلمة مرعي الجانب. ولكن لا يتم ذلك للكاتب إلا إذا فهم حقيقة مهمته».

السيدة جان ديريو

المعروفة أيضًا باسم «جمانة رياض»، أو «فاطمة الزهراء»

منشئة مجلة «الإحياء» في مدينة الجزائر بشمال إفريقيا

«وأدرك شرف مهنته، فإذا لم يكن كل من هز الحسام بضارب، فكذلك ليس كل من هز البراع بكاتب. وأبعد حملة الألام نفوذًا الآن هم الصحافيون بفضل انتشار الصحف، وإقبال الكبير والصغير عليها. وعليه يجب أن تكون الصحافة –كما قال أحد كبار المفكرين– شجرة الحقيقة، يغرد على أفنانها الكتّاب الصادقون».

وقال بشارة عبد الله الخوري منشئ جريدة «البرق» في بيروت:«الصحافة من الأمة».

وقال شبل دموس اللبناني صاحب جريدة «الإصلاح» في نيويورك: «الجريدة مدرسة العالم الكبرى. ومن الواجب أن تُلقي عَلَى طلاَّبها العلم الصحيح لينتفعوا به، فإن كانت جاهلةً أَضلَّلتهم، وإن كانت عَلَى هدى

قادتهم في منهج الرقي. لذلك يتوجب عَلَى الجريدة أن لا تنشر بين أعمدتها إلا كل ما هو ممحص بالبرهان السديد».

وقال شكري جرجس أنطون صاحب جريدة «العدل» في ريودي جانيرو: «الصحافة في العالم الراقي موقرة معتبرة، وهي قائدة الرأي العام... الصحافة في العالم المتمدن قوة تخشاها جنود البر ومدافع البحر. الصحافة في العالم الراقي هي الحاكم، وهي المراقب، وهي الأمة.. روزفلت بعد أن وصل إلى أكبر وظيفة في العالم؛ أي رئاسة جمهورية أميركا الشمالية البلاد الغنية بالمال، والرجال، والعلم، والمعارف لم يرَ أحسن من الصحافة مهنة. اختار روزفلت الصحافة لأنها منبر حرّ، اختارها لأنها مراقبة على أعمال كبار الأرض».

وقال السيد عبد الرحمن الكواكبي صاحب جريدة «الاعتدال» في حلب:«إن موضوع الجرائد هو مطلق خدمة الإنسانية من حيث تهذيبهاالأخلاق وتأليف الأفكار، ورذل النقائص العمومية الجليلة التي تجعل الإنسان أن يعتبر الجرائد بمقام خادم عمومي ساعٍ بالخير».

وقال عبد الحميد زكي صاحب جريدة «السياسة المصورة» بالقاهرة: «الجرائد مدرسة العامة».

وقال السيد عبد القادر الاسكندراني صاحب مجلة «الحقائق» بدمشق: «وُضعت الصحف لتعرف الإنسان بما له وما عليه من واجبات.. ونرى أنها الدالة على حضارة قومها، وترقي آلها. وأنها يد

البائس، وعضد المسكين، ولسان الخائف، وساعد المظلوم. وأنها تاريخ عام للمحسن والمسيء، تنتقد للإصلاح، وتسير على نهج الفلاح، وتصدع بالحق ولو آلمها، وتجهر بالصدق ولو جرحها».

وقال عبد القادر حمزة صاحب جريدة «الأهالي» في الإسكندرية: «إذا حوسب كل أمرئ على عمله كان حسابه مجملاً لا مفصلاً. وإذا حوسب الكاتب الصحافي على ما يرقش ويسطر كان حسابه عَلَى كل كلمة من كلماته وتعبير من تعبيراته، لأن الكاتب الصحافي مرشد، ومؤرخ، وقيم، وناصح، ومعلم. وبمقدار هذه الصفات الجليلة يحاسبه الجمهور عليها حسابًا كبيرًا».

وقال السيد على باش حاتبه صاحب جريدة «التونسي» في تونس: «لا مراء ولا فرية في أن الصحف في هذا العهد هي: أعضاد الحكومات، وسواعد الأمم، ومطايا الأحزاب، ورسل الأفكار، وقوادي الآراء، ومنابر الأنباء، وملتقى القرائح، ومحك النباغة، وأسفار التهذيب، ولسان الدفاع، وصدى صوت المظلوم، وفير الاجتماع، ومدرسة التقدم، ونذير الحروب، وداعية السلام».

وقال فارس دبغي صاحب جريدة «الأمازون» في ان باولو: «الصحافة عمل شريف، وشرفها صادر عن سمو الغاية؛ فهي قوام العلم، والفضيلة، والأدب، والسياسة، تطرد الضلال وترد إلى الهدى، تحوي الحديث العذب المورد، وتنقل الخبر الرائق المجتنى الجزيل النفع،

تضرب عَلَى أيدي الطغاة لتقدس حقوق الأمة، وتظهر للفرد واجباته نحو وطنه، وتفرض على الشعب المطلب الرفيع، وتستنهض الهمم لنشد المجد، فتقيلها من أدوار الانحطاط والعسف».

وقال قيصر المعلوف صاحب جريدة «البرازيل» في سان باولو:

«ترى ما الذي ترجو الصحافة خيرهُ إذا لم يكن ما ترتأيه له صدى»

«فهل نفعت خيلٌ بدون فوارسٍ وهل دفعت سمرُ القنا وحدها

وقال قصير باشا كرم صاحب جريدة «تركيا» في القاهرة: «الجرائد في كل أمة مرآة تمدنها، وعنوان حضارتها، والوسيط الوحيد بينها وبين الهيئة الحاكمة، وترجمان عواطفها. فالتصدر لأنشأئها، وعِر السبيل، صعب المنال، عَلَى صاحبه فروض كثيرة: أولها الصدق والاعتدال، ثم الإخلاص في النصيحة والتمسك بالوطنية التامة مع ميل عن كل ما تشتم منهُ رائحة التمليق والغرض».

وقالت السيدة لبيبة هاشم صاحبة مجلة «فتاة الشرق» بالقاهرة: «لا ريب في أن الجرائد أعظم مهذب للأمة، وأفضل مقياس لدرجة ارتقائها؛ فهي المدرسة الثانية التي يوكل إليها تنوير الأذهان وإصلاح الأخلاق والآداب. ولذلك أنشأ لها الغربيون مدارس خاصة لتعليم آداب اللغة، والتاريخ، والفلسفة، إلى غير ذلك مما يلزم الصحافي لترويج بضاعتهِ وإفادة قرائهِ. فارتقى بذلك شأن الصحافة، وسمت منزلة أصحابها أدبيًا وماديًا».

وقال لطفي بك عيروط صاحب جريدة «المنعم» في القاهرة: «الجرائد هي مدرسة الشعب الكبرى، التي تعملهُ شرف المبدأ، والأخلاق الحسنة، والعوائد القويمة، والآداب الاجتماعية، وتوقفه على مجريات أحوال الأمم النائية من سعادة، وشقاء، وارتقاء، وهبوط. ويقرأ الإنسان فيها ما يطرأ من الحوادث المهمة في داخلية البلاد وخارجيتها ليكون عَلَى بينة من أمره وقومه؛ ليتمكن أن يهيء لنفسه المقام الأول من الثروة، والسؤدد، والملك، والتقدم في العلوم والصنائع».

وقال الأب لويس شيخو اليسوعي صاحب مجلة «المشرق» في بيروت: «إنها لشريفة مهنة الصحافة ورتبة الكتابة في الهيئة الاجتماعية؛ إذ يجرد الكاتب قلمه لخدمة كل مشروع صالح، وكل مسعى حميد من شأنه ترقية الخير العام ورفع شأن الوطن، غير أن هذا القلم أشبه بسيف ذي حدين إذا وقع في أيدي الجهال، ولعبت بنصله الأغرار. فربما كان آفة وبيلة مشئومة يجرح بها اللاعب نفسه، ويضر بغيره».

هنري غليياردو

واضع أساس تاريخ الصحافة العربية

وقال السيد محمد الجعايبي منشئ جريدة «الصواب» في تونس: «للصحافة مقام رفيع بين الأمم الراقية، لإنها تعتبرها ترجمان أفكارها، ورائد مقاصدها،والمنبه الوحيد للحكومات إذا زلت أقدام ساستها، أو تنكبوا عن طريق العدالة والمساواة؛ فهي كما قال بعضهم: صديق لا

يراوغ، ونصوح لا يبخل بإسداء النصيحة، ومعاتب لا يملُّ العتاب. ولئن كانت لها سيئات فلها من حسناتها ألف شفيع كما قال مسيو كميون سفير فرنسا بلندرة».

وقال محمد سامي صادق صاحب جريدة «الوجدان» في طرابلس الشام:«الصحافة عامل قوي في تهذيب الأمة والنهوض بها من قرارة الفساد والجهل، ولكن بشرط أن يكتبوا بأقلام لا يحاولون فيها إتجارًا بوطن وشعب. بل الغاية التي يرمون إليها هي الخدمة الصادقة التي ينجم عنها احتقار المصلحة الخاصة حيال الصالح العام».

وقال محمد الشريف ابن الشيخ المنوبي التجاني صاحب جريدة «خطيب العالم» في تونس: «الصحافة هي العمل الذي تهابه السلاطين، ويخضع له كل جبار في العالمين».

وقال السيد محمد علي هبة الدين الشهير ستاني منشئ مجلة «العلم» في النجف: «أليست هي (الصحافة) للأمة عينًا مراقبًا، ولسانًا ناطقًا، وخطيبًا صادقًا، ودرعًا واقيًا، ومعلمًا هادئًا، ومؤدبًا ناصحًا، وصراطًا واضحًا؟ تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، لا تحمي في الباطل حميمًا، ولا تهضم في الحق خضيمًا. وكل صحيفة أخطأت هذا الصراط فعلى الأمة تأديبها ولو بالسياط».

وقال محمد غانم بالقاهرة: «الصحف هي ملك للجمهور، صاحب الجريدة لا يملك منها سوى الحبر، والورق، وما يحصله من

قيمة الاشتراك، وهذه أشياء لا تتعلق بجوهر الصحافة التي ما وجدت إلا لتؤدي وظيفة الخدمة العامة للأمة».

وقال محمود بك حسيب صاحب «مجلة المجلات العربية» في القاهرة: «الصحافة –كما لا يخفى– هي لسان حال الأمة وترجمانها لدى حكومتها، والمشكاة التي تبدد ظلمات الجهل بنور الآداب، والمورد العذب الذي يرتشف منه الأدباء ماء العلوم عَلَى أهون سبيل، بل هي المربى الذي يثقف عقول أبناء الوطن ويرشدهم إلى سبل المجد ورفعة الشأن، والجنة الدانية القطوف؛ فيجني الناس منها ثمار الآداب وفواكه العرفان».

وقال محمود الشاذلي منشئ مجلة «الصيحة» في طنطا: «الجرائد في كل الأمم هي القائدة إلى مواطن الحكم، وهي المرشدة إلى الصواب، المنبهة باجتناب ما يُعاب. وهي الناقلة لأخبار من مضى، والممثلة لأعمال من حضر، الداعية إلى ما يجلب الخير الناهية عن جانب الضرر، الناطقة بثناء العادلين، الخافضة بمقام الظالمين، وما من أمةٍ كثرت فيها الجرائد وراج سوقها إلا وكان لها القدح المعلى في المدنية، والقسط الأوفى من الآداب، والنصيب الأعظم من العلم والعرفان».

وقال محمود كامل كاشف صاحب مجلة «الآخاء» في طوخ قليوبية بمصر: «الصحافة في الغرب حكومة عاملة في قلب حكومة عاملة».

وقال مصطفى راغب توكل صاحب جريدة «الإصلاح الحجازي» في جدة: «الجرائد وجدت لتهذيب الشعب ومساعدته في حياته الاجتماعية والعمرانية.... إن مهنة الصحافي من أشرف المهن، وعليه أن يكون صبورًا حكيمًا متحملاً لكل أنواع الصعوبات التي تقوم في وجهه، ومخلصًا نحو قرائه، وساعيًا لخيرهم من كل الوجوه».

وقال الأمير نسيب محمود شهاب أحد أصحاب مجلة «العريس» في حمص: «الجرائد هي قادة الأفكار وترجمان الأمة، والمثقفة الحكيمة، تكرس أيامها لفائدة قرائها، وتعرض ذاتها لانتقام بعض الناس رغبةً في الإصلاح، تبس تارةً وتعبس أخرى. تضرب طورًا بمنديل من حرير، وطورًا بعصا من حديد حسب مقتضى الحال والزمان. بواسطتها تُعرف أخلاق البلاد، وعادات السكان، ودرجة رقيهم الصحيح، ومركزهم الحقيقي من التمدن والآداب؛ فمتى ارتقت الجرائد في دولة فبشر الإنسان بارتقاء تلك الأمة».

وقال نسيم ملول صاحب جريدة «السلام» في القاهرة: «الجرائد هي عامل من عوامل الإصلاح والرقي، وقوة لا يُستهان بها تجمع ما بين القلوب المتنافرة وتصلح معوج الأمة، وهي أس النجاح واليد القوية في إحياء الشعوب».

وقال نعيم صوايا صاحب مجلة «الحقيقة» في الإسكندرية: «الصحافة مجرى عمران الأمة، ومجرى سوابق أفكارها، ومرآة أخلاقها

وعاداتها. فهي طائرها المغرد، ومرشدها الحكيم، ودليلها الأمين؛ بل هي من الأمة بمثابة المرضع من الطفل، تغذوه بلبانها، وترأمه بحنانها،وتغذيه بروحها، ولا تدع سبيلاً لمرضاته إلا لهجته، مسوقة إليه بحادي الحب والحنو، وهما منها في الغاية القصوى والذروة التي لا يبلغها متناول».

وقال ولي الدين بك يكن مؤلف كتاب «المعلوم والمجهول» في القاهرة: «الجرائد هي ألسن العقلاء، تنطقها الحكمة ولا يستميلها الهوى، وإن الواجب عليها أن تقود لا أن تُقاد».

الفصل الثالث

مؤرّخو الصحافة العربية

(١) لما كانت الصحافة العربية حديثة العهد لم يقم أحد بين الكتبة تحري البحث عن تاريخها سوى في الآونة المتأخرة. وأول مَن شمّر عن ساعد الجد لطرق هذا الباب كان هنري غلياردو قنصل فرنسا سابقًا في حيفا، ونزيل بيروت حالاً. فإنه أثناء وجوده في منصب ترجمان لقنصلية دولته في القاهرة سنة ١٨٨٤ وضع تقريرًا مسهبًا في اللغة الفرنسية يتضمن تاريخ الصحف العربية التي كانت تُنشر حينئذ في وادي النيل. ثم أضاف إلى أخبار كل جريدة ترجمة صاحبها، وأمياله السياسية، وأغراضهُ الذاتية. ولهذا التقرير نسختان مخطوطتان؛ إحداهما في خزائن الوزارة الخارجية في باريز، والثانية في الوكالة الفرنسية بعاصمة الخديوية المصرية. هكذا أتيح لأمة الفرنسيس أن يكون السيف لأحد أبنائها في وضع زاوية البنيان لتاريخ الصحافة العربية، كما أُتيح لها أن يكون تأسيس باكورة الصحف العربية عَلَى يد أحد أبطالها العظام الأمبراطور نابوليون الكبير.

(٢) أما أول الذين كتبوا بعده أخبار الصحافة من الناطقين بالضاد كان جرجي زيدان الذي أنشأ مقالة ذات ثماني صفحات سماها «الجرائد العربية في العالم»، ثم نشرها في العدد الأول للسنة الأولى من مجلة

الهلال. وبعدما تكلم باختصار عن هذا الموضوع سرد اسماء الجرائد والمجلات التي ظهرت إلى سنة ١٨٩٢ فبلغ مجموعها على روايتهِ مائة وسبعًا وأربعين صحيفة. ولولا حرصه عَلَى إحياء ذكرها لدخل كثير منها في خبر كان، وطمس عليها الزمان، وباتت في زوايا النسيان. غير أنه مع شدة تدقيقه فاتته اسماء صحف شتى؛ إما سهوًا وإما لعدم وقوفه عليها لقلة عناية الشرقيين قبله، وعدم اهتمامهم بصيانة آثار الأقدمين. وذكر بعض جرائد لم نعرف لها أممًا ولا رممًا بين الصحف العربية كجريدة «تلمسان» في مدينة تلمسان من أعمال الجزائر. وإنما توجد جريدة فرنسية لا عربية بهذا العنوان، كما أفادنا أكثر من واحد من علماء تلمسان الخبيرين ولدينا نسخة منها. ثم ألّف سنة ١٩١٠ نبذةً أخرى أوسع من الأولى عنوانها «تاريخ النهضة الصحافية في اللغة العربية» وطبعها في الجزء الثامن للسنة الثامنة عشرة من مجلته المذكورة. وهنا أسهب الكاتب في البحث عن هذا الموضوع لاسيما فيما يتعلق بالصحافة المصرية التي نالت المقام الأعلى بين رصيفاتها في سائر الأقطار. وقد روى أن عدد الجرائد العربية التي صدرت في العالم من أول عهد الصحافة إلى ظهور المقالة المذكورة بلغ نحو ستمائة صحيفة. والحال أنها تبلغ أكثر من ضعفي هذا العدد كما يتضح من جدول الصحف في آخر كل جزءٍ من هذا الكتاب. فكفيمُنشئ الهلال فخرًا أنه فتح السبيل لغيره لأجل التفتيش عن عتائق الصحافة، ومهَّد لهم طريق معرفة أخبارها. ونحن أول من يعترف بفضله الواسع ويثني على حماستهِ

العظيمة لإعلاء شأن الأدب، وخدمة لسان العرب كما سنبينهُ في المجلد الثاني من هذا الكتاب.

(٣) وفي ٣ آذار ١٨٩٣ نشر محمد كامل البحيري في العدد الأول من جريدته «طرابلس» نبذة ذات ثلاثة أعمدة ونيف، سرد فيها تاريخ نشأة الجرائد، وفوائدها، وعددها في العالم. فلما أتى عَلَى ذكر الصحف العربية منها جعل «حديقة الأخبار» في بيروت. وجريدة «الرائد التونسي» في تونس أقدمها عهدًا. مع إن الأولى تُحسب ثامنة الجرائد، والأخرى تعد الثانية عشرة بالنسبة إلى عدد الصحف التي أنشئت قبل كليهما؛ وهي: أولاً «الحوادث اليومية»، ثانيًا «الوقائع المصرية»، ثالثًا: «المبشر»، رابعًا «مجموع فوائد»، خامسًا «أعمال الجمعية السورية»، سادسًا «مرآة الأحوال»، سابعًا «السلطنة»، ثامنًا «حديقة الأخبار»، تاسعًا «عطارد»، عاشرًا «برجيس باريس»، حادي عشر «الجوائب»، ثاني عشر «الرائد التونسي». ثم روى أن عدد الجرائد العربية التي صدرت إلى التاريخ المذكور يقارب الأربعين، والحال أنه أكثر من ذلك بأضعاف بحيث كان يناهز المائتين بكل تأكيد.

جرجي زيدان

أوَّل من كتب في تاريخ الصحافة العربية بين الناطقين بالضاد

(٤) ونشر عبد الله الأنصاري أستاذ اللغة العربية في دار العلوم الخديوية بالقاهرة سنة ١٣١٢ هجرية (١٨٩٣) كتاب «جامع التصانيف

المصرية الحديثة من سنة ١٣٠١ إلى سنة ١٣١٠ هجرية» في ٧٦ صفحة. فخصص منها تسع صفحات للصحف العربية التي نشأَت في المدة المذكورة، كما أورد المستعرب مرتين (هرتمان) في كتابه « The Arabic Press of Egypt» الذي سيأتي ذكره. غير أننا لم نطلع عَلَى كتاب الأنصاري لنيدي رايناقيه.

(٥) وفي فاتحة سنة ١٨٩٥ أصدر نجيب غرغور في الإسكندرية مجلة «العام الجديد» مستترًا تحت اسم «حاجب فضلي»، وضمنها تاريخ أهم الجرائد المصرية مع تراجم أصحابها ورسومهم في إحدى عشرة صفحة. فجاء عمله المفيد فريدًا، بل مبتكرًا في بابه. ثم كتب في ٢ كانون الثاني ١٩١٠ مقالة ذات أثني عشر عمودًاعنوانها «الصحافة في ثلاثين عامًا» ونشرها عَلَى صفحات جريدة «الاتحاد المصري» بمناسبة دخولها في السنة الثلاثين من عمرها. وقد أورد فيها أخبار أهم الصحف التي برزت في مدينة الإسكندرية في الحقبة المذكورة. ثم ختمها بسرد اسماء الصحف التي أنشأها باسمه، أو باسم مستعار، أو بالاشتراك مع غيره. وقد بلغ عددها تسع صحف بين جريدة ومجلة.

(٦) وفي السنة ذاتها عوَّل ديمتري نقولا الدمشقي صاحب مجلة «الفكاهة» سابقًا في القاهرة عَلَى وضع تاريخ الصحافة. فاعتنى أولاً بجمع آثار الصحف العربية التي صدرت منذ نشأتها إلى ذاك التاريخ تمهيدًا للمشروع المذكور. فتتوفق باجتهاد للحصول على أكثر الصحف القديمة والحديثة من أطراف الشرق والغرب. وما كاد يباشر العمل حتى

اضطر إلى تركه لموانع خاصة. فكان ذلك داعيًا لأسف الأدباء، يعهدون بالعالم المشار إليه مقدرةً وكفاءةً لمثل هذا العمل الخطير.

(٧) وفي السنة التابعة ظهر إعلان بتوقيع حكمت شريف باشكاتب المجلس البلدي في طرابلس الشام سابقًا، ومنشئ جريدة «الرغائب» حالاً ينبئ بأنه باشر تأليف كتاب «الخرائد في الجرائد» خدمةً للآداب العربية وللهيئة الأجتماعية. وكان في نيته أن يجمع اسماء الصحف العربية، والتركية، والفارسية على ترتيب حروف المعجم. وقد كتب لنا أنه ضرب صحفًا عن متابعة العمل لما كان يحول دون ذلك من المصاعب الجمة في عهد الاستبداد الحميدي.

(٨) وسنة ١٨٩٩ نشر الدكتور (مرتين هرتمان) أستاذ اللغات الشرقية والآداب الإسلامية في برلين كتابًا سماه« The Arabic Press of Egypt» في اللغة الأنكليزية. وضمنهُ تاريخ الصحافة المصرية حتى السنة المذكورة في ٩٤ صفحة بدقة يُشكر عليها. فبلغ عدد الصحف التي وصفها ١٦٨ بين جريدة ومجلة قد استند في أكثرها إلى ما وقف عليه من المجاميع المحفوظة في دار الكتب الخديوية. ولذلك فاتهُ ذكر جانب كبير من الصحف التي لا أثر لها في المكتبة المشار إليها كما هو معلوم ولا في غيرها. وهذا النقص لا يقلل شيئًا من قدر الكتاب، ولا يحط من منزلة مؤلفه. وقد انتقدهُ جرجي زيدان في مجلة «الهلال» مبينًا ما فيه من الحسنات والسيئات بما لا يوصف من العدل.

(٩) وتاريخ ٢٦ حزيران ١٨٩٧ نشر ميخائيل بن أنطون صقال الحلبي في مجلة «الأجيال» بالقاهرة مقالةً ذات أربع صفحات، ضمنها وصف «الصحافة في القطر المصري» لذاك العهد كل اختصار. ثم ألحقها بجدول يحتوي عَلَى اسماء الجرائد والمجلات، وقسمها بحسب مواضيعها؛ فبلغ عددها ٤٩ صحيفة. ورغمًا من كثرة اجتهاده فقد فاته ذكر بعض الجرائد،إما سهوًا، وإما لعدم وقوفهِ عليها. وأخطأ في تاريخ ظهور بعض الصحف كجريدة «الرائد المصري» التي جعل تأسيسها سنة١٨٩٧ بدلاً من سنة ١٨٩٦، والمؤيد سنة ١٨٩٠ بدلاً من ١٨٨٩، والوطن سنة ١٨٧٨ بدلاً من ١٨٧٧، والمحروسة سنة ١٨٧٧ بدلاً من ١٨٨٠، والمقتطف سنة ١٨٧٧ بدلاً من ١٨٧٦، والفلاح سنة ١٨٨٨ بدلاً من ١٨٨٥، والفردوس سنة ١٨٩٨ بدلاً من ١٨٩٦، والتوفيق سنة ١٨٩٦ بدلاً من ١٨٩٧.

(١٠) وقام بعده المستشرق الفرنسي اكلمينت هوار (Clément Huart) ونشر سنة ١٩٠٢ كتابًا سماه «Littérature Arabe» وأودعه فضلاً عن تاريخ الصحافة العربية عمومًا في سبع صفحات، فأصاب المرمى في جميع مباحثه كرجل عاش بيننا، واختبر أحوالنا، ووقف عَلَى أسرار لغتنا وآدابنا.

(١١) وفي السنة ذاتها ظهر في مدينة سان باولو من أعمال البرازيل كتاب «التحفة العامية» بقلم سكري الخوري صاحب جريدة أبو الهول المستتر تحت اسم (زيد) كما يتضح من الكتابة المطبوعة في

أسفل رسم المؤلف. وفي آخره نبذة عنوانها (جرائدنا في البرازيل) تتضمن أخبار الصحف التي ظهرت في هذه البلاد من عام ١٨٩٦ مع اسماء أصحابها، ومحوريها، ورسومهم. وهي عبارة عن أثنتي عشرة صفحة بقطع صغير.

(١٢) وللمستعرب الفرنسي السيد ميرنت (Mirante) مدير جريدة (المبشر) الجزائرية نبذة عنوانها (La Presse Périodique Arabe) نشرها سنة ١٩٠٥ في الجزء الثالث من كتاب « Actes du XIVe Congrès International desOrientalistes»، إلا أننا لم نتوفق للوقوف عليه.

(١٣) وللأب لويس شيخو اليسوعي منشئ مجلة «المشرق» كلام مفيد عن الصحافة وعن تاريخ الصحافيين في كتابه المسمى «الآداب العربية في القرن التاسع عشر»، حيث روى أمورًا متفرقة لم يروها الذين سبقوه في هذا المضمار. غير أن مباحثه لا تتناول موضوع الصحافة بوجه خاص، بل تشمل الكلام عن الآداب والأدباء بين الناطقين بالضاد في جميع البلاد.

(١٤) وفي ١٠ كانون الثاني ١٩٠٧ كتب محمد صادق المحمودي في جريدته «المعارف» الصادرة بتونس لمحةً ذات ستة أعمدة عنوانها «تاريخ الجرائد»، تتضمن مختصر أخبار الصحافة لاسيما التونسية منها. فجاءت روايتهُ طبق المرام إلا في بعض أمور تافهة كنسبته

جريدة «المقطم» إلى القبط، مع أن أصحابها سوريون. ومنها أيضًا قوله إن الشيخ سليمان الحرائري أصدر جريدة «برجيس باريس» بينما أن مؤَسسها كان الكونت رشيد الدحداح اللبناني الذي تركها للشيخ سليمان، وغير ذلك من الأغلاط.

(١٥) ونشرL.Bouvat سنة ١٩٠٧ في مجلة (Revue du Monde Mosulman) المطبوعة في باريز مقالة عنوانها:«الصحافة العربية التونسية» في ست صفحات. فأتى فيها عَلَى وصف الجرائد التي صدرت في إمارة تونس، وتاريخها، وبيان خطتها. غير أنهُ أهمل ذكر جانب كبير منها كجريدة «المنتظر»، و«سبيل الرشاد»، و«لسان الحق»، و«القلم»، و«حبيب الأمة»، و«ترويح النفوس».

(١٦) ثم نشر (L.Mercier) في المجلة ذاتها بتاريخ شهر آذار ١٩٠٨ مقالة فرنسية عن «الصحافة الإسلامية في مراكش» في ١٢ صفحة. فذكر أنها كانت حديثة العهد في السلطنة المشار إليها، جاعلاً جريدة «لسان المغرب» لمنشئها فرج الله نمور سنة ١٩٠٧ باكورة الصحف العربية في تلك البلاد. ومن المعلوم أنه ظهر في مراكش قبل العهد المذكور أكثر من جريدة؛ وأشهرها «المغرب» عام ١٨٨٨ لصاحبيها عيسى فرح وسليم كسباني اللبنانيين، ثم «الاستقطاب في المغرب الأقصى» سنة ١٩٠٠ لمحررها إبراهيم يزبك اللبناني أيضًا. ومنها جريدة «السعادة» سنة ١٩٠٥، وجريدة «الصباح» عام ١٩٠٦ لمحررهما وديع كرم اللبناني.

(١٧) وفي ٢٠ حزيران ١٩٠٩ أنشأ جرجي باز مقالةً عنوانها «المجلات النسائية العربية»، نُشرت في مجلته «الحسناء» في ثلاث صفحات ونيف. فذكر منها أربع عشرة مجلة طبعت بأسرها في القاهرة والإسكندرية، ما عدا مجلته المذكورة التي ظهرت في بيروت. كما فاته التنويه ببعض مجلات نذكر منها: أولاً «الفردوس» لصاحبتها لويزا جالين في القاهرة، والثانية «البرنسيس» لمنشئتها فطنت هانم في المنصورة، والثالثة «الزهرة» لصاحبتها مريم مسعد في الإسكندرية، والرابعة «مجلة ترقية المرأة» لمنشئتها فاطمة راشد في القاهرة، والخامسة «المودة» لسليم خليل فرح بالإسكندرية.ولجرجي باز مقالة أخرى ذات ثماني صفحات عنوانها «الصحف والصحافيون»، نشرها بتاريخ ٤ كانون الثاني ١٩٠٤ في مجلة «المحية» البيروتيي. وقد ألمح فيها إلى آداب الصحافة وتاريخها في العالم بعبارة شائقة تدل عَلَى ذكاء منشئها، ودقة مباحثه، ورسوخ قدمه في صناعة التحرير. غير أنهُ جعل صدور «الوقائع المصرية» عام ١٨٣٠ بدلاً من ١٨٢٨، ومثلها «حديقة الأخبار» عام ١٨٥٧ بدلاً من ١٨٥٨.

(١٨) ومنذ ٣١ آذار١٩١٠ أخذ عيسى اسكندر المعلوف ينشر في مجلة «النعمة» التي تصدرها بطريركية الروم الأرثوذكس في دمشق، متتابعة عن «الصحافة العربية» عَلَى الإطلاق. ومن مميزات مباحثه أنه بين ما كانت عليه الصحافة في دورها الأول من الركاكة في التعبير وما آلت إليه الآن من بلاغة الكلام والمعاني. ثم أورد عَلَى ذلك أمثلة شتى، وبراعين دامغة تشير إلى ما عاناه من شدة التنقيب في مباحثه الصحفية،

وقد أجاد غاية الإجادة فيما كتبه عن الدورين الأول والثاني، بحيث أنه أسهب في هذا الموضوع أكثر من جميع المؤرخين الذين سبقوه. ولما كان البحث في تاريخ الصحافة العربية من أصعب المباحث لخلوها من المصادر الموثوق بها، فلا عجب إذا فات صديقنا عيسى أفندي بعض حقائق نستأذنه بالإشارة إليها. وربك فوق كل ذي علم عليم.

فلقد رأينا في أبحاثه المفيدة أنه أهمل ذكر كثير من الصحف؛ كجريدة «المبشر» المطبوعة في الجزائر وهي ثالثة الجرائد العربية في قدمة العهد، ونسب جريدة «أبو الهول» في باريز سنة ١٨٨١ للدكتور لويس صابونجي وهي ليست له، كما أفادنا الدكتور المشار إليه. ثم جعل جريدتي «الخير»، و«البستان» بين صحف الجزائر بدلاً من تونس، ولم يُشير إلى أنهما كانتا تُطبعان بالحرف العبراني.

ولما تشرفنا بزيارته سنة ١٩١١ في منزله بمدينة زحلةألفتنا نظره إلى هذا السهو لأجل إصلاحه في طبعة أخرى. وأحصى «العَلَم المصري»، و«المنتقد»، و«اليانصيب»، و«الأرغول»، وغيرها بين الجرائد المصرية في الدور الثالث، مع أنها مجلات. وأخطأ في تاريخ ظهور صحف شتى حيث إنه قدّم أواخر بعضها عَلَى بعض كما يتضح بالمقابلة بين الجداول التي نشرها، وبين الجداول التي نشرناها في هذا المجلد، أو سننشرها في الأجزاء التالية. إنما كل ذلك لا يشوه على الإطلاق ما بذله من الدقة في التفتيش عن تاريخ الصحافة التي خدمها بكل أمانة قولاً وعملاً. ولعيسى أفندي مقالة نشرها في مجلة «الزهور»

المطبوعة في القاهرة (سنة ١ عدد ٩ صفحة ٣٧٦) وذكر فيها أن عدد الجرائد العربية بلغ ثمانمائة صحيفة. مع أنها كانت في ذلك العهد (أي سنة ١٩١١) لا تقل عن ألف وأربعمائة صحيفة، أكثرها موجود عندنا وتحت يدنا.

(١٩) وبتاريخ ٢٥ و٢٧ تشرين الأول ١٩١٠ نشرت جريدة «العلم» في القاهرة خطبةً عنوانها «مركز الصحافة في مصر، والأدوار التي تعاقبت عليها في عهد الاحتلال الانكليزي» في أثني عشر عمودًا. وهذه الخطبة ألقاها المحامي عبدالرحمن الرافعي في إحدى جلسات المؤتمر الوطني الذي عقده أحرار مصر سنة ١٩١٠ في مدينة بروكسل. وتتناول هذه الخطبة أخبار الصحافة المصرية بعد الاحتلال المذكور مع كل ما طرأ عليها من التقييد، أو الحرية بأسلوب حسن وإسهاب كامل، لكن لمحته لا تخلو من المغالاة في ذم المحتلين.

(٢٠) وفي شهر كانون الثاني ١٩١١ نشر السيد البشير الفورتي صاحب جريدة «التقدم» في تونس مقالة عن «تاريخ الصحافة التونسية» عَلَى صفحات جريدة «الهدى» النيويوركية. وهي ضافية الذبول كثيرة الفوائد، كما أفادنا السيد محمد الجعايبي التونسي. ولكننا لم نقف عليها لنقوم بوصفها رغمًا مما بذلناه من السعي في هذا السبيل.

(٢١) وفي غرة شباط ١٩١١ نشر الأب انسطاس الكرملي في مجلة «المسرة» اللبنانية مقالة مسهبةً تقع في ٣٨ صفحة عن «صحافة

بغداد»؛ فوصفها وصفًا صحيحًا لم تبق بعده زيادة لمستزيد؛ فإنه ذكر كل واحدة منها مبينًا ما فيها من الحسنات والسيئات بعين نقادة، ونفس مجرَّدة عن الغرض؛ خدمةً للغة والتاريخ. ولا ريب في أن أدباء الزوار يشكرون له هذا الصنيع، ويسعون في رقي جرائدهم التي أكثرها لا يعود بالافتخار عَلَى مدينتهم التي كانت في القرون الغابرة مهدًا للمعارف والآداب العربية على عهد الخلفاء العباسيين.

(٢٢) وفي ٧ شباط للسنة ذاتها وضع توفيق حبيب صاحب مجلة «فرعون» ومنشئ جريدة «الأكسبرس» في القاهرة مقالة عنوانها «الصحافة القبطية»، تقع في ١٤ صفحة كبرى مخطوطة باليد؛ فاجاد وأفاد في ما كتبه عن صحف طائفته بلا محاباة ولا تحيز. لأنه أورد الحقيقة على علاتها مستهجنًا ما رآه في الصحف مما يستحق الذم، ومستحسنًا منها ما يوافق المدح. وقد اعتمدنا في أكثر ما قلنا عن الصحف القبطية عَلَى رواية هذا الكتاب المنصف المدقق.

(٢٣) وفي ٢٩ تشرين الثاني ١٩١٢ كتب الطيب بن عيسى صاحب جريدة «المشير» بتونس نبذة في «تاريخ الصحافة التونسية» إجابةً لطلبنا، وهي ذات تسع صفحات تتضمن أخبار الصحف التي ظهرت في القطر المذكور باختصار، وصدق، ونزاهة، وتدقيق. وقد ذكرها قاطبةً وما فاته منها سوى الجرائد العربية المطبوعة بحرف عبراني.

هذا ما أمكننا الاطلاع عليه من الكتابات المتعلقة بأخبار صحافتنا، سواء كانت من قلم أبناء اللسان العربي، أو الأجانب. وقد حملنا داعي البحث عَلَى إبداء رأينا الضعيف في كل من الكتابات المذكورة توصلاً

للحقيقة لا تنكيتًا بأصحابها الأجلاء الذين سبقونا في هذا الميدان الوعر. وحاشا لنا أن نقصد في هذا العمل مسَّ إحساسهم، أو الخفض من قدرهم، ولأننا نعتقد فيهم صلاح النية والتجرد عن كل غاية في خدمة هذا الفن الشريف. وليس من منكر ما لهم من المساعي المشكورة في سبيل تعزيز شأن الصحافة التي لتحدث بفضلهم، وترفع لواء الثناء عَلَى منزلتهم الرفيعة في عالم الآداب.

الفصل الرابع

وجوه تسمية الصحف الدورية لدى العرب

لما ظهرت الصحافة العربية كان انتمائها مبتكرًا، لأن الكتَّاب تبعوا فيها اصطلاحات اللغة وذوق أهل العصر. فلقبوا الصحف باسماء يطيب معانيها وتروق ألفاظها كعقولهم: حديقة الأخبار، ومرآة الأحوال، ونزهة الأفكار، وغيرها. ثم توسعوا شيئًا فشيئًا بحيث حذوا حذو الغربيين في مسميات الجرائد والمجلات، فعرَّبوها وأطلقوا على صحفنا. هكذا درج عندنا كما درج عند الإفرنجاسماء الزمان، والوقت، والصباح، والفجر، والأيام، والحضارة، والمدنية، والعمران، والترقي، والتقدم، والنجاح، والتمدن، والنهضة، والإصلاح. وتبعوهم أيضًا في اسماء المدن: كالقاهرة، والإسكندرية، وطنطا، وحلوان، والفيوم، والخرطوم، والقدس، وبيروت، ودمشق، وحمص، وطرابلس، والأدقية، والموصل، وبغداد، والبصرة، وباريس، ودير القمر.وقس عليها اسماء الدول: كتركيا، ومصر، وتونس، وزنجبار، والبرازيل، وصدى المكسيك.أو اسماء الأقاليم والولايات: كسورية، والحجاز، وفلسطين، وبين النهرين، والسودان، وطرابلس الغرب.

ومن هذا القبيل اسماء البحار، والأنهار، والينابيع: كالمحيط، والكوثر، والفرات، والأمازون، والنيل، والبردوني، وبردي، ونهر العاصي، والشاغور. ومثلها اسماء الجبال: كلبنان، والكرمل، وصهيون، وعرفات،

والمقطم، وجبل عامل. أو اسماء الجهات: كالشرق، والمشرق، والغرب، وصدى الجنوب. تليها اسماء القارات كقولهم: كوكب أميركا، وكوكب إفريقيا، والعالم الجديد، وجريدة العالمين.

وقلَّد صحافيونا كتّاب الإفرنج في استعمال اسماء الكواكب والسيارات؛ فدعوا بها بعض صحفهم وهي: الشمس، والزهرة، والهلال، والقمر، والمشترى، والشهاب، والثريا، ونجم المشرق. واتخذوا مثلهم ثلاث كلمات للدستور: الحرية، والمساواة، والأخاة. ومن ذلك اسماء الفضائل: كالعدالة، والاستقامة، والحق، والصدق، والحكمة، والثبات، والوفاء، والإخلاص، والسلام، والإيمان، والرجاء، والأمل، والمحبة. ومنها الاسماء الدالة عَلَى النور: كالصباح، والفنوس، والنبراس. أو عَلَى فصول السنة: كمجلة الشتاء، ومجلة الربيع. أو على الآفات: كالطاعون. ثم اقتفوا آثارهم أيضًا في اسماء العلوم، والصنائع، والفنون: كالزراعة، والتجارة، ومجلة المساحة، والاقتصاد، والحقوق، والشرع، والقضاء، والبيان، والبلاغة، والآداب. وجروا مجراهم في الاسماء الهزلية كقولهم: المسخرة، وعيواظ، وكراكوز، وحط بالخرج، وضاعت الطاسة، وانخلي ياهلاله، والحشاش، والمكنسة، وأبو نظارة، وأبو صفَّارة، وأبو زمّارة، والجاسوس، وحمارة منيتي، وحمارة بلدنا، والعضا، وظهرك بالك.

وعمد بعض الصحافيين إلى استعمال الاسماء الدينية، أو الواردة في كتب الدين؛ فأطلقوها على صحفهم تبركًا: كالصليب، والكلمة، والنعمة، والمسرة، والصخرة، والحرمين، والخلافة، والكنيسة

الكاثوليكية، والكنيسة الأرثوذكسية، والمجمع الفاتيكاني، ومظلة داود، وأخبار عن انتشار الإنجيل. ورغب بعضهم في ألفاظ التحبب: كالفتى والفتاة، والعريس والعروس، والنديم والحسناء، وأنيس الجليس، وفتاة الشرق، واللطائف والظرائف، والتودد والشبيبة. وعوَّل بعضهم على اسماء تشير إلى النبات وما له علاقة بالطبيعة: كالحديقة، والبستان، والريحانة، والروضة، والرياض، والجنان، والجنة، والجنينة، والمرج، والفردوس، والثمرة، والثمرات، والزهور. كذلك قل عن اسماء الحيوان: كالنحلة، والغزالة، والطاووس، والأسد الإسلامي، والأسد المرقسي، والفيل الأبيض، ويعسوب الطب،والحمارة. وقس عليها الاسماء الدالة عَلَى الصوت وآلات الطرب: كالنفير، ونفير سوريا، ونفير الحرب، والصدى، ورجع الصدى، وصدى الأهرام، وصدى بابل، ولسان الحال، ولسان العرب، ولسان الشرق، ولسان المغرب، والصيحة، والأرغول. ومن هذا القبيل ما ستعملوه من الاسماء الدالة عَلَى الجولان: كالجوائب، والبريد، والطواف، والطائف، والسيار، والسفير، ورائد النيل، والرائد التونسي، والرائد المصري. لبعض الصحف اسماء تدل على المهن: كالطبيب، والرسام، والأستاذ، والمهندس، والمحامي، والخطيب، والمبشر، والمرشد. وغيرها يشير إلى العظمة والافتخار: كالسلطنة، واللواء، والعلم، والبيرق، والمنار، والطغراء، والمنبر، والمفتخر، والممتاز، والعجائب، والمستقبل، والاستقلال، ودار الخلافة، وطوالع الملوك، والكائنات، وضياء الخافقين، والدنيا في باريس. وبعضها يتناول الآثار العتيقة والمدن المندرسة: كالأهرام، وأبي الهول، والأرز،

والفسطاط، ونينوي، ومنفيس، والكنانة. ومنها ما هو منسوب إلى المعاهد العلمية الكبرى، أو الجمعيات الشهيرة: كالأزهر، والكلية والشرقية، والجمعية العلمية السورية، وأعمال شركة مار منصور، والعروة الوثقى، والتوفيق، ومجلة الملاجئ العباسية. وغيرها يعبر عن اسماء الشعوب، أو الطوائف، أو القبائل: كجريدة آل سام، ونهضة العرب، والاتحاد العربي، والاتحاد العصماني، والائتلاف العثماني، والإخاء العثماني، والعالم الإسلامي، والاتحاد المصري، والمارونية الفتاة، والأقباط الكاثوليك، وجراب الكردي.

وتفرد صحافيون العرب في استعمال اسماء لجرائدهم لم يُنسج على منوالها لدى سائر الأمم إلا ما ندر. فمنهم من أعطاها اسمه: كسركيس، والحافي، والصادق، والشدياق، والرسائل..... وبعضه أطلق عليها نعوت البلدان: كالشهباء، والفيحاء، والزوراء، والمحروسة. وغيرهم اتخد اسماء مشاهير الرجال، أو النساء: كالأصمعي، وأبي نواس، وأبي الهدى، وجهينة، وحذام. وقسم منهم باسماء السلاطين، والملوك، والخلفاء، والأمراء: كالرشيد، والمأمون، والرشاد، والمعتصم، والظاهر، وفرعون، والعباس، والمنعم. ولجأ بعضهم بلا ضرورة إلى الاسماء الأجنبية فاستعملوها كقولهم: الإكسبرس،والبورصة، والبوستة، والتلغرافات الجديدة، وتلغراف الريف. ونختم هذا الفصل بعبارة نشرتها مجلة الزهور (عدده: سنة أولى) في القاهرة وهي:

«ومن الجرائد ما لا ينطبق اسمها عَلَى حقيقتها. فالأكسبرس مثلاً جريدة أدبية لطيفة الأسلوب، تصدر مرةّ في الأسبوع، مع أن اسمها يفيد معني جريدة سياسية تتلقى الأخبار قبل سواها، وتصدر عَلَى الأقل مرتين في النهار وأخرى في الليل. وكذلك قل عن البرق البيروتية»

الفصل الخامس

فوائد تاريخية وشذرات أثرية عن الصحافة عمومًا، والعربية منها بنوع خاص.

ونذكر في هذا الفصل فوائد شتى اقتطفناها بعد البحث الطويل من مصادر متفرقة وموارد كثيرة. وهي جامعة بين الفكاهة، والعلم، والاختصار لما فيها من الشؤون التاريخية التي تتعلق بالصحافة عمومًا، والعربية منها خصوصًا. ولهذه المعلومات اعتبار كبير لدى عشاق التاريخ والباحثين عن الآثار العتيقة، لإنهُ لم يسبق نشرها كلها في كتاب، أو جريدة،أو مجلة عَلَى الإطلاق؛ فأحببنا أن ننشرها عَلَى صفحات هذا الكتاب ليطلع عليها الناطقون بالضاد وهي:

(١) أول جريدة أنشئت في العالم «كين بان» سنة ٩١١ قبل المسيح؛ وهي الصحيفة الرسمية لحكومة الصين. ولم تزل حتى الآن بحيث إنها تُنشر ثلاث مرات في اليوم: صباحًا بلون أصفر، وظهرًا بلون أبيض، ومساءً بلون أحمر.

(٢) وأول جريدة ظهرت في أوروبا «الأعمال اليومية» في روما عَلَى عهد الأمبراطور يوليوس قيصر في أواسط القرن الأول للمسيح.

(٣) وأول جريدة مطبوعة اسمها «...» ظهرت محفورة على الخشب في بكين عاصمة الصين منذ أربع قرون تقريبًا، ولم تزل حية حتى الآن.

(٤) وأول جريدة برزت بعد انتشار فن الطباعة الحديثة كانت تسمى «غزته» عام ١٥٦٦ في مدينة البندقية لإيطاليا.

(٥) وأول جريدة علمية «مجلة العلماء» الفرنسية صدرت عام ١٦٦٥.

(٦) وأول جريدة يومية «الدايلي كوران» الانكليزية ظهرت في ١١ آذار ١٧٠٢.

(٧) وأول جريدة ظهرت في العالم الجديد «بوسطن نيولستر» سنة ١٧٠٤ في مدينة بوسطن بالولايات المتحدة.

(٨) وأول جريدة عربية هي التي أنشأها نابوليون الأول سنة ١٧٩٩ في القاهرة عندما كان قائدًا للحملة الفرنسية في وادي النيل، واسماها حينئذ الجنرال بونابرت.

(٩)وأول صحيفة ظهرت في السلطنة العثمانية جريدة «بريد أزمير» الفرنسية سنة ١٨٢٥.

(١٠) وأول جريدة تركية «القويمي وقائع»، ظهرت في القسطنطينية سنة ١٨٣٢ بعناية مصطفى رشيد باشا في عهد السلطان محمود.

(١١) وأول من أعتنى بجمع الجرائد في العالم كان أندراوس ورزي في نواحي سنة ١٨٣٥.

(١٢) وأول من كتب عن الصحافة كان أندراوس ورزي المشار إليه. فإنه ألف تاريخًا يتضمن في نحو ٣٠٠ صفحة أخبار جرائد بلجيكا من سنة ١٦٠٥ إلى سنة ١٨٤٤.

(١٣) وأول جريدة عربية أنشأها رجلٌ عربي هي «مرآة الأحوال» في الأستانة سنة ١٨٥٤

لرزق الله حسون الحلبي.

(١٤) وأول جريدة عربية مصورة «أخبار عن انتشار الإنجيل في أماكن مختلفة» سنة ١٨٦٣ للمرسلين الأميركيين في بيروت.

(١٥) وأول مجلة عربية مصورة بكل معنى من معاني الكلمة «النحلة».أنشأها القس لويس صابونجي السرياني بتاريخ ١٥ حزيران ١٨٧٧ في لندن.

(١٦) وأول من كتب عن الصحافة العربية هنري غلياردو قنصل فرنسا سابقًا في حيفا عندما كان موظفًا في قنصلية القاهرة سنة ١٨٨٤.

(١٧) وأول صحيفة عربية مرسومة بألوان جريدة «أبو نظارة» في باريس للشيخ يعقوب صنوع المصري بتاريخ ٢٢ كانون الثاني ١٨٨٧.

(١٨) وأقدم جريدة عربية لم تزل منتشرة حتى اليوم «الوقائع المصرية» المؤسسة في ٢٠ تشرين الثاني ١٨٢٨ في القاهرة.

(١٩) وأول نادٍ تأَسس للمولعين بجمع الصحف كان سنة ١٨٩٠ في مدينة بروكسل عاصمة بلجيكا.

يوحنا غوتنبرج وفاوست

وهما أَوَّل من اخترع فن الطباعة الحديثة في العالم.

(٢٠) وأول جريدة عربية ظهرت في العالم الجديد «كوكب أميركا» بتاريخ ١٥ نيسان ١٨٩٢.

(٢١) وأول معرض للجرائد كان سنة ١٨٩٣ في بروكسل.

(٢٢) وأول مؤتمر للصحافة أنشئ سنة ١٨٩٤ في مدينة أنفرس أثناء معرضها العام.

(٢٣) وأول صحافي عربي حضر بصفة رسمية مؤتمرًا عامًا للصحافة كان الأمير أمين أرسلان اللبناني سنة ١٨٩٧ في استوكهلم عاصمة أسوج.

(٢٤) وأول مدرسة للصحافة أنشئت عام ١٨٩٩ في باريس.

(٢٥) وأوَّل مؤتمر للصحافة العربية التام سنة ١٩٠٠ بهمة أصحاب جرائدنا في المهجر في مدينة نيويورك بالولايات المتحدة.

(٢٦) وأجمل نسخة صدرت بين جميع الصحف العربية قديمًا وحديثًا عدد جريدة «البشير» المنشور في ٢٢ شباط ١٩٠٢ في فرصة اليوبيل الحبري الفضي للبابا لاون الثالث عشر.

(٢٧) وأول متحف للصحافة تأسس في بروكسل عام ١٩٠٧؛ وهو يحتوي على أوسع مجموعة للجرائد واامجلات في العالم كله.

(٢٨) وأول من أخترع آلة لصف حروف الطباعة العربية، وآلة لتوزيع الحروف تسهيلاً لسرعة انتشار الجرائد كان رشيد أفندي الخوري صاحب جريدة «الرموز» سابقًا في بونس ايرس سنة ١٩٠٨.

(٢٩) وأول جريدة عربية أقامت احتفالاً رسميًا لمرور خمسين سنة عَلَى عهد ظهورها «حديقة الأخبار» البيروتية في ١٣ كانون الأول سنة ١٩٠٨.

(٣٠) وأشهر مجموعة للجرائد والمجلات خاصة بالأفراد خلال المجاميع العمومية يملكها البرت دي فوفنت، ويبلغ عددها نحو ٥٥ ألف صحيفة مختلفة الاسماء واللغات.

(٣١) وأوسع مجموعة للصحف العربية وحدها يملكها فيليب دي طرازي كاتب هذه السطور، وهي تبلغ نحو ١٢٠٠ جريدة ومجلة

مختلفة، ما عدا التقلبات والتغيرات التي طرأت عَلَى كل منها. ولدى كاتب هذه السطور أيضًا مجموعة نفيسة من الصحف التي ظهرت في اللغات الشرقية: كالسريانية، والتركية، والأرمنية، والفارسية، والعبرانية، والتترية، والأردوية، واليابانية، والصينية، والملارية، والجاوية، وغيرها من ألسنة الشعوب البعيدة.

(٣٢) وأوَّل مرَّة في تاريخ الصحافة الأميركية لم تصدر الصحف كان ذلك في عيد الميلاد سنة ١٩١٢.

الفصل السادس

عطا بك حسني

لا يجهل أحدٌ ما لهذا الرجل الوجيه من المآثر الطيّبة، فإنه بلا مراء من أبناء مصر الذين وقفوا حياتهم في سبيل خدمة الأدب، والوطن، والملة. ولذلك قرظته الصحف الوطنية والأجنبية، ونشرت رسمه مع ترجمته إقرارًا بفضله. فمن الجرائد العربية والتركية نذكر: «ثروت فنون» في الأستانة، ثم «الوطن»، و«الرقيب»، و«المفتاح»، و«المحيط»، و«الجريدة المصورة»، و«المعرض»، و«العمران»، و«الرأية العثمانية»، وغيرها من الصحف المصرية. أما الصحف الأجنبية فنذكر منها: The Near East في لندن، ومجلة Magazine Ibusiré في باريس، ومجلة La Donna في روما، وجريدة Le Bosphore، ومجلة The Sphinx في القاهرة، وغيرها. فإنها أجمعت قاطبةً على امتداح سعادته بعبارات التعظيم والتوقير، وأشارت إلى مساعيه الحميدة في جانب المنافع العمومية، والأعمال المبرورة نحو كلّ النحل والملل.

وما كاد يبلغ خيرُ عزمي عَلَى تأليف كتاب «تاريخ الصحافة العربية» مسمعيّ هذا الشهم الجليل حتى أبدى ارتياحه لهذا العمل وأطرأَهُ، وشدَّد عزائمي على إخرجه من حيز القوَّة إلى دائرة الوجود. فبادر كرمًا منه وأتحفني بمجموعة نفيسة من الجرائد، والمجلات العربية التي يبلغ

عددها نيفًا وثلاثمائة صحيفة مختلفة لأستعين بها في مشروعي المذكور. وإليك نصَّ الرسالة التي بعث لي بها في هذا الشأن:

«جناب الفيكونت المفضال الكريم الخلال، أسأَل خاطر جنابكم الخطير بالإكرام الجزيل، والاعتبار الوفير. والمعروض أنه قد اطلعني المحب المخلص صديقنا الكاتب الأديب ديمتري أفندي نقولا على خطابكم الكريم الذي نوَّهتم فيه بي. ورغبتم في الاطلاع على مجموعة الجرائد العربية الموجودة عندي. ولما كانت عنايتكم بأمر العلوم والآداب موجبةً لمزيد الإعجاب والثناء المستطاب. فإنني بادرت بمزيد الارتياح إلى تقديم هذه المجموعة هديةً لمكتبة جنابكم الحاوية نوادر الأخبار، ونفائس الآثار؛ راجيًاتكرمكم لقبولها عنوان ولاء وتذكار وفاء مع المجلد الأول من «حلى الأسهم في خلفاء الإسلام»، وتشريفي بكلما يعرض لجنابكم من الأمور والمهام؛ فإنني أتمنى توثيق عرى التعارف الثمين، وتوطيد دعائم الولاء المتين بفضل مناقبكم العالية،ومظاهر وجاهتكم السامية... مكررًا لذاتكم الكريمة اعتباري الصميم واحتراماتي العظيمة، ودامت معاليكم أفندم».

صديقكم المخلص

عطا حسني

أول ذي القعدة سنة ١٣٣٨

فمن صميم القلب أرفع لسعادته عبارات الشكران، وعواطف الامتنان والإحسان، متوسلاً إلى العزَّة الصمدانية أن تكلأهُ بعين عنايتها الربانية، وتجعل مقامه مرفوعًا عَلَى منارة الأدب بين العجم، والترك، والعرب. وقد رأيت تخليدًا لذكره الميمون أن أسرد خلاصة ترجمة حياته لتبقى آثاره محفوظةً عَلَى ممر القرون، وافردت لها فصلاً مخصوصًا قبل تراجم مشاهير الكتَّاب الذين سيتأتي الكلام عنهم في أجزاء هذا الكتاب:

هو عطا بك بن حسن حسني بك أمير الحج بن صالح بن حسن بك من أشراف مدينة ديار بكر. وُلد في شهر ذي الحجة ٢٩٨ (١٨٨١ ميلادية) في مدينة القاهرة. وبتسلسل أجداده من إحدى العشائر المشهورة بين الأكراد في بلاد الأناضول. ومنذ نعومة أظفاره دخل المدارس العالية، فأنصب عَلَى تحصيل العلوم، واللغات حتى نال منها النصيب الأوفر، وبعد خروجه من المدرسة أخذ يتردد عَلَى صفوة العلماء ونخبة الأساتذة؛ فازداد تعمقًا في درس التاريخ الاجتماعي وسائر المعارف العصرية. وكان يراقب سير الترقيات الحديثة بعين يقظى وفطنة وقّادة، حتى صار عالمًا أخلاقيًا، وسياسيًا محنكًا، ومؤَرخًا شرقيًا بكل معني من معاني الكلمة. وقد قال أحدهم عنه إنه «الرجل المصري الوحيد الذي شغف بالعلوم وبذل نفسه لأجل خدمة وطنه وملته. وانفق جزءًا كبيرًا من ماله في سبيل المصلحة العامة».

واستهل عطا بك أعماله بتأليف كتابه المسمى «خواطر في الإسلام». ثم ترجمه بقلمه إلى اللسان التركي باسم «خاطرات إسلام»؛ فنال شهرةً واسعة حتى أُعيد طبع النسخة العربية التي كثر إقبال القراء عَلَى مطالعتها. وأَلف أيضًا كتاب «حلى الأيام في خلفاء الإسلام»: وهو يتضمن تاريخ الأمة المحمدية من العهد الهجري إلى الآن. وله كتاب «السياحة العثمانية»: وهو مزين بصور مشاهير الدولة العليا، ورسوم المشاهد المهمة، والآثار القديمة، أنجزه مؤلفه بعد أن ساح مرارًا في أقطار السلطنة العثمانية، وامتزج بسكانها على اختلاف عناصرهم؛ فشرح فيه حال السلطنة قبل إعلان الدستور وبعد، وأتى على وصف مشاهد أوروبا وعواصمها التي جال فيها كلها. وهذا الكتاب تحت الطبع مع كتاب آخر دعاه «صيانة الإسلام في وجود دولة آل عثمان»، شرح فيه أدواء الدولة العثمانية؛ فجاءَ سِفرًا حاويًا سديد الآراء، وبُعد النظر في غور السياسة الشرقية.

وظهرت مآثره ظهورًا جليًا في جريدة «الجوائب المصرية» اليومية التي جدد صدورها في القاهرة، وأنشأ لها مطبعة كبيرة؛ فأودع فيها من نفثات قلمه حتى صارت الصحيفة الشرقية التي أنشئت لخدمة المصلحة القومية. فدافع عن حقوق الاستقلال العثماني بمقالات اجتماعية وإصلاحية تعودبالخير والإسعاد على الشرق والشرقيين.

ونظرًا لشهرته في عالم الأدب عينته الجمعية العلمية في باريس عضوًا عاملاً لها. ثم انتدبتهُ الجمعية الجغرافية للخطابة في حفلتها

السنوية في مدينة رِمس (Reims)،فلبي الطلب وألقى خطبةً نفيسةً دافع بها عن العثمانيين خاصةً، والشرقيين عامة. ونُشرت هذه الخطبة في الكتاب الذهبي للمؤتمر المذكور.

واتصف صاحب الترجمة بدماثة الأخلاق، ومحبة عمل الخير، وكرم اليد، والابتعادعن التعصب الذميم لوطنه ودينه. ولنا على صحة هذا القول براهين كثيرة تشهد بشهامة نفسه ونزاهة مبادئه؛ فمن ذلك أنه تبرع لمنكوبي اطنه من الأرمن بمساعدة مالية وافرة سلمَّها لمطران هذه الطائفة في القاهرة. وتبرع أيضًا بمبلغ آخر من المال مساعدةً لبناء كنيسة الطائفة المارونية في الخرطوم. وقد رفعت البطريركية المارونية تقريرًا بهذا الشأن إلى قداسة الحبر الأعظم، فكان ذلك داعيًا لسرور الدوائر الفاتيكانية وأمتنانها. ولما عرَّج على رومة سائحًا حظى بمقابلة البابا يبوس العاشر في مقابلة خصوصية مدة عشرين دقيقة، كان فيها موضوع التفات قداسته. وقد عامله الحبر الأعظم كما يعامل الأمراء الأجانب، وأمر باطلاعه على متاحف الكرمي الرسولي، وخزائن الكتب، وسائر الآثار القديمة. ثمَّ تلطف وأهداه «وسام القديس غريغوريوس الكبير» طبقته الأولوتشرف أثناء وجوده في باريس بمقابلة مظفر الدين شاه إيران سابقًا، فشكر له الشاه على صدق أمانته الملية وأظهر اعجابه به، ثم منحه وسام «شير خورشيد» الثاني وعلقَّه بيده على صدر الممنوح له مع «وسام المعارف» الذهبي. ونال أيضًا بعض علامات الشرف كوسام «سرتيب» الأول من دولة إيران، ووسام «المجيدي الثاني»،ثم «مدالية الحجاز الذهبية»، والرتبة الأولى من الصنف الثاني من الدولة العثمانية.

وأحرز وسام «نجمة الصباح» الأول من سلطان لحج، ووسام «فخر عمان» الأول من سلطان مسقط وعمان، وغيرها.

وفي رحلته إلى الأستانة سنة ۱۹۱۰ قابل في زيارة خاصة الأمير يوسف عز الدين ولي عهد السلطنة العثمانية، فلقى لدى سموه من الحفاوة ما لم ينله مصري سواه قبل الآن. وقد أهداه الأمير المشار إليه رسمة متوجًا باسمه الكريم ومكتوبًا بخط يده. وما عدا ذلك فإن عطا بك فاز بمقابلة كثير من الملوك والأمراء شرقًا وغربًا، فأهدوه رسومهم، وشملوه بعطفهم. وبما لا يسعنا السكوت عنه في هذا المقام أن داره العامرة أصبحت بلطفه وكرمه محطًا لعظماء الرجال، وكبار السياح والعلماء الأعلام، وغيرهم الذين يزورون وادي النيل.

نسأله الله سبحانه أن يكلل بالنجاح جميع مساعيه العائدة لعمل الخير، وتعزيز كلمة الوطن، وتوسيع نطاق المعارف. وأن يمنح سعادته عمرًا طويلاً مقرونًا بالعز، والهناء، والعافية. ويصون أنجاله المحروسين بعين عنايته الصمدانية، إنه أكرم الأكرمين وخير المسئولين.

الفصل السابع

معرفة الجميل

لما كان بعض الأدباء والأديبات قدمُّوا لي يد المساعدة في إرسال ما لديهم من الصحف القديمة والحديثة؛ تعزيزًا لمشروعي، وخدمةً للصحافة، تحتم عليَّ هنا أن أرفع ألوية الثناء عَلَى حماستهم العربية ونخوتهم الأدبية. وإنني بكل افتخار أنشر رسومهم عَلَى صفحات «التوطئة» في صدر هذا الكتاب تنويهًا بكرمهم، وإقرارًا بصنيعهم، فبلسان الناطقين بالضاد قاطبةً أقدم لحضراتهم عبارات معرفة الجميل ليبقى فضلهم فضلاً ما توالت الأعوام، وتحدثت بعلو هممهم أفواه الشعراء، وحملة الأقلام. وها أنني أسرد اسمائهم مرتبة عَلَى حروف الهجاء:

(١) في مقدمة الجميع أذكر حضرة المحامي الشهير والشهم الكريم إبراهيم أفندي جمال صاحب جريدة «الحقوق» في القاهرة. فإنهُ أهداني مجموعة كبيرة من الجرائد والمجلاَّت النادرة الوجود، قد عنى بالتقاطها منذ خمس عشرة سنة ليزين بها خزائن كتبه، ويستفيد من مطالعتها.وتشتمل المجموعة عَلَى جانب كبير من الصحف العربية النفيسة التى ظهرت قديمًا وحديثًا في العالم كله. وترى رسمهُ منشورًا في محل آخر من هذا الكتاب.

(٢) الشيخ يعقوب صنوع المصري الملقب بأبي نظارة، وصاحب الجريدة الهزلية المعروفة باسمه في باريز. فإنهُ أرسل لي المجموعة الوحيدة الموجودة لديهِ من كل جرائده الكثيرة مع غيرها من الصحف، وقد نشرتُ رسمهُ في غير هذا المكان.

(٣) حضرة الكاتب الاجتماعي الطيب بن عيسى صاحب جريدة «المشير» في تونس الخضراء. فإنه أتحفني بأول عدد من نحو ثلاثين صفحةٍ مختلفة برزت في الإمارة التونسية منذ عهد بعيد إلى الآن.

(٤) حضرة الكاتبة المستعربة السيدة جان ديريو منشئة مجلة «الأحياء» في مدينة الجزائر بشمال أفريقيا. فقد جمعت لي أكثر الصحف المطبوعة في أنحاء عديدة من البلاد الجزائرية الفرنسية، والسلطنة المراكشية، وروسيا، وغيرها. وتُعرف هذه السيدة عند الجزائريين الأصليين باسم «جمانة رياض»، أو «فاطمة الزهراء».

(٥) حضرة العالم المفضال ديمتري أفندي نقولا منشئ مجلة «الفكاهة» سابقًا في القاهرة: فإنهُ كان أكبر عضدٍ لي في الحصول على أهم الجرائد والمجلات، العتيقة والحديثة التي لم يتيسر لي الوصول إليها بواسطة غيره من الأدباء. وقد زاد على فضله فضلاً أنهُ أفادني بمباحثه الصحافية، وتنقيبه عن أمور شتى تتعلق بهذا الكتاب.

(٦) حضرة السيدة الجليلة روزا بسول أرملة المرحوم نجيب بن ميخائيل مدور في بيروت.

فإنهاتكرمت عليَّ بصحف نادرة الوجود موروثة من قديم الزمان عن أُسرة زوجها المشهورة بالنهضة العلمية، والآثار الأدبية.

(٧) حضرة الكاتب الألمعي عيسى أفندي رزوق منشئ مجلة «العلوم» في بغداد. فأنهر عنى تعبًا وافرًا في التقاط جانب كبير من الصحف التي صدرت في أنحاء العراق وأتحفني بها.

(٨) حضرة الكاتبة البليغة والخطاطة البارعة السيدة لبيبة هاشم منشئة مجلة «فتاة الشرق». وصاحبة المحاضرات الشهيرة في «الجامعة المصرية» بالقاهرة، فإنها بعثت لي بعدد وافر من الصحف المصرية الحديثة العهد.

(٩) حضرة العلامة الخطير الأب لويس شيخو اليسوعي صاحب امتياز مجلة «المشرق» في بيروت. فقد أهداني كل ما عثر عليه من الصحف المفيدة في سبيل مشروعي، ثم سهل لي سبيل لمطالعة ما كنت محتاجًا إليه في «المكتبة الشرقية» المؤَسسة بعنايته في كلية القديس يوسف. ونظرًا لتواضعه لم يشأ أن ننشر صورتهُ هنا، وسنبذل الجهد للحصول عليها ونشرها لدى الكلام عن مجلة «المشرق».

(١٠) حضرة الشهم الكريم محمد أفندي عثمان مدير مجلة «الصدق العثماني» في القاهرة. فإنهُ بعث لي بنيف وثلاثين مجلة وجريدة قديمة العهد، أكثرهامن القطر المصري.

(١١) حضرة العالم الكبير السيد هبة الدين الشهر شثاني منشئ مجلة «العلم» في النجف. فإنهُ أتحفي بعدد وافر من الجرائد والمجلات الصادرة في العراق، والهند، والفرس، وغيرها.

(١٢) حضرة الكاتب الأديب يوسف أفندي صفير صاحب مكتبة «المدارس» في بيروت، ومؤَسس الجمعية الخيرية لأبناء عرامون، ومزارعها في كسروان. فإنه أتحفني بالعدد الوافر من الصحف التي صدرت في أنحاء مختلفة من العالمين القديم والجديد،وكانت محفوظة في مكتبتهِ العامرة.

ثم أُضيف إلى من سبق ذكرهم بعض الأعيان والأفاضل الذين فتحوا لي خزائن كتبهم المعتبرة، وتكرموا عليَّ بما تيسر لديهم من منشورات الصحف. وهذه اسماؤهم عَلَى ترتيب حروف الهجاء أيضًا مع حفظ الألقاب: غبراهيم حنا العورا، والشيخ اسكندر العازار، وجرجي ديمتري سرسق، وجرجي نقولا باز، وسليم أيوب تابت، والخوري فضل الله فاضل الماروني، والأب لويس معلوف اليسوعي مدير جريدة «البشير» في بيروت، وعيسى اسكندر المعلوف في زحله، ونجيب ميخائيل ساعاتي في القدس الشريف، ومحمد فهمي بشير في

الإسكندرية، والخورفسقفوس عبد الأحد جرجي السرياني في بغداد، والقس باسيل أيوب السرياني في حلب،

وفي الختام أُسدي الشكر لسائر الذين أَعاروني رسوم بعض الصحافيين التي زينت بها هذا الكتاب وهم: صاحب العزَّة خليل أفندي سركيس مؤَسس «المطبعة الأدبية» وجريدة «لسان الحال» الغرَّاء في بيروت، وجرجي بك زيدان صاحب مجلة «الهلال» الشهيرة في القاهرة، ثمَّ الكاولير يوسف بن خطار غانم مؤلف كتاب برنامج أخوية القديس مارونر في بيروت، وسليم سركيس صاحب المجلة المعروفة باسمه في القاهرة، وأنطون أفندي الجمل، وأمين أفندي لقي الدين صاحبا «الزهور» المعتبرة في عاصمة وادي النيل، وغيرهم. لا زالت الآداب العربية باسمة الثغر، مرفوعة الشأن بفضل مَن تقدَّم ذكرهم، والله وليّ التوفيق.

الفصل الثامن

الصحافة وأعاظم الرجال

تناقلت بعض الجرائد العربية كلمات مأثورة عن أعاظم رجال العصر الحاضر لتعلقهم بالصحافة؛ فرأينا أن نثبتها هنا لما فيها من الحكمة السامية، والعبرة الفائقة، والفائدة التاريخية. ثم أضفنا إليها أقوالاً أخرى منسوبة لغيرهم من الملوك ومشاهير الأرض إتمامًا للغرض المقصود، وهي بالحرف الواحد:

قال السلطان عبد الحميد الثاني بعد خلعه من عرش السلطنة العثمانية: «لو عدتُ إلى بلدي لوضعتُ محرري الجرائد كلهم في أتون كبريت».

وقال نابوليون الأول: «إنني أوجس خوفًا من ثلاث جرائد، أكثر مما أوجس من مائة ألف جندي».

وقال نقولا الثاني قيصر روسيا: «جميل أنت أيها القلم، ولكنك أقبح من الشيطان في مملكتي».

وقال عمانوئيل ملك البرتغال للصحافيين بعد سقوطه من عرش المملكة: «أنتم سبب سقوطي، ولا تزالون تطلبون رأيي بالحكومة الجديدة».

وقال غيليوم الثاني إمبراطور ألمانيا الشقيقة الأمير هنري عند ذهابه إلى الولايات المتحدة الأميركية: «إنك متجمع بكثير من الصحافيين فيها. فأعلم أن لهم هناك من المنزلة مثل ما لقوادي في الجيش».

يوسف خطار غانم

هـاك رسـمي يبقـي مـدى الـدهر ذكرًا   لشـهيد البرنـامج المشـهور

فمتُ اسـمى في جمع آثـار قـوم   قاصـدًا حفـظ رسـمهم للـدهور

كـانَ كـلُّ الجـزاء أَن اتفـق العمـر   أسـيفًّا فـي مـوتِ مسـعى خطيـر

وقال السنيور كسترو رئيس حكومة فنزويلا سابقًا: «لا أَخاف بوابة جهنم إذا فُتحت بوجهي، ولكني أرتعش من صرير قلم محرر الجريدة».

وقال مظفر الدين شاه إيران سابقًا: «إنها لقضية صعبة عندما تقابل صحافيًا».

وقال دياز رئيس جمهورية المكسيك: «أودُّ أن أكون صاحب معامل الورق والحبر لأحرقها».

وقال روزفلت رئيس حكومة الولايات المتحدة الأميركية: «يجب أن يكون كاتب بين كل عشرة أنفار من هذه البلاد».

وقالت ماري خريسيين ملكة أسبانيا: «بين الحشرات نجد الصحافي».

وقال الفونس الثالث عشر ملك أسبانيا:«ويعرف الصحافي خفايا قصرنا كذلك».

وقال مولاي يوسف سلطان مراكش لمكاتب جريدة « Le Temps» في مدينة طنجة: «نعم إنني أعلم ذلك. فالصحافيون مع كونهم أعظم الذين لا يستطيعون كتمان السر، فإنهم عين الأمم، وروحها، وفكرها. فمن واجباتنا أن نرحب بهم ونلاطفهم، لأن الحكم علينا في المستقبل يستند إلى ما يكتبون».

وبعث دي بلويتر مكاتب «التيمس» الباريسي إلى جريدته بصورة معاهدة مؤتمر برلين قبل أن وقعَّ عليها معتمدو الدول. فلما اجتمعوا في اليوم الثاني من مؤتمرهم رفع البرنس بسموك غطاء المنضدة المسترسل. فقيل له: لماذا؟ فأجاب بسموك: «لأرى إذا كان دي بلويتر مختبئًا تحتها ليستطلع أسرارنا».

وقال وليم ستيد صاحب «مجلة المجلات الانكليزية» الذي غرق في حادثة الباخرة«تيتانيك» سنة ١٩١٢: «الكاتب السياسي يرتعش من منظره رئيس مجمع الشياطين».

وقال أرثربرسيان الكاتب الأميركي الشهير: «أموت لأجل هذا.. ولكني أفضل العذاب في سبيل القلم».

وقال باكس: «في جنة عدن كان الصحافي».

وقال روكفلر بالكونت تولستوي: «أَمعهُ مالٌ بقدر ما يحوي عَلَى أفكار؟».

وقال أحد كبار رجال السياسة الانكليزية: «انشئوا الجرائد لأن بها حياة الأمة».

وقال المسيو كمبون سفير فرنسا في لندن: «ولئن كانت للصحافة سيئات، فلها من حسناتها ألف شفيع».

الحقبة الأولى

تمتدُّ من تكوُّن الصحافة إلى تاريخ افتتاح ترعة السويس

١٨٦٩– ١٧٩٩

الباب الأول

يشتمل على أخبار كل الجرائد والمجلات التي ظهرت في هذه

الحقبة، مع وصفها، وبيان أحوالها

الفصل الأول

تكوّن الصحافة العربية

بزغت شمس الصحافة العربية في ختام القرن الثامن عشر بمدينة القاهرة. وكان ذلك عَلَى يد الحملة الفرنسية التي جاءت وادي النيل بقيادة الجنرال بونابرت، الذي ارتقى بعد ذلك إلى العرش القيصري في فرنسا باسم نابليون الأول. وهكذا أتيح لأمةٍ غريبة أن تدخل هذا الفن الشريف إلى البلاد العربية مع سائر جراثيم التمدن الحديث.

وكانت البعثة العلمية التي رافقت الحملة البونابرتية قد أَحضرت معها مطبعةً من باريس يديرها رجلان فرنسيان: أحدهما عالم والآخر عامل بسيط. أما العالم فهو المستشرقيوحنا يوسف مرسال، وأمال العامل فهو مرك أوريل، وقد نُسي هذا الرجل ثم أَحيت ذكره الأيام. وأول عمل باشرتهُ هذه البعثة العلمية أنها نشرت ثلاث جرائد في المطبعة المذكورة: إحداها «الحوادث اليومية»، كان يحررها اسماعيل بن سعد الخشاب؛ وهي جدَّة الصحف في لغة الناطقين بالضاد. والثانية« Décade Egyptienne»، والثالثة «Courrier d'Egypte» وهما باللسان الفرنسي. وقد انقرضت هذه الصحف برجوع تلك الحملة إلى بلادها سنة ١٨٠١.

وبقيت اللغة العربية محرومة من فوائد الصحافة حتى قيّض الله لها بعد ٢٧ سنة عصرًا جديدًا من الفَلاح بفضل محمد على باشا الكبير رأس العترة الخديوية الذي أنشأ«الوقائع المصرية» لحكومته. ثم رأَت الدولة الفرنسية أن تصدر جريدة في أملاكها بشمال أفريقيا تكون واسطة للتفاهم بينها وبين السكان الوطنيين؛ فأنشأت «المبشر» عام ١٨٤٧ في مدينة الجزائر عاصمة المغرب الأوسط.

نابوليون الأول إمبراطور الفرنساويين

واضع أساس الصحافة العربية

أنشــأت بكــرَ صــحائفٍ عربيــةٍ	فرفعـتَ شـأنَ لسـاننا بـين الـورى
شـهدّت لـك الـدنيا بأنـك فردهـا	ولـذاك أحـرزتَ الفخـار بـلا ...

أما أول رجل عربي الأصل أصدر باسمهِ صحيفة عربية، واستحق دون سواه هذه الكرامة الجليلة؛ فهو رزق الله حسون الحبي منشئ «مرآة الأحوال» سنة ١٨٥٥ في عاصمة آل عثمان. ولأجل ذلك يمكننا بكل صواب أن نسميه إمام النهضة الصحافية عندنا بلا مراء، بل جِدَّ الصحافيين وزعيمهم عَلَى الإطلاق. فاقتفى أثره بعضُ أرباب العلم والفضل من أبناء سوريا المسيحيين الذين برزوا في هذه المهنة، وخلدوا آثارًا تذكر فتشكر، وهم: إسكندر شلهوب صاحب جريدة «السلطنة» عام ١٨٥٧ في الأستانة، وخليل الخوري مؤسس «حديقة الأخبار» سنة ١٨٥٨ في بيروت، والكونت رشيد الدحداح منشئ «برجيس باريس»

١٨٥٨ في عاصمة فرنسا. وأحمد فارس الشدياق[١] صاحب «الجوائب» ١٨٦٠ في الأستانة. والمعلم بطرس البستاني منشئ «نفير سورية» ١٨٦٠، ويوسف الشلفون ناشر «الشركة الشهرية» ١٨٦٦ في بيروت. وفي سنة ١٨٥٨ نشر المستشرق الفرنسي منصور كرلتي جريدة «عطارد» في مرسيليا

ثم تنبه المسلمون المصريون إلى هذا الأمر الجلل، فنشروا في آخر الحقبة الأولى ثلاث صحف في القاهرة: أحدها «يعسوب الطب» سنة ١٨٦٥ لمحمد على باشا البقلي، والثانية «وادي النيل» ١٨٦٦ لعبد الله أبي السعود، والثالثة «نزهة الأفكار» ١٨٦٩ لإبراهيم المويلحي، ومحمد عثمان جلال. ونضيف إلى ذلك جريدة «نتائج الأخبار» التي صدرت بتونس في نواحي سنة ١٨٦٣ لمنشئها حسين المقدم.

وهناك صحف أخرى منها رسمية أُنشئت في بعض الولايات العثمانية. أو التابعة لسيادة الباب العالي وهي: «الرائد التونسي» ١٨٦١ في تونس، ثم «سوريا» ١٨٦٥ في دمشق، وكذلك «لبنان» ١٨٦٧ في بيت الدين قاعدة جبل لبنان، و«الفرات» ١٨٦٧في حلب، وأخيرًا «الزوراء» ١٨٦٩ في بغداد. ومنها علمية ظهرت كلها في بيروت وهي: «مجموع فوائد» سنة ١٨٥١، ومجلة «أعمال الجمعية السورية» ١٨٥٢، ومجلة «مجموع العلوم» سنة ١٨٦٨ للجمعية العلمية

---

(١)كان مسيحيًا من جبل لبنان ثمّ دخل في دين الإسلام.

السورية. ومنها دينية صدرت قاطبة في بيروت وهي: «أخبار انتشار الأنجيل» ١٨٦٣، ومجلة «النشر الشهرية» ١٨٦٦ للمرسلين الأميركان، وثالثتها «أعمال شركة مار منصور دي بول» ١٨٦٨ للجمعية المعروفة بهذا الاسم. ومنها جدلية كمجلة «رجوم وغساق» ١٨٦٨ لرزق الله حسون في لندن.

يتضح مما سبق بيانه أنه ظهر في الحقية الأولى سبع وعشرون صحيفة لم يزل ربعها حيًا، وهي: الوقائع المصرية، والمبشر، والرائد التونسي، وسوريا، ولبنان، والفرات، والزوراء. ويمكننا أن نضيف إليها صحيفة ثامنة وهي «النشرة الأسبوعية» التي قامت عَلَى أنقاض «النشرة الشهرية». وإذا راعينا نسبة عدد تلك الصحف إلى المماليك التي ظهرت فيها فيكون السبق في هذا المضمار للدولة العثمانية، فإنه صدر فيها وحدها ١٦ صحيفة. أما الباقي فيتوزع كما يأتي: خمس في مصر، واثنتان في تونس، وواحدة في الجزائر، واثنتان في فرنسا، وواحدة في انكلترا. ومن الغرب أنَّ بواكير هذه الصحف؛ أي «الحوادث اليومية»، و«الوقائع المصرية»، و«المبشر» ظهرت للوجود في البقعة الأفريقية دون سواها.

الفصل الثاني

أخبار الصحف من أوَّل نشأَتها إلى سنة ١٨٥٠

الحوادث اليومية

صحيفة يومية رسمية أنشأها نابليون الأوَّل سنة **١٧٩٩** عندما كان قائدًا للجيوش الفرنسية في وادي النيل لنشر أخبار مصر، وإذاعة أوامر حكومته بين سكان القطر المذكور. وعهد بكتابتها إلى إِمام زمانه في العلم الأدبية السيد إسمعيل بن سعد الخشاب كاتب «سلسلة التاريخ» في ديوان الحكومة المصرية. فقام بهذه المهمة أحسن قيام كما روى معاصرهُ العلامة عبدالله بن حسن الجبرتي في تاريخهِ (٤:٢٣٨) بالحرف الواحد:

«إنَّ الفرنساوية عينوه في كتابة التاريخ لحوادث الديوان، وما يقع فيهِ كلَّ يوم، لأنَّ القوم كان لهم مزيد اعتناء بضبط الحوادث اليومية في جميع دواوينهم، وأماكن أحكامهم. ثمَّ يجمعون المتفرق في ملخص يُرفع في سجلهم بعد أن يطبعوا منهُ نسخًا عديدة يوزّعونها في جميع الجيش، حتى لمن يكون منهم في غير المصر من قرى الأرياف. فتجد أخبار الأمس معلومة للجليل والحقير منهم. فلما رتبوا ذلك الديوان كما ذُكر كان هو المتقيد برقم كل ما يصدر في المجلس من أَمر أُنهي، أو خطاب، أو جواب، أو خطأ، أو صواب. وقرَّروا لهُ في كل شهر سبعة

آلاف نصف فضة. فلم يزل متقيدًا في تلك الوظيفة مدة ولاية عبدالله جاك منو (Menou) حتى ارتحلوا من الإقليم».

أما اسم الجريدة فلم نتحققهُ على رغم ما بذلناه من البحث، والتنقيب، والاجتهاد. فعسى يتوفق غيرنا إلى معرفتهِ خدمةً للتاريخ، وتقريرًا للحقيقة. ومن المعلوم أنَّ الجبرتي روى عن إسمعيل الخشاب أنهُ كان يعتني بضبط «الحوادث اليومية»، ويطبع منها نسخًا ويوزعها عَلَى جميع الجيش. فاستنادًا إلى رواية هذا المؤَرخ الجليل ترجح لدينا أن: «الحوادث اليومية» هو اسمالجريدة، فعوَّلنا على استعماله لاسيما أنه يطابق عَلَى أوصاف هذه الصحيفة التي كانت تُنشر يوميًا كما رأَيت. فلم يبقَ ريب بعد ذلك في أن هذه النشرة التي تأَسست بعناية حكومة فرنسا تُعدُّ أمَّ الجرائد العربية وباكورتهن. وقد انطفأ سراجها لدى انسحاب العساكر الفرنسية من مصر في ١٤ تشرين الأوَّل ١٨٠١ وانكسارهم أمام جيوش تركيا وانكلترا في الإسكندرية. وقد ورد ذكر هذه الصحيفة في مقالة عن صحافة الشرق بقلم الشيخ صالح اليافي منشئ جريدة «الرشيد» البيروتية (عدا سنة أولى)، حيث قال: «ولما دخل الفرنساويون مصر اتخذوا لهم طريقة، ولكنها لم تدم».

وكان إسمعيل بن سعد الخشاب محرر هذه الجريدة كاتبًا بليغًا، وشاعرًا أديبًا بشهادة علماء عصره. وقد ترك ديوان شعر صغير الحجم جُمع بعد وفاتهِ بعناية صديقهِ العلاَّمة الشيخ حسن العطار. وكانت وفاتهُ في ٢ ذي الحجة سنة ١٢٣٠ الموافقة لسنة ١٨١٥ مسيحية.

الوقائع المصرية

بعد خروج الحملة الفرنسية من مصر بقيت اللغة العربية محرومةً من فوائد الصحافة، حتى قيض الله لها سندًا قويًا في شخص محمد علي باشا الكبير رأس العترة الخديوية. فما كادت قدم هذا المصلح العظيم ترسخ في وادي النيل بعد حروبهِ مع الانكليز، والوهابيين، والسودانيين، واليونان، وغيرهم حتى صرف همته إلى توسيع نطاق المعارف بين سكان القطر المصري. فاشترى مطبعة يوحنا يوسف مرسال المذكورة، وحسَّنها، وزاد عليها. وهكذا أسس سنة ١٨٢٢ مطبعة بولاق الشهيرة التي أدت خدمًا وافرةً وجزيلةً لجميع الناطقين بالضاد. وكان إلياس مسابكي الدمشقي من جملة العمال الذين اصطنعوا قاعدة الحروف البولاقية، وخدموا فن الطباعة في مصر. ثم رأَى محمد علي باشا أن الحاجة ماسة إلى إيجاد جريدة تقوم بنشر أوامر الحكومة، وإذاعة إعلاناتها، وسائر الحوادث الرسمية. فأنشأ في ٢٠ تشرين الثاني ١٨٢٨ بعناية الدكتور كلوت بك مؤسس مدرسة «قصر العيني» الطبية جريدة «الوقائع المصرية»، التي جعلها لسان حال الحكومة الخديوية، ولا تزال حيةً إلى الآن. وقد فوَّض إدارتها وتحريرها إلى العالم الكبير رفاعة بك ابن رافع الطهطاوي بعد عودته من باريس، حيث تلقى الدروس الكاملة عَلَى نفقة الحكومة المصرية. وكان رفاعة بك مؤسسًا، وناظرًا لمدرسة الألسن، فنبغ من تلاميذه عدد وافر نهضوا بمصر نهضة تنطق بفضل الرجل وعظيم شأنهِ.

ظهرت الوقائع المصرية في أول عهدها في اللسان التركي فقط. ثم برزت في اللغتين العربية والتركية. ثم عادت تركية محضة، ثم عربية خالصة ولم تزل. وهي تصدر الآن ثلاث مرات في الأسبوع في أثنتي عشرة صفحة متوسطة الحجم. وكانت قبل ولاية الخديو إسمعيل تصدر غير منتظمة، فرتّب أحوالها، وجعل لها إدارة خاصةً بها، وقد تولى تحريرها بعد الطنطاوي كثير من أرباب الشهرة الواسعة في العلم وهم: أحمد فارس الشدياق اللبناني، وحسن العطار، والسيد شهاب الدين محمد بن إسمعيل الملكي، والشيخ أحمد عبدالرحيم، والشيخ مصطفى سلامة، وصالح مجدي بك، والشيخ محمد عبده، وعبدالكريم سلمان، والشيخ سليمان العبد وسواهم. أما إدارتها ومطبعتها فمنوطتان برجل انكليزي كسائر المصالح المصرية.

محمد علي باشا خديوي مصر

منشئ جريدة «الوقائع المصرية» في القاهرة

هذا العليُّ محمد البطلُ الذي   دهشت لهُ الدنيا وعزَّت مصرهُ

صدقَ المؤَرّخ إذ روى في حقهِ   تفنى الدهورُ وليس يفنى ذكرهُ

المبشّر

صحيفة رسمية أنشأتها حكومة فرنسا في ١٥ أيلول سنة ١٨٤٧ باللغتين العربية والفرنسية؛ لعموم ولاية الجزائر في المغرب الأوسط.

وكان ذلك في عهد الملك لويس فيليب الذي غزا بجيوشهِ البلاد المذكورة التي كانت خاضعة للأمير عبدالقادر الجزائري الشهير. فشاءَ هذا الملك أن تكون لأهلها صحيفة خاصة بهم ترشدهم إلى سبيل العلم، والحضارة، والزراعة، والتجارة، والصناعة أسوةً بسائر الدول الإسلامية،لاسيما السلطنة العثمانية، والخديوية المصرية. ثمّ صدرأمرهُ الملكي بإخراج هذا الفكر إلى دائرة العمل. فكانت تصدر مرتين في الشهر بحجم صغير في ثلاث صفحات، وفي كل صفحة أربعة أعمدة. وهي من حيث قدم العهد ثالثة الجرائد العربية في العالم كله. ولهذه الجريدة مجموعتان: إحداهما محفوظة في مكتب الإدارة، والأخرى في خزائن المكتبة العمومية في عاصمة الولاية.

وللمبشر ثلاثة أدوار: أولها من يوم نشأته إلى سنة ١٨٨٤، والثاني إلى سنة ١٩٠٥، والثالث إلى الزمان الحاضر. وكانت عبارتهُ ركيكة في بادىء الأمر، ثم أخذت بالتحسن تدريجًا حتى صارت صحيحة الإنشاء. وكانت تُستعمل فيهِ أولاً لفظتا «الرسائل الخبرية» بمعنى الجريدة. وبعد ذلك درج بدلاً منهما استعمال «الورقة الخبرية» بالمعنى المذكور.

وأول الذين تولوا إدارتهُ كان السيد أرنو «Arnaud» مدة ثلاثين سنة، وخلفهُ المستعرب الشهير ميرنت «Mirante»، ثم «Labouthière»، ثم ميرنت للمرة الثانية؛ وهو المدير الحالي. أما الذين تولوا كتابة القسم العربي في هذه الجريدة منذ البداية حتى الآن فهذه أسماؤهم مرتبة بحسب التاريخ واحدًا بعد الآخر: أحمد البدوي إلى سنة

١٨٨٦ وهو أقدمهم عهدًا، ثم علي بن عمر، وعلي بن سماية، ومحمود وليد الشيخ علي، وقدور باحوم، وعلي ولد الفكاي، والحفناوي بن الشيخ، ومحمد بن مصطفى، ومصطفى بن أحمد الشرشالي، ومحمد بوزار، ومحمد بن يلقامم.ونورد هنا نصَّ المقدمة التي نشرها «المبشر» في صدر عدده الأول ليقف القراء عَلَى ما كان عليهِ أنشأء الصحف في عهد تكونها:

ورود الأَخبار من جميع الأقطار
٥ شوال سنة ١٢٦٣
١٥ سبتمر سنة ١٨٤٧

١

مقصود المبشر

«أعلموا يا مسلمين أرشدكم الله أن المعظم سلطانافرانصه نصره الله، اتفق له برأيه وقوع هذا مختصر لفايدتكم، وخيركم، وتواثر النعمة عليكم. والشاهد لكم في ذلك كل ما يدل عَلَى نعمتكم ومسراتكم هو بفوده ويرضى لكم ما يرضى لنفسه. ولاسيما أنكم بمسكن قلبه كعزيز الرعية عنده.

وأعلموا أن سلاطين أجناس النصارى مهمي أرادوا يعرّفون الرعية بالأمور الواقعة، بيعثون لهم رسايل خبرية كما هو معروف عند جميع

الدول؛ كسلطان اصطنبول، وصاحب مصر. وهكذا مراد سلطان افرانصه نصره الله، الإعلام لكم بكل أمر صادر من البابلك؛ أي من أرباب دولته من تصرفات الجزاير، وساير عمالتها؛ لتتحققوا بسبب وقوع هذه الأمور. وباطلاعكم وفهمكم لما ذكر يظهر لكم من فعل هذه الدولة المنصورة العدل، والإنصاف، والسيرة عَلَى الطريقة المستقيمة. فلأجل ذلك أمر الأمير بورود هذا المبشر عليكم مرتين في كل شهر. وبهِ يعرفون الولات، والأعيان السيرة مع الرعية. وكذا الرعية تعرف السيرة مع الأعيان، والولات. وبهذا الأعلام يتضح لكم مراد هذه الدولة منكم. وأعيانكم يجدون سهولة في التصرفات عليكم. وأنتم تعرفون حدود أحكامهم عنكم بحيث لا تخشون من تعديتهم وجواز الحدود التي بيّنها السلطان الأعظم كما بمراد. ومع ذلك إن هذه الرسالة التي اسمها المبشر تطلق عَلَى أخبار وفوايد شتى. وأعلموا أن جميع العلوم والصنايع، أنواع لا يدركها الإنسان، ويزداد في تعليمها إلا معرفته بأنواعها؛ ولذلك أردنا أن نخبركم بجميعها لكي تزدادوا معرفة وعلمًا بها مهمي تبدلت ولاتكم، تختارون ما أردتم منها عَلَى حسب لدتكم؛ ليسهل عنكم تعليمها، وتكثر لديكم فوايدها مع قلة خدمتها وتعبها. وكل ما يدل على بأرضكم من تجارة، وفلاحة نعرفكم بهِ. ونخبركم أيضًا عن جميع أرزاق ثمار أشجاركم، وجميع نبات أرضكم، ومعادنها، وكذالك غلة أموالكم؛ أي من مواشيكم الرقيقة والغليظة. وجميع ما تستخرجونه من الكسوة بصناعة أيديكم يجوز بيعه بأسواقنا. كذالك نخبركم بما ينتج من أرزاق أرضنا يجوز بيعهُ ببخس الثمن في أسواقكم لتحصل الألفة، ويجري بدل البيع

والشراء بيننا وبينكم. وأيضًا الأخبار التي نعلمكم بها ليست عَلَى إقليم الجزائر فقط، بل على جميع الأقاليم. وسعادة سلطان افرانصة له معرفة ومحة بالغة مع سلاطين الإسلام وهم: صاحب اصطنبول، وصاحب العجم، وصاحب الهند، وصاحب مصر، وصاحب الغرب، وصاحب تونس. وثبوت المحبة بينه وبين هؤلاء الدول العظام معرفتهم بإحسانه، وعظيم سطوته، وقوته مدة مديدة. وسنخبركم بجميع ما يقع في هذه الدول المذكورة. ولاسيما بلغكم من الحجاج الذين يسافرون بتذكرة من عندنا لجميع القوانصة وهم وَكلة سعادة سلطان افرانصة الذين ببَر مصر، وبَر الحجاز، وجميع بر الشام. وأن تلك التذكرة المذكورة هي حمايتهم، وبها يعتزون، وفي ذلك فائدة عظيمة. وهذا يشهد لكم عن عظيم هذه الدولةالفرانصوية التي أنتم تحت حمايتها، معظمة عند جميع الدول، وعلو رايتها مساوي مع أفخر الدول– وأيضًا لنا معرفة وتحقق بالمؤلفين، والعلماء من سالف الزمان أكثرهم من عندكم، وعلماؤُكم الأوايل هم الذين ألفوا علم التاريخ، وعلم السير والأدب، وعلم الشعر، وعلم الفلك، والفقه، وعلم الديانة، وساير العلوم.والآن في هذه الأخبار التي أنشأناها نذكركم ببعض مسائل كتبكم المذكورة التي هي الآن بعضها عندكم مفقودة– وأيضًا آخر فوائد هذا المبشر الذي أنعمنا عليكم بأنشأئه هو لما تعلموا بمقصودنا، وجميع ما يجب عليكم من إجراء الحكم والتصرفات، وتطلعون عَلَى هذه الأخبار، يقضي عنكم بسبب ذلك كلام الوشات أهل الشيطنة دمرهم الله الذين يسعون لكم في الهلاك، وجر البلاء إليكم منا سابقًا لتخليطهم وكذبهم. ونبين لكم طريق الشرع بالعدل التي نسير نحن بها. كما نعلمكم بالفوائد التي تحصل لكم بها الألفة معنا. فهذا غرضنا ومقصودنا، والله هو المعين في أمورنا».

الفصل الثالث

أخبار الصحف من منتصف القرن التاسع عشر إلى فتنة بر الشام سنة ١٨٦٠

مجموع فوائد

مجلة سنوية أنشأها المرسلون الأميركان ببيروت في غرة عام ١٨٥١، ونشروها في مطبعتهم الشهيرة عَلَى زعيمهم القس عالي سميث. وهي باكورة كل المجلات التي ظهرت باللسان العربي وأقدمها عهدًا على الإطلاق. فكانت مصدرة بتقويم الشهور الشمسية والقمرية، ومباحثها تدور عَلَى الشؤون الدينية، والعلمية، والتاريخية، والجغرافية، وسواها من المواضيع المفيدة. وعام ١٨٥٥ ظهر منها ثلاثة أجزاء احتجبت فبلغ مجموع عدد صفحاتها ١٤٤ صفحة. وكان عالي سميث رجل اجتهاد، وعلم، وفضل. فإنهُ رتب أحوال المرسلين الأميركيين في سوريا، وأنشأ لهم المدارس العديدة،وجهز مطبعتهم في بيروت بكل أدوات فن الطباعة الحديثة. وباشر مع الشيخ ناصيف اليازجي سنة ١٨٤٩ ترجمة الكتاب المقدس الذي أنجزه من بعده الدكتور كرنيليوس فان دبك. ولما حلت وفاتهُ في ١١ كانون الثاني ١٨٥٧رثاهُ خليل الخوري صاحب «حديقة الأخبار» بقصيدة نورد منها هذين البيتين المنشورين تحت هذا الرسم:

الدكتور عالي سميث

مؤسس مجلة «مجموع فوائد».

يا رئيسًا قد غادر، الحزن ينمو	فــي صــميم القلــوب والأكبــادِ
أنـتَ عـالٍ قصـدتَ دارَ الأعـالي	حســبما يقتضـــيهِ رأيُ الســـدادِ

(الأعمال الجمعية السورية):

أُنشئت الجمعية السورية عام ١٨٤٧ في بيروت لنشر العلوم، وتنشيط الفنون ببين الناطقين بالضاد. وكان أعضاؤُها من خيرة العلماء الوطنيينو والأجانب الذين يشار إليهم بالبنان. فمن الوطنيين نذكر: الشيخ ناصيف اليازجي، والمعلم بطرس البستاني، والدكتور ميخائيل مشاقه، وميخائيل مدور، وشكر الله بن نعمة الله خوري، وسليم دي نوفل، وميخائيل فرج الله، ونعمة ثابت، وأنطونيوس الأميوني. ومن الأجانب نخص بالذكر: القس عالي سميث، والدكتور كرنيليوس فان دبك، والقس وليم طمسن، والمستشرق منصور كرلتي، والدكتور يوحنا ورتبات، ويوسف كتفاغو، وتشرشل بك. وفي ٦ كانون الثاني ١٨٥٢ أنشأت هذه الجمعية مجلة باسمها، وعهدت بكتابة مقالاتها إلى المعلم بطرس البستاني، وكانت مباحثها تشتمل عَلَى جميع المواد العلمية، والفنية، والتاريخية، والتجارية، والأدبية، والفلكية، والشرائع، والأكتشافات، والأختراعات العصرية، وغير ذلك. وكان أكثر أعضاء الجمعية يساعدون المعلم بطرس في تحرير المجلة، ويدوّن كل منهم ما

يكتبهُ بتوقيعهِ؛ كالشيخ ناصيف اليازجي أحد مؤَسسيها وغيره.

مرآة الأحوال

جريدة أسبوعية سياسية أَصدرها رزق الله حسون الحلبي سنة ١٨٥٥ أثناء حرب القرم بين الدولة العثمانية وروسيا. وهي أول صحيفة عربية نشأَت في عاصمة السلطنة، وعاشت نيفًا وسنة. فكانت تنشر وقائع الحرب المذكورة، وأشياءً أخرى عن أحوال بلادنا السورية، لاسيما لبنان، وبعلبك، وحاصبيا، وغيرها. تضمنت فصولاً لا تخلو من تقبيح الأتراك والتنديد بأعمال الحكومة العثمانية. لأن حسون كان حر الأفكار، طويل الباع في أنشأء مرّ الهجو في الشعر كالفرزدق؛ فصمم الباب العالي على إِلقاء القبض عليهِ، ففرَّ هاربًا إلى الروسية. فحكم عليهِ الأتراك غيابيًا بالإعدام. وقد نظم حينئذٍ بعض أبيات في الفخر خاطبَ بها دولة الأتراك. ونحن نورد منها هذين البيتين اللذين رواهما لنا محمد باشا المخزومي:

أنا ابن حسون رزقُ الله أشهرُ من نارٍ عَلَى علمٍ، والكلَّ بي علموا

كـرًا وبلغهم عني مغلغلـةً يا أمةً ضحكت من جهلها الأممُ

السلطنة

عنوان جريدة سياسية صدرت عام ١٨٥٧ في الأستانة لمنشئها المرحوم إسكندر شلهوب السوري الأصل. وهي ثاني الصحف العربية السياسية في عاصمة السلطنة، وسائر الممالك العثمانية. وما كادت

تظهر لعالم الوجود حتى عطلها صاحبها قبل بلوغها تمام السنة من عمرها، كما أفادنا أحد الأدباء من آل شلهوب. ومن غرائب الاتفاق أنه في ٢٠ أيار ١٨٩٧ ظهرت صحيفة مصورة كبرى في مدينة القاهرة عنوانها «السلطنة»، واسم صاحبها «إسكندر شلهوب» أيضًا. وقد أراد الثاني بذلك إعادة مجد تلك الصحيفة القديمة، وإحياء ذكر مؤسسها الذي كان لهُ نسبيًا، ومن أخص رجال الفضل.

حديقة الأخبار

صحيفة أسبوعية، سياسية، علمية، تجارية، تاريخية، برزت في غرَّة كانون الثاني ١٨٥٨ على يد مؤسسها خليل الخوري اللبناني. وهي أول جريدة سياسية أنشئت في البلاد العثمانية خارجًا عن عاصمة السلطنة.

خليل الخوري

مؤسس جريدة «حديقة الأخبار» وصاحب امتيازها الأول

صحي لكم مني التحيةُ والثنا ... فأنا لكم طول الزمان خليلُ

وكان خليل الخوري قبل أنشأء «حديقة الأخبار» عازمًا عَلَى تسمية جريدته «الفجر المنير»، وعرضها للاشتراك عَلَى أعيان بلادنا وأدبائها. وعلمنا ذلك من وثيقة محفوظة في بيت ميخائيل مدور ومذيلة بأسماء الذين بادروا إلى الاشتراك في الفجر المنير. إنما نجهل السبب الذي حمل خليل الخوري على تبديل هذا الاسم بحديقة الأخبار، وإليك نص الوثيقة المذكورة بالحرف الواحد:

«إنه سيطبع في مدينة بيروت بمطبعة خصوصية مجموع حوادث، عربي العبارة، يحتوي عَلَى حوادث هذه البلاد، وعَلَى الحوادث الخارجية، مؤلفة ومترجمة من أحسن وأعظم جرنالات الأوربا. وعلى فوائد علمية عامة، وأحوال متجربة ليكون نافعًا سائر طبقات الناس. وذلك بمهمة جميعة مؤلفة من أحذق، وأنبه رجال البلاد المؤلفين، والمترجمين، والمصححين الذين ستشهر أسماؤهم فيما بعد؛ لاسيما جناب عمر أفندي الأنسي الحسيني، وجناب الشيخ ناصيف اليازجي. وابتداءُ العمل يكون حين ورود الفرمان العالي بعد أخذ الأسماء اللازمة لهذه العملية. فنلتمس من كل مهذّب يرغب نفع البلاد أن يشرفنا بوضع اسمهِ في هذه القائمة. وثمن هذا المجموع مائة وعشرون قرشاً بالعام، تُدفع عند استلام أول عدد. وهو يطبع في كل أسبوع تحت إدارة كاتبه خليل الخوري، واسمهُ الفجر المنير».

كانت حديقة الأخبار المظهر الوحيد للرسائل العمومية، والأنباء المفيدة، وتنشيط الناس عَلَى إقامة المدارس، وتعميم الزراعة، وترويج الصناعة، وتحسين التربية، والأخلاق، والعادات. وقد حافظت في جميع أدوار حياتها عَلَى مبدأ الاستقامة، والعدل، وحب النفع العام. ولذلك قرظها الأمراء، والوزراء، والعلماء شرقًا وغربًا بما تستحقهُ من المدح؛ كأمير الأمراء السيد حسين التونسي، والصدر الأعظم خير الدين باشا الشهير. ونذكر منهم السيد رينو أحد أعضاء المحفل العلمي الفرنسي، ورئيس «الجمعية الآسيوية»، وأستاذ اللسان العربي في باريس وحافظ المخطوطات الشرقية في مكتبة الدولة الفرنسية. فإنهُ تلا تقريرًا مطبوعًا

أمام الجمعية المذكورة في ٢٩ حزيران ١٨٥٨، وخصصهُ بوصف «حديقة الأخبار» مشبهًا إياها بأعظم الجرائد الأوربية. ثم ذكر ما كابده منشئها من العناء في تعريب الأوضاع المستحدثة في أوروبا، وإيجاد ألفاظ عربية تقابلها وتؤدي معناها الحقيقي بكل أمانة. ومنهم السيد فليشر أحد أركان «الجمعية الشرقية الألمانية»، وأستاذ اللغات الشرقية في كلية ليبسيك. فإنهُ تلا خطابين سنة ١٨٥٨، وسنة ١٨٥٩ عَلَى محفل هذه الجمعية، ونشرهما باللغة الألمانية. وهما يتضمنان الثناءَ عَلَى أسلوب أنشأء حديقة الأخبار التي مثلها بلسان حال التمدن السوري.

وكان أكبر عضد في أنشأء هذه الصحيفة القديمة العهد رجلُ الفضل والشهامة ميخائيل بن يوسف مدور من أعيان بيروت، وترجمان قنصلية فرنسا فيها. ولذلك قرّظه خليل الخوري في العدد الخامس بما يأتي: «قد جعل بمساعدته حديقة الأخبار أن تزهر برياض الشام، وتجري من ثغر بيروت زلالاً ترتشفهُ أبناء الوطن. وهي تكون مشروعًا يؤمل بواسطته تقدم ونجاح المعارف، والتهذيب في هذه البلاد». ولا غرو فإن ميخائيل مدوَّر من أعاظم نصراء الأدب.

ولما حضر فؤاد باشا إلى سوريا سنة ١٨٦٠ خصص حديقة الأخبار بخدمة الحكومة، واتخذها بمثابة جريدة نصف رسمية. وقد عين لصاحبها بإرادة سنية راتب شهري قدرهُ عشرون ليرة عثمانية، أعانة على نشرها حتى ظهرت جريدة «سورية» الرسمية. وفي ١٣ آب ١٨٦٨ صدرت باللغتين العربية والفرنسية، لأن فرنقو باشا حاكم جبل لبنان

جعلها الصحيفة الرسمية لحكومته بدلاً من جريدة «لبنان» الملغاة. وبمقابلة ذلك نال منشئها ثلاثين ليرة عثمانية راتبًا شهريًا. وكان يساعده في تحريرها أخوه سليم باشا بن ميخائيل شحادة، وغيره من الأدباء. وبعد أن قطعت حكومة الجبل عن حديقة الأخبار راتبها الشهري، استمر خليل الخوري على نشرها لحسابه إلى آخر أيامه، وعهد بتحريرها إلى أخيه، وعلى أثر وفاته في ٢٦ تشرين الأول ١٩٠٧ تحول امتياز الحديقة إلى أخيه النشار إليه. وقد أتيح لصاحب الامتياز الثاني أن يحتفل بمولدها الذهبي في ١٣ كانون الأول ١٩٠٨ بحضور أركان الحكومة، وأعيان المدينة، ومشاهير حملة الأقلام فيها. وهو أول احتفال رسمي قامت به جريدة عربية تذكارًا لمرور خمسين سنة عَلَى تأسيسها.فتليت الخطب البليغة، والقصائد الشائقة التي نورد منها الأدبيات الآتية لناظم عقدها داود بك نقاش:

هـــذي الحديقـــةُ طالمـــا		أرجـــت بهـــا غـــرُّ الأزاهـــرْ
بعثـــت إلـــى الأدبـــاء تنشـــر		مَـــن لهـــا قـــد كـــان ناشـــرُ
هـــــي أمُّ كـــــلّ جريـــــدةٍ		عربيـــــةٍ وبهـــــا تفـــــاخرْ
فـــالحرُّ كـــل الحـــرِ مـــن		فـــي مـــدحها أبـــدًا يجـــاهرْ
وأخـــو الكمـــال فنـــى عليـــه		مـــذ بكـــت شُـــقت مرائـــر
والصـــــدق فـــــي تاريخـــــه		لحديقـــةِ الأخبـــارِ شـــاكرْ

١٩٠٨

وكانت حديقة الأخبار قد احتجبت عامًا كاملاً قبل وفاة مؤَسسها لاعتلال صحته. فبقيت كذلك حتى أعاد نشرها صاحب الامتياز الثاني ومحررها بالاشتراك مع أخيه حنا الخوري. فأصدراها يومية في ١٨ كانون الأول ١٩٠٨ تيمنًا بافتتاح مجلس النواب للمرة الأولى بعد إعلان الدستور في السلطنة العثمانية. وقد ضمّناها مقالات شائقة في السياسة، والأخلاق، وفصولاً مفيدة في تأثير النساء وتهذيب البنات. وهي مأخوذة من كتاب مطول لصاحب الامتياز الثاني عنوانه «المرأَة زهرة الآداب»

لم يُطبع للآن. وفي ١٧ جزيران ١٩١٩ توقف إصدار الحديقة لاختلال طرأ فجأَةً عَلَى آلة طباعتها. ثم عادت إلى الظهور من ١٥ تشرين الثاني ١٩١٠ إلى ٢٠ نيسان ١٩١١ ولم تزل محتجبة حتى اليوم. أما الذين تولوا تحرير «حديقة الأخبار» مع صاحبي الامتياز فهم: ميخائيل مدور، ونقولا منسى، وسليم بن جبرائيل الخوري، وسليم شحادة، وسليم بن عباس الشلفون. وقد بلغ مجموع الأعداد التي صدرت منها منذ تأسيسها إلى حين احتجابها٢٩٧٣عددًا.

وقد أنعم السلطان محمد الخامس على وديع الخوري بخاتم مرصع بالحجارة الكريمة تقديرًا لمساعيه في سبيل الصحافة والوطن. ومن مآثره الأدبية أيضًا ديوان شعر طبُع قسمٌ من قصائده في جريدتي التقدم وحديقة الأخبار، ومجلتي الجنان والمقتطف. ومنذ بضعة أعوام شرع في تعريب رواية «تليماك» نظمًا، فحذا فيها حذو سليمان البستاني في

تعريب «الألياذة» للشاعر اليوناني هوميرس. وقد راعى فيه الأصل والمعنى كل المراعاة، حتى جاءت ترجمته من أحسن ما تُلقى بين أيدي المتأدبين وطلاَّب المدارس. ثم نظم تاريخًا شعريًا مفصلاً عن الحرب العثمانية الإيطالية في طرابلس والغرب، وقد جعله قسمين: ينتهي أولهما بفاجعة بيروت في ٢٤ شباط سنة ١٩١٢ عندما أطلق عليها الإيطاليون قنابلهم، ويتضمن الثاني بقية حوادث الحرب.

عطارد

صحيفة سياسية أُنشئت عام ١٨٥٨ في مدينة مرسيليا بفرنسا، وهي تاسعة الصحف العربية. وقد أسسَّها المستعرب الشهير منصور كرلتي «Carletti» الذي درس اللغة العربية في بيروت، وكان عضوًا في الجمعية السورية العلمية السابقة الذكر. وما عتمت أن توقفت عن النشر في سنتها الأولى. ثم ذهب صاحبها بعد ذلك إلى تونس حيث كلّفه الباي محمد الصادق باشا بأنشأء جريدة «الرائد التونسي» كما سترى.

برجيس باريس

جريدة سياسية نصف شهرية ظهرت بتاريخ ٢٤ حزيران ١٨٥٨ في مدينة باريس، لمحررها الكولت رشيد الدحداح اللبناني، ومديرها الأب فرنسيس بورغاد رئيس مدرسة القديس لويس. وكان رسم النسر الإمبراطوري الفرنسي يعلو عنوان هذه الجريدة التي تُعد باكورة الصحف العربية بكبر حجمها، وجودة حروفها، وإتقان طبعها، واتساع مواضيعها. وقد ذاعت شهرتها في الخافقين، وأقبل الأدباء عَلَى الاشتراك فيها من

كل الأقطار العربية، كما يتضح من أسماء وكلائها، وأماكن بيعها المنشورة في صدرها إلى جانبي العنوان. فكانت عبارتها فصيحة، ومباحثها مفيدة تتناول كل فن ومطلب. وقد قرَّظها بعض العلماء والشعراء الذين نذكر منهم الشيخ محمود قبّادو التونسي إذ قال:

أبا مجريًا في البحرِ شمَّ بوارجٍ ... ويا منضياً في البيدِقبَّ الركائبِ
عليكَ ببرجيسَ الرشيد فإنه ... كفيلٌ بما تعنى لهُ من عجائبِ
فما هي إلا لمحةٌ من سطوره ... وقد دارت الأخبارُ من كل جانبِ
فنروي لك الدنيا بعرض صحيفةٍ ... وتشهدُ من أنبائها كل غائبِ

وفي سنتها الرابعة عرضت للكونت رشيد الدحداح أشغال مهمة مع باي تونس محمد الصادق باشا، ألجأته إلى تسليم الجريدة للشيخ سليمان بن علي الحرائري الحسني التونسي من مشاهير كتّاب ذاك العصر. فتولى هذا تحريرها حتى أحتجبت في السنة الخامسة من عمرها. وقد نشر فيها كتاب: «قلائد العقيان للفتح بن خاقان»، ثم «سيرة عنترة»، وطبعهما عَلَى حدة.

الجوائب

صحيفة أسبوعية سياسية برزت في الأستانة بتاريخ شهر تموز ١٨٦٠ لمنشئها أحمد فارس الشدياق اللبناني الذي كان ينشرها في المطبعة السلطانية. وقد أرخ الحاج حسين بيهم البيروتي صدورها بهذه الأبيات:

إن الجوائب بالأخبار قد شهدت	بالسبق في كل ميدان لمعربها
من كلّ فاكهةٍ زوجين قد جمعت	فطاب واردها من طيب مشربها
تجوب دومًا جهات الأرض جاليةً	أخبار مشرقها أرّخ لمغربها

سنة ١٢٧٨ هجرية

ومنذ السنة العاشرة أنشأ أحمد فارس مطبعة خاصةً بها، وجهزها بكل أدوات فن الطباعة، حتى صارت تُعد من أشهر المطابع في السلطنة العثمانية. وقد انتشرت الجوائب انتشارًا عظيمًا في الشرق والغرب، ونالت شهرةً واسعةً لم تنلها جريدة سواها منذ ظهور الصحافة العربية حتى ذاك العهد.

فكان يقرأها سلاطين العرب، وملوكهم، وأمراؤهم، وعلماؤهم في تركيا، ومصر، ومراكش، والجزائر، وتونس، وزنجبار، وجاوا، والهند، وغيرها. وقد ساعد السلطان عبد العزيز عَلَى توسيع نطاق هذه الجريدة لِبث فكر الخلافة النبوية بين المسلمين المنتشرين خارجًا عن الدولة العثمانية. وكان أحمد فارس يقبض كل سنةً خمسمائة ليرة عثمانية من السلطان المشار إليه لهذه الغاية. وكان كل من إسمعيل باشا خديو مصر، ومحمد الصادق باشا باي تونس ينفخهُ ينفحه بمثل المبلغ المذكور لأجل خدمة أفكارهما، وترويج مصالح بلادهما.

وفي شهر تموز ١٨٧٩ صدر الأمر بتعطيل الجوائب مدة ستة شهور لامتناع مديرها من نشر مقالة ادرجتها جريدة «ترجمان حقيقت» التركية طعنًا في إسمعيل باشا الخديوى، ومقابلته تلك المقالة بمقالة

أخرى عنوانها «سفاهة الحقيقة» دفاعًا عن أمير مصر. وكانت الجوائب محقةً بدعواها؛ إذ ليس من قانون يجبرها عَلَى نشر مقالةٍ لم تُعط لها بصورة رسمية. وللحاج حسين بيهم في تعطيل الجوائب حينئذاك، وإعادة نشرها بيتان نوردهما بالحرف الواحد:

لئن حجبت شمسُ «الجوائب» برهة فذاك لسرٍّ قد بدا خيرهُ فينا
حكت قمرًا حين احتجابٍ وقد بدت كبدرٍ بأنواع المعارف يهدينا

وبهذه المنافسة أيضًا نظم كثيرٌ من الشعراء قصائد التهنئة لأحمد فارس بإعادة نشر جريدته. ونقتصر منها على ذكر الأبيات الثلاثة التي ختم بها حنا بك صعب قصيدته مخاطباً صاحب الجوائب:

وأَرجعتَ للدنيا جوائب فارسٍ فسرَّت بها الأقطارُ من كلِّ جانب
وفي عودها قد قلتُ فالعودُ أحمدٌ فأهلاً وسهلاً ذرَّ بدرُ الثواقبِ
وها قد تلا الصعبيُّ حنا ابنُ أسعدٍ لأحمدها حمدًا بقلبٍ وقالبِ

وسنة ١٨٨٢ قبض أحمد فارس من سفارة انكلترا في الأستانة مبلغ ألف ليرة انكليزية حتى يطبع صورة المنشور الذي صدر من الباب العالي بإعلان عصيان عرابي باشا، لإثارته نار الفتنة في وادي النيل. فكان ذلك سببًا لانكسار عرابي، وسقوط اعتباره من عيون الملسمين عامة، والمصريين خاصة.

وكانت الجوائب لا تخلو من المناظرات العلمية، أو السياسية بين صاحبها وبين أكبر علماء ذاك العهد؛ كالشيخ سعيد الشرتوني، والمعلم بطرس البستاني، ورزق الله حسون، ويوسف باخوس، وسواهم من الجهابذة. ومما يعاب عَلَى أحمد فارس خلطةُ المناظرة العلمية بالقاذعة، ثم العدول عن

البرهان إلى الطعن، والذم، والشتم، إلى ما شاكل ذلك مما يغض من مقام العالم، ويحط من قدر الكاتب، وأقدم المناظرات وأشهرها هي المناظرة اللغوية التي جرت بين جريدتي الجوائب، وبرجيس باريس. فاستفحل الأمر بهذا المقدار حتى توسط بينهما الشيخ العلاّمة عبدالهادي نجا الإبياري. فإنهُ بدى حكمة في كراسة عنوانها «النجم الثاقب في المحاكمة بين البرجيس والجوائب»، وكان كلامه فصل الخطاب. عَلَى أثر ذلك نظم أحمد فارس قصيدته الدالية التي يقول فيها:

أَبدى لنا في مصر نجمًا ثاقبًا	لكن سناه بكل مصرٍ هادِ
فيهِ الفوائد والفرائد فُصّلت	موصولة البرهان بالإسنادِ
إن قال لم يترك لقوالٍ مدىً	أو صال هال وطال كل معادِ
هو فيصلٌ في الحكم يرضى فصله	مَن كان لم يقنع من الأشهادِ
لولاهُ لم يُقطع لسانُ المفتري	عني ولم يُفصل جدال جلادِ
فلذاك كان على الجوائب مدحه	حقًا وإيجابًا مدى الآبادِ

ولماَ مات الشيخ ناصف اليازجي سنة ١٨٧١ رثاه أحمد فارس على صفحات الجوائب، وانتقده في معرض التأبين. وكان موضوع الانتقاد لفظة «فطحل»، كأنها وردت في مقامات كتاب «مجمع البحرين» ساكنة الثاني، وقد يكون ذلك غلط مطبعي. فانتصر الشيخ إبراهيم اليازجي لأبيهِ عَلَى صفحات مجلة «الجنان» لبطرس البستاني، فحمل عليهِ أحمد فارس وقابله بكلام جارح. فقام الشيخ إبراهيم اليازجي وردَّ عليه ردًا طويلاً بليغًا، وضمنهُ بيتين دلاّ عَلَى أدبه الجم، ونفسه الكبيرة:

ليس الوقيعة من شأني فإن عَرَضت أعرضتُ عنها بوجهٍ بالحياء ندي
إنــي أضــنُّ بعرضــي أن يلــمَّ بــهِ غيري فهل أتولى خرقةُ بيدي[1]

ومن تلك المناظرات أيضًا أن الشيخ سعيد الشرتوني انتقد كتابًا لأحمد فارس يسمى «غنية الطالب ومنية الراغب» في الصرف، والنحو، وحروف المعاني. ثم جمع هذه الانتقادات في كتاب سماه «السهم الصائب في متخطئة غنية الطالب»، وطبعه سنة ١٨٧٤ في بيروت. وقد كبر هذا الأمر على صاحب الجوائب، فاستنجد الشيخين يوسف الأسير، وإبراهيم الأحدب. فألَف كلٌ منهما ردًا عَلَى الكتاب المشار إليه. ومع شدّة ميلهما إلى المستنجد لم يسعهما أن يقرءا في كثير من المواضع من الإقرار بصوابية الانتقاد. وقد وقفنا على قصيدة شائقة رثا بها الشيخ سعيد الشرتوني مناظره أحمد فارس تورد منها الآبيات الأتية:

أتَّ المنيــة أنشــبت بالكاتــبِ أظفارهــا فغــدا صــريعَ معاطــبِ
قــد كــان يلعــبُ بــالعقول بيانــهُ لعبَ المدامــة بــالنزيف الشــاربِ
لـيس الجـدالُ بمـانعي عـن حقـه وأرى رثــاهُ اليــومَ ضــربة لازبِ
أبقـى الجوائـبَ شـاهدًا مـن بعـده يقتضـي لـه بالفضـل غيـر مـواربِ
كانــت عليهــا كالعيــال جرائــدٌ ترجــو لقاهــا كالحبيــب الغائــبِ
كنــا مــودُ مغــادهُ ويــودُّهُ والله أعلــم بــالجزاء الواجــبِ

[1] كتاب «حوادث وخواطر» للدكتور شبلي شميل (مجلة «فتاة الشرق» في القاهرة: عدد ١٥: ٣ كانون الثاني ١٩١٣)

وبعدما لعبت الجوائب دورًا مهمًا في سياسة الشرق، نُقلت إدارتها سنة ١٨٨٣ إلى عاصمة القطر المصري، بحيث خلفتها جريدة «القاهرة»، ثم جريدة «القاهرة الحرَّة» اللتان سيأتي ذكرهما. وكان احتجاب الجوائب قبل وفاة منشئها بأربعة أعوام. وقد جمع سليم بن أحمد فارس أنفس ما نشرته هذه الجريدة من منثور ومنظوم. ثم طبعه في سبعة مجلدات سماها «كنز الرغائب في منتخبات الجوائب». وكان سليم فارس الروح العاملة في هذه الجريدة الطائرة الصيت. وله اليد الطولى في تدبير شؤونها، وإدارة سياستها، وتشغيل مطبعتها. وكانت المقالات الافتتاحية مدبجة ببراعة، ومشتملة عَلَى أهم حوادث الكون.

نفير سوريا

هو اسم جريدة صغيرة ذات صفحتين، أذاعها المعلم بطرس البستاني سنة ١٨٦٠ بعد الحرب الأهلية في بر الشام.وقد جعلها عَلَى شكل رسائل وطنية تتضمن نصائح مفيدة لشد عرى الألفة بين السكان عَلَى اختلاف مذاهبهم؛ كالأسرائيليين، والنصارى، والمسلمين، والدروز. ثم أوقف نشرها بعد استتاب الراحة في هذه البلاد وخلود الناس إلى السكينة. وظهر من هذه النشرة ثلاثة عشر عددًا موسوعة بالنفير الأول، والنفير الثاني حتى الأخير، بدلاً من العدد الأول، والعدد الثاني.. إلخ، كما جرت العادة. وقد إتحفنا خليل سركيس صاحب جريدة «لسان الحال» بفقرة منقولة عن «نفير سوريا»، فأثبتناها هنا بالحرف الواحد:

«يا أبناء الوطن..إن الفظائع والمنكرات التي ارتكبها أشقياؤنا هذه السنة كسرت القلوب، وأسالت الدموع، وعكرت صفاءَ الألفة، وأضاعت حق الجوار. أَما تمازح الجاران؟ أَما شربتم ماءً واحدًا؟ أَما تنشقتم هواءً واحدًا؟ اما رأَيتم العقلاء ساعين في تشييد أركان الألفة، ورفع منار العلم رغبةً منهم في ارتقاء البلاد وسعادة العباد؟ اعلموا أنكم بعملكم المنكر قد أرجعتم الوطن إلى نصف قرن.. إلخ إلخ. هدانا الله وإياكم إلى سواء السبيل».

الفصل الرابع

أخبار الصحف من فتنة برّ الشام سنة ١٨٦٠ إلى سنة ١٨٦٩

الرائد التونسي

صحيفة رسمية أسبوعية تأسست في غرَّة محرم ١٢٧٨ (٩ تموز ١٨٦١) على يد محمد الصادق باشا الباي الثالث عشر للدولة التونسية؛ وهي باكورة الصحف الدورية التي ظهرت في القطر المذكور. رأى هذا الأمير أن الصحافة من أقوى دعائم العمران للممالك؛ إذ ثبت لديه بالاختبار ما نتج من الفوائد العظيمة بواسطة انتشار صحيفة «الوقائع المصرية» في وادي النيل، وجريدة «المبشر» في الجزائر. فأراد أن يقتني آثار هاتين الحكومتين المجاورتين لبلاده، ويفتتح عهد حكمهِ بمأثرةٍ جليلة تعزيزًا لشأن العلم، وتمهيدًا لأسباب الحضارة في الإمارة التونسسية. فأنشأ جريدة «الرائد التونسي»

محمد الصادق باشا

الباي الثالث عَلَى المملكة التونسية ومؤّسس جريدة «الرائد التونسي»

الصادق العلمُ الحسيني الذي	به تونسٌ حيطت بأعظم سورِ
إذ إنهُ الملكُ الذي أحيا لها	ربع المعارف بعد محض دثورِ

على مثال الجريدتين المذكورتين لتكون لسان حال الإمارة. وقد صدَّرها بهذه الآية «حب الوطن من الإيمان، فمن يسعَ في عمران بلاده إنما يسعى في اعزاز دينهَ» التي جعلها شعاراً لها. وتوصلاً للغاية المقصودة استدعى لديه رجلاً فرنسيًا من مشاهير المشعرين يسمى منصور كولتي صاحب جريدة «عطارد» سابقًا في مرسيليا. ثم كلفه بإخراج هذا المشروع من حيز القوة إلى حيز الفعل. فقام منصور بمهمتهِ أحسن قيام؛ إذ هيأَ المطبعة، ونظم أدواتها، وعلم العملة ترتيب الحروف. وكان يحرر بذاته أكثر من فصول الجريدة، ويساعد العمال في طبعها. وبعد استقالته من هذه الوظيفة خلفهُ الشيخ محمد السنومي، ثم السيد محمد بيرم الخامس، والحاج سن لازغلي، وساهم في كتابة هذه الجريدة القديمة وإدارتها . فقضى الرائد التونسي إدوارًا مهمةً نفقت فيها آداب الكتبة، وتخرَّجت فيها جماعة من حملة الأقلام لا تزال آثارهم تشهد لهم بكمال الاقتدار والبراعة. ومن جملة أولئك الكتاب خير الدين باشا التونسي الصدر الأعظم الشهير الذي نشر على صفحات الرائد «فصولاً سياسية تسترق الألباب ليست مذيلة باسمه» كما روى محمد الجعايبي صاحب مجلة خير الدين. وبعدما بسطت الحكومة الفرنسوية حمايتها عَلَى تونس، خصصت هذه الجريدة بالشؤون الرسمية والإعلانات الشرعية. ثمَّ جعلتها نصف أسبوعية، وزادت عدد صفحاتها التي لا تقل الآن عن اثنتي عشرة صفحة. وللرائد قسم فرنسي أسبوعي يطبع منفردًا عن النسخة العربية.

وقد روى جرجي زيدان في ترجمة أحمد فارس الشدياق المطبوعة في كتابه «تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر»، إن أحمد فارس حرَّر في جريدة الرائد التونسي. والحال أن المشار إليهِ زار تونس قبل سنة ١٨٥٧، ولم يعد إليها مرة ثانية. وكان ذلك قبل تأسيس الرائد التونسي بأربع سنين في عهد الباي أحمد باشا. وروى مثل ذلك الأب لويس شيخو في كتابه «الآداب العربية في القرن التاسع عشر»، فاقتضى التنويه. لإنه لما صدر «الرائد التونسي» كان أحمد فارس يحرر جريدة «الجوائب» في الأستانة التي لم يزايلها إلى أواخر أيامه.

أخبار عن انتشار الإنجيل في أماكن مختلفة

هي نشرة شهرية دينية مصورة، يرتقي عهد أقدم أعدادها إلى غرَّة آذار ١٨٦٣،أنشأها الدكتور كرنيليوس فان دَيك الشهير من رؤساء المبشرين الأميركيين في سوريا. وهي تُعدُّ باكورة الصحف الدينية والمصوَّرة معًا في لسان العرب، وسائر الألسنة الشرقية. وغرضها إِذاعة أخبار المرسلين البروتستنت في أقطار العالم، وتعميم انتشار الإنجيل بين القبائل المختلفة في الشرق الأدنى. فكانت تُطبع أولاً في صفحتين صغيرتين بقطع ربع. ثمُ نشرت في أربع صفحات، حتى احتجبت في ختام سنة ١٨٦٥، وأنشئت مجلة «النشرة الشهرية» بدلاً منها. وكانت رسومها مطبوعة بغاية الإتقان، ويؤتى بقوالبها محفورة في أميركا.

نتائج الأخبار

عنوان لجريدة أسبوعية سياسية أنشأها السيد حسين المقدم في عاصمة الإمارة التونسية. وهي باكورة الصحف السياسية التي ظهرت في شمال أفريقيا، من وادي النيل إلى المغرب الأقصى؛ فكانت تُطبع بحجم صغير عَلَى مطبعة حجرية، وتنشر أهمَّ أخبار العالم شرقًاوغربًا. وروى لنا السيد الطيب بن عيسى صاحب جريدة «المشير» المعتبرة في تونس: أن «نتائج الأخبار» ظهرت في نواحي سنة **١٨٦٣**، ولم يصدر منها سوى أعداد قليلة.

يعسوب الطب

مجلة طبية ظهرت في القاهرة سنة **١٨٦٥** لصاحبيها محمد علي باشا الحكيم رئيس الأطباء بمصر، وإبراهيم الدسوقي. وهي أول مجلة من نوعها في اللسان العربي، شعارها «يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانهُ فيه شفاء للناس» وكانت تُطبع في مطبعة بولاق الأميرية بنفقة الحكومة المصرية.

وقد دُعيت بهذا الاسم إشارةً إلى أنها تجني لمطالعيها من أزهار الطب ما يغنيهم عن مراجعة مطولات الكتب والمجلات، كما يجني اليعسوب (أمير النحل) مواد العسل من زهور البساتين. ومنذ العدد السادس والعشرين انسحب إبراهيم الدسوقي من إدارتها ، فتولاها محمد علي باشا وحده. ثم انضمَّ إليه محمد إسمعيل منذ العدد الثاني والأربعين

الصادر في ٢٤ ربيع الآخر ١٢٨٧، وصارت تصدر باسم كليهما. وما عدا المقالات الطبية التي كان ينشرها المديرون المشار إليهم فقد حرَّر في هذه المجلة كثير من الكتاب والكاتبات الذين نذكر منهم: أحمد ندا، وخليل حنفي، وحسن عبدالرحمن، والقابلة الشهيرة جليله تمرهان،

وقد توفى محمد علي باشا في الحبشة سنة ١٨٧٧ عندما رافق الأمير حسن باشا ابن الخديو إسمعيل باشا رئيس الحملة المصرية هناك. وترك بعض تآليف مفيدة؛ منها كتاب «غاية الفلاح في أعمال الجرَّاح» وغيرها. وتولى رئاسة المدرسة الطبية، ومستشفيات الحكومة، ويخرّج عَلَى يده كثير من مشاهير الأطباء المصريين. واشتهر بين أبنائه الدكتور أحمد باشا حمدي.

سورية

جريدة أسبوعية رسمية صدرت في ١٩ تشرين الثاني ١٨٦٥ بعناية راشد باشا والي ولاية سورية. وهي تظهر في أربع صفحات كبيرة، نصفها تركي يُكتب بقلم مكتوبي الولاية، والنصف الآخر عربي يقوم بتحريره أحد الكتبة الدمشقيين الذين نعرف منهم أديب نظمي صاحب جريدة «الكائنات» حالاً، ومحمد كود علي صاحب مجلة «المقتبس» أيضًا. وليس لهذه الجريدة «سورية» شأن في عالم الإنشاء، والآداب،والسياسة لأنها مختصة بنشر أوامر الحكومة، ونظاماتها، والحوادث الرسمية في

الولاية من عزل ونصب، مع إعلانات دوائر الحكومة. وهي ما برحت حتى اليوم بإدارة مدير تحريرات الولاية.

وأول من رتب أحوالها ونظم مطبعتها كان خليل الخوري اللبناني منشئ جريدة «حديقة الأخبار» البيروتية. فلما انتظمت شؤونها تركها بعد ما تخرَّج على يده بعض العمال الماهرين. وآخر الذين تولوا إدارتها مصطفى وأصف صاحب امتياز جريدتي «الشام»، و«السكة الحجازية» سابقًا

أحمد جودت باشا
مؤَسس جريدة «فرات» في حلب

الشركة الشهرية

مجلة شهرية أنشأها يوسف بن فارس الشلفون في غرَّة كانون الثاني ١٨٦٦ بقطع صغير، ونشرها في المطبعة العمومية. وكان كلُّ جزء منها تبعًا لرتبته العددية يُعرف بالشهر الأول، والشهر الثاني، والشهر الثالث؛ بدلاً من الجزء الأول، والجزء الثاني، والجزء الثالث.. إلخ. فعاشت هذه المجلة ثمانية شهور، ثم احتجبت لقلة مباحثها وعدم إِقبال القوم على مطالعتها. لأن منشئها اقتصر عَلَى أن ينشر فيها نبذًا من كتب الأقدمين، أو قصصًا مترجمة عن كتبة الإفرنج المحدثين. فأجزاؤها الثلاثة الأولى تضمنت نبذةً من تاريخ «يوسيفون بن كربون» اليهودي. ونشرت في الرابع والخامس قصة «منتو كريستو» لإسكندر دوماس كترجمة بقلم

سليم صعب. وحوى السادس نبذةً في «تهذيب الأخلاق» لأبي زكريا بن عدي. وطبع في السابع ديوان السلطان خليل الأشراف. وظهرت في الجزءَ الثامن والأخير «لامية العجم» للطغراني.

النشرة الشهرية

هو اسم لجريدة شهرية دينية مصورة ذات ثماني صفحات صغيرة، أنشأها الدكتور كرنيليوس فان دبك. وقد ظهر عددها الأول في غرّة كانون الثاني ١٨٦٦ عَلَى أنقاض الصحيفة المسماة «أخبار عن انتشار الإنجيل في أماكن مختلفة» المار ذكرها. وكانت الغاية من إصدارها بث تعاليم المذهب البروتستنتي مع إذاعة أخبار المبشرين بهِ، وأعمالهم بين الشعوب الناطقة بالضاد. فكان يرد فيها قسوس الطائفة الإنجيلية وأبناؤُها: كالدكتور المشار إليهِ، والمعلم شاهين سركين، وأخيه المعلم إبراهيم سركيس، والأستاذ رزق الله برباري، وسواهم. وبعدما عاشت خمس سنين كاملة خلّفتها عام ١٨٧١ جريدة «النشرة الأسبوعية» التي لم تزل حية إلى الآن. وفي العام الأخير من عمرها جرى بينها وبين مجلة «المجتمع الفاتيكاني» الخاصة بالآباء اليسوعيين جدال يتناول بعض المسائل المختلف عليها بين الكاثوليك والبروتستنت. وكانت هذه الجريدة مكتوبة بعبارة بسيطة ملائمة لأهل ذلك العصر خاصتهم وعامتهم.

وادي النيل

هو عنوان مجلة سياسية، علمية، أدبية أنشأها سنة ١٨٦٦ عبدالله أبو السعود ناظر المدرسة الكلية التي أسسها محمد علي باشا الكبير في القاهرة. وهي أول صحيفة عربية تناولت هذه المباحث في القطر المصري. وكانت تصدر مرتين في الأسبوع مكتوبة بعبارة صحيحة، وأفكار راقية، وذوق سليم. ولا غرو فإن أبا السعود اشتهر بين علماء زمانه بفنون الإنشاء شعرًا ونثرًا. وعاشت جريدة «وادي النيل» اثنتي عشرة سنة، حتى تعطلت عام ١٨٧٨ بوفاة صاحبها. وكان الخديويإسمعيل من أكبر المساعدين لها، لأنها كانت تخدم أفكاره بإخلاص تام، واعتدال المشرب من دون أن تتعرض في جميع مباحثها للشؤون الدينية.

فرات

صحيفة أسبوعية رسمية أسسسها الوزير الخطير، والمؤَرخ التركي الشهير جودت باشا ولي حلب سنة ١٨٦٧ (١٢٨٤ هجرية)، وخصصها بنشر أخبار الولاية المذكورة، وأوامر الحكومة وإعلاناتها. وكانت تُطبع أولاً في اللسانين العربي والتركي. ثمَّ أُضيف إليهما في السنة الثانية قسم ثالث باللغة الأرمنية قدام سنةً ونصف سنة. وهي الآن تُنشر فقط باللغتين الأوليين؛ أي العربية والتركية. وبعد إعلان الدستور في السلطنة العثمانية سنة ١٩٠٨، اتسع نطاق مباحثها، وتحسنت عبارتها،

وأخذت تنشر المقالات المفيدة سياسيًا، واجتماعيًا، وزراعيًا، واقتصاديًا لمنفعة قرائها. وبعد أن كان لا يطالعها سوى أرباب المصالح ورجال الحكومة، صارت كسائر الجرائد السيارة يقرأها التاجر، والكاتب، والصانع، والزارع، والكبير، والصغير. وأول من تولى كتابة قشمها العربي كان أحمد مصطفى زاده. وقد خلفهُ السيد عبدالرحمن الكواكبي الشهير مدة خمس سنين. ثمَّ تولاها الشيخ كامل الغزي وغيرهم، حتى انتهت اليوم كتابة القسم المذكور إلى حنفي أفندي. أما إدارتها وشؤُون مطبعتها فمتعلقة بجبرائيل برغود منذ سنين عديدة

فرنسيس مرَّاش

منشئ المقالات الشائقة في «الجوائب»، و«المشترى»، و«المجمع الفاتيكاني»، و«البشير»، و«النحلة»، و«الزهرة»، و«الجنان»، و«الجنة»، و«مرآة الأحوال»، و«النشرة الأسبوعية».

أنا لا أرى في الأرض شيئًا يروقني — لذلك نور العمر عندي نارهُ
أَيطربني هذا الزمان وكله — عراكٌ على الدنيا يثور غبارهُ

المشترى

هو عنوان لجريدة سياسية كانت تُنشر في باريس أثناء معرضها العام،سنة ١٨٦٧ في عهد نابليون الثالث إمبراطور الفرنسيس. راسم صاحبها مجهول لدينا عَلَى ما بذلناه من التنقيب لمعرفته، وإنما يترحج

عندنا أنَّ منشئها كان الكنت رُشَيد الدحداح اللبناني الذي كان مقيمًا حينئذٍ في عاصمة فرنسا. ولا شك أنها كانت عَلَى جانب عظيم من الفائدة والمكانة، لأن الشاعر الحلبي الكبير فرنسيس بن فتح الله مراش أطرأَها، وقد وصفها بهذه الأبيات:

لـيَ عـينٌ تـط جـنحَ الـدباجي ترقبُ المشترى فيا سعدَ عيني

كوكـبٌ قـد غـدت أشـعتهُ أخيـا رُ صـدقٍ مـا شـابها مـن مَـينِ

فمـن القـرب قـد بـدا وللقيـا هـُ غـدا الشرقُ باسط الـواحتينِ

يرشـد النـاس للتمـدنُّ والتهـذ يـب فهـو الآتـي مـن النـوعينِ

فيـه شـملُ الأخبـار يحكـي الثريّـا فإليـه يشـارُ بـالكفينِ

أعمال شركة مار منصور دي بول

مجلة شهرية ظهرت في غرَّة حظيران ١٨٦٧ بعناية شركة القديس منصور دي بول في بيروت، وتولى إدارتها أحد مؤَسسيها الطيّب الأثر: ميخائيل بن نقولا فرج الله. فكانت تنشر أخبار الشركة المذكورة، وميزانية حسابها السنوي، وخلاصة وقائع جلساتها العمومية مع أنباء سائر فروعها الممتدة في أنحاء المعمورة. وكان يحرر فصولها كرمًا منهم نخبة من آل الفضل والأدب: كالمحوري يوسف البستاني، والشيخ حبيب ابن الشيخ ناصيف اليازجي، وأنطون عيد الصبّاغ، وسليم بك ثقلا، ودرويس تيان، وسواهم. واستمرَّت هذه المجلة عَلَى خطتها الشهرية حتى كثرت الصحفى بيروت، فصارت تصدر منذ مطلع السنة ١٨٧٤ مرَّة كل ثلاثة شهور. ثم أبطلت بعد زمن قليل حتى قَيض للشركة أن تنشر برنامجها

السنوي عام ١٨٩٨ عندما تولى رئاستها كاتب هذه السطور. فاقترح على مجلس سوري الشركة أن يُوضَع لها تاريخ يتضمن شتات أخبارها، وحوادثها منذ نشأتها حتى ذاك العهد. فاستحسن المجلس هذا الرأي، وعين بتاريخ ١١ كانون الثاني ١٨٩٨ لجنة مؤَلفة من فيليب دي طرازي رئيس الشركة، وأنطون شحيبر نائب الرئاسة، ونقولا قماطي، وخليل يارد، وشكري غلابيتي، والمرحوم نجيب حبيقه للقيام بهذا العمل. ولما كان يستحيل عَلَى أعضاء اللجنة الاجتماع بنظام لكثرة أشغالهم، فوَّضوا إلى الرئيس المشار إليه أن يضع تاريخًاجامعا لأخبار الشركة، فلبى الطلب بكل ارتياح.وكانت اللجنة تصدق عَلَى كتاباته بعد تدقيق النظر في محتوياتها حتى أنجز العمل الذي جاء وافيًا بالغاية المقصودة، والضالة المنشودة. هكذا انتشر تاريخ جمعية مار منصور الذي أَحيا آثار أعضائها والمحسنين إليها،ووفاهم نصيبهم من الثناء بمكيال الحق والعدالة. ولبث الرئيس بعد ذلك معتنيًا بكتابة برنامج الشركة سنةً فسنةً مدة ثمانية أعوام متوالية، حتى تنازل برضاه واختيارِهِ عن الرئاسة. وعندما ما أتفلت الشركة سنة ١٩١٠ بيوبيلها الذهبي، عينت لجنةً لطبع برنامج هذه السنة. وكان نقولا قماطي أحد أعضائها، فاستقلَّ وحده بالعمل، ونسب لنفسه دون سواه وخلافًا للحقيقة تأليف التاريخ المذكور آنفًا. ثم ضرب صحفًا عن إيراد مآثر كثيرة من ذوي الفضل الذين سطَّرت لهم الشركة أعمالاً تذكر، فتشكر بحيث جاهدوا في جادتها الجهاد الحسن. فدفعًا للالتباس وجب الإلماح إلى ذلك على سبيل إظهار الحقيقة.

ميخائيل فرج الله

مدير مجلة «أعمال شركة مار منصور» وأحد مؤَسسيها.

وهنا نورد نص الرسالة الرسمية التي وجهتها الشركة للرئيس المشار إليه بعد استقالته. وحَسبنا بها برهانًا قاطعًا لفصل الخطاب في هذه القضية. وهاك نصها بالحرف الواحد:

«جناب الفاضل الهمام الفيكونت فيليب دي طرازي الأفخم رئيس شركة مار منصور دي بول سابقًا..أيها الأخ المحترم، إن استقالتكم من رئاسة شورى شركة القيديس منصور دي بول في بيروت كان لها تأثير محزن ومؤَثر للغاية في نفوس جميع أخوانكم أَبناء هذه الشركة المحبوبة، لاسيما أعضاء شوراها. فإنهم يذكرون بالشكر والافتخار ما لكم في سبيلها من الأيادي البيضاء من يوم انضوائكم تحت لوائها، وخصوصًا أثناء رئاستكم العامة عليها مدة ثماني سنين متوالية. نعم أيها الأخ المحترم، لقد أحييتم رسوم مؤسسي الشركة وجمعتم آثار الأولين من أعضائها الذين أتوا في جادتها ونهضتها، كلٌ يذكر فيشكر. ثم سعيتم في تجديد برنامجها السنوي، وعنيتم بأوقافها، ومدارسسها، وجمعياتها، واحتفالاتها، وسائر مصالحها الخيرية؛ قائمين بكل استحقاق بالمهمة السامية التي تقلدها أسلافكم الرؤساء الأفاضل الذين طالوا أثرًا وذكرًا وهم: يوسف برطاس الشريف نسبًا، وبطرس ديشان الملتهب غيرةً، وبشارة خوري المتدفق كرمًا. فأحرزتم جميعَ هذه الصفات المعتبرة، كما أنكم توفقتم إلى استدرار البركات الروحية والإمدادات الزمنية من لدن

الأحبار الأعظمين، ورؤساء الطوائف الكاثوليكية، وسراة القوم. فضلاً عن التبرعات السخية، والخدم الجليلة التي بذلتموها حبًا بالشركة التي تذكر لكم أيضًا ما امْتزتُم به من علو الهمة، وشهامة النفس، ونبل المقاصد، وسائر المناقب الفريدة. وفي الحقيقة إنكم جاهدتم في سبيل نجاحها جهادًا حسنًا، حتى أنكم نلتم ثناء الجميع، وصارت الشركة في عهد رئاستكم تتفاخر وتتباهى بين سائر الجمعيات الخيرية بانتظام أحوالها، ونمو وارداتها، واتساع دائرة أعمالها المبرورة.

وبناءً عليه فمجلس الشورى في جلستهِ المنعقدة في مساء اليوم الرابع من شهر تموز الغابر قد أَقرَ على متابعة هذا الترقيم، معلنًا شكره الحميم لجنابكم، ومعربًا عن أسفه الشديد لاستقالتكم من منصب الرئاسة. وبرهانًا عَلَى ما سبق ذكره رأينا أن نزين قاعة الاجتماعات برسمكم الكريم الذي سيبقى أثرًا خالدًا يذكرنا بمساعيكم المحمودة، وغيرتكم الوقادة. وفي الختام نتوسل إلى الله سبحانهُ أن يوفق أموركم، ويوليكم مع أُسرتكم العزيزة سوابغ النعم، وقرائن القسم. وأن يمد بحياتكم الثمينة ويجعل التوفيق لكم أليفًا، والسعد حليفًا، والهناء ملازمًا، والزمان خادمًا بمن الله سبحانه وكرمه».

صدر عن مركز الشركة بيروت في ٣ آب ١٩٠٦

(مكان الختم)

أمين الصندوق	كاتب الوقائع الرئيس حبيب
فرنسيس نادر	شكري غلاييني
	أنطون شحيمر

لبنان

صحيفة أسبوعية رسمية أنشأها داود باشا حاكم جبل لبنان سنة ١٨٦٧ لخدمة مصالح الحكومة اللبنانية، وإذاعة أوامرها وإعلاناتها. وقد نشرها في أربع صفحات حسنة التبويب، لطيفة الحروف، نصفها عربي العبارة ونصفها الآخر فرنسي. وطبعها في المطبعة التي أتى بها إلى «بيت الدين» مركز الحكومة الصيفي، وانتدب لتنظيمها رجلاً بيروتيًا ذا همة كبيرة يدعى يوسف الشلفون. فرتب داود باشا للجريدة مكتبًا مخصوصًا، وإدارة منتظمة على نسق الجرائد الكبرى في الدول المتمدنة، وجعل لها مراسلين في جميع الجهات. وكان كل عدد منها يتضمن خلاصة سياسية بوجه الإجمال، ثم أنباء الحوادث الخارجية، والأخبار الداخلية، وغيرها. وقد تولى كتابة قسمها العربي أولاً صاحب السيف والقلم حنا بك صعب، ثم خلفه حبيب خالد، ثم الأستاذ الشهير إلياس بك حبالين الذي صار فيما بعد رئيس قلم الترجمة في مجلس نظار مصر. أما قسمها الفرنسي فكان يحرره فرنسيس دياب رئيس القلم الأجنبي في الحكومة اللبنانية. وكانت هذه الجريدة متقنة الطبع، فصيحة العبارة، كبيرة الحجم، تعدُّ من أهم صحف ذاك العهد. وبعدما عاشت عامين كاملين عطلها فرنقو باشا حبًا للاقتصاد، واتخذ جريدة «حديقة الأخبار» البيروتية بدلاً منها. لكنها بعد أربعين سنة عادت إلى الظهور في ٢٥ كانون الثاني ١٩٠٩ بعناية يوسف باشا المتصرف السابع عَلَى جبل لبنان، ونجل فرنقو باشا المشار إليه. وقد تعين بولس زين محررًا فيها ومديرًا لشؤونها. وهي الآن مكتوبة باللغة العربية فقط، وتُطبع في «بعبدا»، ولا تنشر سوى

الإعلانات الرسمية وأوامر الحكومة. وقد نظم حنا بك صعب قصيدة في مدح داود باشا لدى أنشأء مطبعة «بيت الدين». جاء في مطلعها:

في عصر داودَ مولانا المشير لقد ... جادت سواجعنا في كل تغريدِ
مولى لهُ الراية البيضاُ في ملاء ... عيثٌ وغوثٌ لظمآنٍ ومنكودِ

وقال في آخرها:

كانت جوائبنا بالحزن منبئةً ... والآن تنبي بسر كل تمجيد
لذاك فرضٌ علينا الدهرَ ننشدها ... في حمد مولى سليم القلب داودِ
أنباءُ شكلا عَلَى إيجادٍ مطبعةٍ ... في طود لبنان لا زالت بتجديدِ
إنَ تنال مدحًا بتاريخٍ ترُق جمل ... راجٍ لداودَ تأييدًا بتأييد

١٨٦٧

مجموعة العلوم

مجلة تشتمل عَلَى أعمال «الجمعية العلمية السورية» في بيروت،وعلى مباحث عمومية؛ كالزراعة، والصناعة، والتجارة، والتاريخ، والشعر، وسائر المواضيع العلمية. نشأت في ١٥ كانون الثاني ١٨٦٨ بعناية الجمعية المذكورة. وكان صدورها مرّة في الشهر يختلف باختلاف أوقات التئام الأعضاء. فظهرت منها في السنة الأولى عشرة أعداد، وفي السنة الثانية سبعة أعداد آخرها في ٢٥ آيار ١٨٦٩، ثم احتجبت وقد قرظها سليم رمضان مؤرخًا افتتاحها بهذين البيتن:

قلتُ للدهر والنجاح تبدَّى   قمرٌ في بلادنا السورية
أيُّ يوم يتمُّ ذا قال أَرخ   يوم فتح الجمعية العلمية

سنة ١٢٨٤ هجرية

وغرض هذه الجمعية تبسيط المعارف، وتعزيز شأن الآداب، وزيادة انتشار المدارس لتنوير أذهان الشعب، وارتقاء الأمة في معارج الفلاح. وكانت عمدتها مؤَلفة من الأدباء، والأعيان الآتي ذكرهم: (الرئيس) الأمير محمد ابن الأمير أمين أرسلان. (المميزون) الحاج حسين بيهم، وسليم البستاني، وحنين الخوري. (أمين الصندوق) رزق الله خضرا. (المصححان) المركيز موسى دي فريج، وسليم رمضان. (الكاتبان) عبدالرحيم بدران، وسليم شحادة. (مدير الأشغال) حبيب جنخ. (أمين المكتبة) يوسف الشلفون. وفي ٣٠ كانون الثاني ١٨٦٩ انتخبت الجمعية عمدة جديدة فأصابت الرئاسة الحاج حسين بيهم، وعين سليم البستاني لنيابة الرئاسة. وأنطوى تحت لواء هذه الجمعية كثير من الوزراء، والأعيان، وحملة الأقلام في بيروت،والأستانة، ودمشق، وحمص، وحماة، ولبنان، وطرابلس، واللاذقية، وبعلبك، وصيدا، وصور، وعكا، وحيفا، ويافا، والقدس، وحلب، والقاهرة، والإسكندرية، وغيرها من المدن الشرقية. وإليك أسماء البعض منهم:

فؤاد باشا الصدر الأعظم سابقًا، يوسف كامل باشا رئيس المجلس العالي، كامل باشا الصدر الأعظم سابقًا، مصطفى فاضل باشا، محمد رشدي باشا وزير المالية، وصفوت باشا وزير المعارف، فرنقو باشا حاكم

جبل لبنان، جميل باشا سر قرناء الحضرة السلطانية، راوف باشا باش ياور حرب الحضرة السلطانية، أمين بك رئيس كتاب السلطان عبدالعزيز، مرزا حسين خان سفير إيران، البارون فراندال سفير بلجيكا في الأستانة، إسكندر كاتسفليس قنصل روسيا، وأنطونيوس بني قنصل الولايات المتحدة في طرابلس، الدكتور شلبي أبيلا قنصل أميركا في صيدا، الدكتور ميخائيل مشاقة قنصل أميركا في دمشق، المطران مكاريوس حدَّاد، الكونت نصر الله دي طرَّازي، حبيب باشا مطران، أحمد باشا أباظه، الأمير سعد شهاب، الأمير مصطفى أرسلان، الأرشيمندريت غبريل جباره، خليل الخوري، خليل غانم، الشيخ إبراهيم اليازجي وأخوه الشيخ حبيب، سليم بك نقلا، حبيب بسترس، المعلم جرجس زوين، الشيخ خطار الدحداح، عبد القادر الدنا، إلياس بك حبالين، جبور بك رزق الله، اسكندر بك التويني، السيد نصري كيلاني، نقولا بك مدور، حنا بك ابكاريوس، الدكتور يوحنا وربات، سعيد بك تلحوق،الدكتور ملحم فارس، الدكتور سليم فريج إبراهيم فخري بك، خليل أيوب، أسبر شقير، إبراهيم يعقوب ثابت، بشارة زينيه، إلياس صالح، خطار البستاني، جلاجس مرزا،جرجس نحاس، قيصر بك نوفل، أسعد خلاط، قيصر كاتسفليس، سليم طراد، أيوب ثابت، سليم أبو حمد،جبرائيل أسبر، ديمتري شلهوب، نقولا بحري، أنطون الشامي، جبور نمور، على بك حمادة، عبد النجيب الأيوبي، المعلم إلياس كركبي، يوسف الجلخ، حبيب نوفل، يوسف باخوس، جرجس الجاهل، شاكر شقير، سليم الخوري، ضاهر خير الله، وغيرهم.

وخلفت لنا هذه الجمعية المعتبرة آثارًا جليلة تشهد لأعضائها بطول الباع في العلوم الحديثة والقديمة. وفي هذا المقام نورد شيئًا من مآثرهم تخليدًا لذكرهم الحسن وعبرةً لسواهم: «أرجوزة عَلَى افتتاح الجمعية»، نظمها حسين بيهم وهي تتضمن ١٥١ بيتًا. خطبة في «فوائد العلم» للأمير محمدأارسلان. مقالة في «احتياجات العقل»، وتاريخ «حياة سقراط»، وخطبة في «الزراعة»، ومقالة في «تاريخ التمدن الأوروبي» لحنين الخوري. وقصيدة في «الحثْ عَلَى التقدم»، وخطبة موضوعها «الطب القديم» بقلم الشيخ إبراهيم اليازجي. وخطبة في «التجارة» ومقالة موضوعها «التمدن» أنشأهما المركيز موسى دي فريج. ونبذة مدارها «علم الطبيعيات وتصوير الشمس» بقلم يوسف الجلخ. وخطبة في «معرفة أعضاء جسم الإنسان ووظائفها» للدكتور ملحم فارس. ومقالة في «الموسيقى» لسليم رمضان. ونبذة عن «حالة العلم» لسليم شحادة. وخطبة في «الاحتياج إلى التمدُّن» ألقاها إبراهيم يعقوب ثابت. ومقالة في «الدم ودورته» كتبها سليم ديصاب. وقصيدة في «الحث عَلَى الاجتهاد» نظمها المعلم ضاهر خير الله. وخطبة في «تاريخ سوريا» أنشأها المعلم جرجس زوين. ومقالة في تاريخ «هرون الرشيد» لعبد الرحيم بدران. ومنها «رسالات سينكا الفيلسوف الروماني» بقلم سليم شحادة. وخطبة موضوعها «الخرافات اليونانية» ليوسف الشلفون.

رجوم وغسّاق

«إلى فارس الشدياق»

هو عنوان لمجلة جدلية صغيرة صدرت عام ١٨٦٨ في لندن لمنشئها رزق الله حسون الحلبي مؤسس جريدة «مرآة الأحوال» في الأستانة. غرضها الرد على أحمد فارس الشدياق صاحب جريدة «الجوائب»، لإطالة لسانه، وتحريك قلمه بالسفاهة في حق رزق الله حسون. فاشتدَّ الجدال بهذا المقدار حتى انتقلت المناظرة بينهما إلى المشاتمة والمهاترة. وكانت كتابات كليهما وردود الواحد عَلَى الآخر مشحونة بالهجو المرّ، والطعن الموجع. ولذلك يسؤنا أن نسطر أخبارًا كهذه عَلَى صفحات التاريخ عن رجلين كبيرَين يفتخر اللسان العربي بآثارهما الصحافية. وقد احتجبت هذه المجلة بعد صدور عدديها الأوَّلين

الزوراء

صحيفة رسمية أنشأها سنة ١٨٦٨ مدحت باشا عندما كان واليًا عَلَى بغداد. وقد جعلها لسان حال الولاية المذكورة لنشر الأخبار، والأوامر، والإعلانات في اللغتين العربية والتركية. وهي أول جريدة ظهرت في العراق بمساعي زعيم الأحرار العثمانيين. أما الذين حرروا قسمها العربي فمعارفهم متباينة جدًا، لأن عبارتها بلغت تارةً مناط العيوق في الفصاحة والبلاغة، وطوراً انحطت إلى الحضيض في الركاكة والسخافة. وهذا أجلى دليل عَلَى تباين طبقات محرريها في صناعة الإنشاء. لما

كانت القيود القديمة هذه لجريدة قد احترقت فلم نعثر إلاَّ عَلَى أسماء الذين تولوا إدارتها، وكتابة فصولها من سنة ١٨٧٧ وهي: حسن أزوم (١٢٩٤- ١٢٩٩هـ)، زهيد أفندي (١٢٩٩-١٣١٣هـ)،إسمعيل أفندي (١٣١٣- ١٣١٧هـ)، أحمد فهمي (١٣١٧- ١٣١٩هـ)، فهمي أفندي (١٣١٩- ١٣٢١ هـ)، عباس حمدي (١٣٢١- ١٣٢٣هـ)، فهمي أفندي (١٣٢٣- ١٣٢٦هـ)، عبدالوهاب أفندي (١٣٢٦).

نزهة الأفكار

صحيفة سياسية أسبوعية ظهرت في القاهرة سنة ١٨٦٩ لصاحبيها ومحرريها إبراهيم بك المويلحي، ومحمد عثمان بك جلال. فما كاد هذان الشريكان الفاضلان يتفقان عَلَى إصدارها حتى تعطلت بعد ظهور العدد الثاني منها ودخلت في خبر كان. ويعزى السبب في ذلك إلى شاهين باشا الذي أبدى للخديو تخوفهُ من إنها تهيج الخواطر، وتبعث عَلَى الفتن؛ فصدر أمر إسمعيل باشا بالغائها.

وقد ترك محمد عثمان جلال بعض تآليف نذكر منها «السياحة الخديوية» التي كتبها عندما رافق الخديوي توفيق الأول في رحلته إلى جهات القطر المصري. ثم نقل اللسان الفرنسي رواية «بول وفرجيني» إلى اللسان العربي. ونظم بالشعر العربي أمثال لافونتين الشاعر الفرنسي وجمعها في كتاب سماه «العيون اليواقظ في الأمثال والمواعظ» ثم

طبعهُ. ومات في ١٦ كانون الثاني ١٨٩٨ بالغًا السبعين من العمر. أما إبراهيم بك المويلحي فسننشر ترجمته في محل آخر.

الفصل الخامس

أحوال الصحافة العربية في الحقبة الأولى وأمثلة من كتاباتها

إلى هنا أنتهى الدور الأوَّل من تاريخ الصحافة التي رافقناها من مهد الولادة عَلَى ضفاف النيل إلى عهد الطفولة عَلَى ساحل البوسفور. ثم أخذت بالنمو تدريجيًا عَلَى سنة الارتقاء الطبيعي، حتى عمّ انتشارها في أهم العواصم والبلدان شرقًا وغربًا. وإذا قابلنا حالة صحفنا مع مثيلاتها في سائر الممالك الراقية في دورهنّ الأول، نرى بين الفريقين بونًا كبيرًا. لأنهُ رغمًا من قلة العارفين بالقراءة في لغتنا العربية نشأت لدينا ٢٧ صحيفة في مدة سبعين عامًا. وهو عدد لم تسبقنا إليهِ دولة عند تكوُّن صحافتها بين سائر الدول المشهورة بتقدم العلوم، وميل الناس فيها إلى مطالعة الصحف. والذي يقضي بالعجب العجاب هو الله بين جميع الجرائد والمجلات التي ذكرنا أخبارها لم ينشأمنها صحيفة واحدة في البلاد العربية الصميمة، بل صدرت إما في الممالك الأجنبية، وإما في الأقطار التي افتتحها العرب بعد ظهور الإسلام.

وكانت صحافتنا في بداية أمرها ضعيفة الأفكار، ركيكة التعابير، سقيمة الطبع، خاليةً من تبويب أبحاثها بوجه الإجمال إلا ما ندر. ولا غرابة في ذلك لأن هذا الفن كان مجهولاً. وسوق العلوم كاسدةً، وآثار الحضارة مندرسة في أكثر أنحاء الشرق. ومن المعلوم أن صحف الأخبار

تشمل كلّ ما تهم معرفتهُ الإنسان عن أحوال السياسية، والتجارة، والعلم، والتاريخ، والاكتشافات، والاختراعات، وما يتعلق بالشؤون الاقتصادية، والبيئية، والاجتماعية، والأخلاقية، والانتقادية، وغيرها. ولكل من هذه الفروع اصطلاحات خاصة عند الغربيين في أساليب التعبير كان يجهلها صحافيو العرب الذين عانوا مشقات جسيمة في هذا المسلك الوعر. لأن أكثر منشوراتهم كان معربًا عن اللغات الأجنبية. غير أن تلك الألفاظ الركيكة، أو التعبيرات السقيمة التي كان يستعملها أرباب الجرائد أولاً في كتاباتهم قد بطلت شيئًا فشيئًا باختمار الصحافة، وارتقاء الأفكار، وانتشار العمرات، وانصباب الناس على اكتساب المعارف. ومن أعظم دواعي ترقيها إقبال أدباء بلادنا عَلَى الأسفار الشاسعة، ومخالطة الغربيين، ومجاراتهم في كثير من الأمور.

وأول من تنبَّه من الصحافيين إلى هذا الأمر المهم، بل جاهد في سبيله جهادًا عظيمًا كان الكونت رشيد الدحداح؛ فإنهُ عزَّز كرامة أبناء جنسه بما نشره من كنوز اللغة على صفحات برجيس باريس وغيرها من المطبوعات النفيسة. ولم يكن أقل جهادًا منه في هذا السبيل أحمد فارس الشدياق صاحب «الجوائب» لمعرفته التامة باللغة العربية، وخبرته الواسعة بشؤون الغربيين الذين سيروا سياستهم، ووقف بذاته على أحوال بلادهم. فإنهُ سدَّ هذه الثملة باتخاذ الأوضاع العربية لأكثر المعرَّبات بالإفرنجية؛ كقوله «المؤتمر» بمعنى «congres» عند الفرنسيس، ثم الأسطول بمعنى «Escadre»، والباخرة بمعنى «bateau à vapeur»، والبريد بمعنى «poste»، والمنطاد «balllon»، والحافلة بمعنى

«omnibus»، والأزمة المالية بمعنى «crise »، والسند بمعنى «Traite» عند الفرنسيس، أو عند الإيطليان «Cambiale»، والسلك البرقي بمعنى «télégraphe»، وغير ذلك من الأوضاع التي يطول شرحها. ولذلك كانت جريدته أرقى جميع جرائدنا بأفكارها، وسياستها، ومباحثها.وكان صحافيو الغرب يعولون عليها في معرفة أخبار الشرق. وتتمةً لفائدة التاريخ نسرد بعض أمثلة من كتابات جرائدنا الأولى، ليقف القارئ عَلَى أحوالها السالفة ويحكم بما آلت إليهِ الآن من الرقي بفضل انتشار وتهذيب الأخلاق، واتساع دائرة التمدُّن. وقد سبق لنا نشر مقدمة جريدة «المبشر»، والآن نشفعها بأمثلة من بعض الجرائد القديمة وهي:

قالت جريدة «حديقة الأخبار» في مفتتح العدد الأول لسنتها الأولى بتاريخ غرة كانون الثاني ١٨٥٨ ما نصهُ بالحرف الواحد:

جرنال عربي

«قد تعلَّقت الإرادة السنية الملوكية بإعطاء الرخصة بطبعه في مدينة بيروت؛ رغبةً في إشهار المعارف والفنون، وتقدم تهذيب عبيدها الذين رشفوا كؤُوس الراحة والأمان تحت ظلها الظليل، فبناءً عَلَى الأوامر التي تشرفنا بورودها سنطبع هذا الجرنال في كل أسبوعٍ مرة، مشتملاً عَلَى كل ما يتعلق بالفوائد الإنسانية. قسمٌ منهُ يحتوي عَلَى أخبار بلادنا السورية مع الحوادث الأجنبية مترجمة من أحسن وأعظم الجرنالات. وقسم يشتمل عَلى نبذٍ مختلفة وفوائد علمية. وقسم يتضمن ملاحظات وأمورًا

مجربة. والقسم الأخير يبتدئ بتاريخ مفيد يطبع بالتتابع بذيل كل آخر صحيفة من الجرنال، كي تقطع تلك الأوراق الأخيرة في آخر كل عام، ويجتمع منها كتاب تاريخ. وثمن هذا الجرنال بالعام مائة وعشرون قرشًا في بيروت وتوابعها. ويضاف عليهِ أجرة توصيله إلى الجهات فيكون ثمنهُ إلى كل مكان خالص المصاريف مائة وأربعة وأربعين قرشًا. فنرجوا من كل ذي عناية يرغب في تقدم البلاد، ومن كل ذي ذوق سليم يميل إلى التهذيب أن يبادر بكتابة اسمهِ إلى المدير».

وقالت جريدة «برجيس باريس» بتاريخ ٢٤ نيسان ١٨٦٢ ما نصهُ:

«قيل إن السلطان المعظم سافر إلى بروسة ليقيم فيها أسبوعًا. وقبل سفره استدعى منشئ الصحيفة التركية المسماة (ترجمان الأحوال) وسأَله: لمَ لا تتكلم مياومة عَلَى السياسة؟ فأجاب بأنهُ لم يتكلم عَلَى ذلك خشية أن يلحقه لوم واحترازًا من وقوع صحيفته في الخطر. فقال له: تكلم عَلَى السياسة والأمور العامة بما ظهرت لك من الواقع ونفس الأمر، ولا تخشَ شيئًا. فإن ثبت هذا فجزى الله السلطان خيرًا عَلَى إنصافه، وإباحته لرعيته أن تكتب عن حقوقها. وهذا يشهد له بالفضل والفخر. وهو في الحقيقة تحصل منهُ مصلحة الجانبين؛ إذ تستمر به الموافقة بين الدولة والرعايا. وفي محكم التنزيل: وشاورهم في الأمر».

وقالت جريدة «أخبار عن انتشار الإنجيل» بتاريخ تشرين الأول ١٨٦٣ تحت العنوان الآتي:

إفريقية الغربية.

«أنهُ في سِيَرَّاليون، وليبيريا، وارس بالماس، وكامبيا، وكوريسكو من دول افريقية الغربية، يوجد الآن أكثر من ستين ألف نفس من المسيحيين المؤمنين الذين كان أصلهم وثنيين، وانتظمت كنائس كثيرة، وابتنت مدارس مختلفة وكراخين. ومنهم ذهب عدد ليس بقليل ليبشروا بالإنجيل بين جيرانهم الوثنيين. ولكن الأمر المحزن هو أن ملك داهومي لم يزل يمارس طقوسهُ الدموية في تقديم ألوف من الشعب ذبيحةً في جنائز الأغنياء والولاة. وقيل سوقًا واحدًا من أسواق مدينة كوماسي قد تسمى «سوق لا ينشف دمه» لكثرة المساكين الذين يُذبحون فيه يوميًا. وعلى جانبي ذلك السوق يتكوَّم رؤوس المقتولين منظرًا للأهالي الذين ينظرون إليها بالضحك والهزو لكي يرضوا بذلك المنظر يُقتل و يُطرح رأسه عبرةً للآخرين، فكيف يمكننا أن نستريح وأخواتنا من الجنس البشري في هذه الحالة. وكيف لا نصلي بلجاجة ومواظبة إلى رب الحصاد ليرسل فعلة إلى حصاده».

ولما تعين ناشد باشا واليًا عَلَى حلب في شهر أيار ١٨٦٨ نشرت جريدة «الفرات» ما نصه:

«لقد اجتمع يوم الأثنين الماضي في دائرة الولاية كل من اعتاد الحضور من الذوات الكرام. وصُفّت العساكر النظامية وأخذت الموسيقة في الترنم. وقد فتح الأمر العالي المتضمن مأمورية صاحب الدولة والإجلال ناشد باشا والي الولاية وقرظا بصفات التعظيم والتكريم. ثم بعد ختام التلاوة ابتدأ بالدعوات الخيرية لدوام سلطنة الذات العليا الملوكية . وأَمّن كل من حضر عَلَى ذاك الدعاء بأصوات حسنة عنَّ عنانها للسماء».

الباب الثاني

تراجم مشاهير الصحافيين في الحقبة الأولى

كان بودّنا أن ننشر تراجم جميع أرباب الصحافة والمحررين فيها لا سيما القدماء منهم. ولكن حال دون رغبتنا كثرة عددهم، أو عدم وقوفنا عَلَى أخبار البعض منهم. فاقتصرنا في ذلك عَلَى المشاهير منهم والذين قضوا شطرًا كبيرًا في خدمة الصحافة. ثمّ راعينا في سرد التراجم المذكورة زمان صدور الصحف لا الزمان الذي فيهِ أربابها، أو عاش فيه كتبتُها. ولذلك يتفق أن ننشر ترجمة الواحد منهم في الحقبة الثانية تبعًا لزمن تأسيس الجريدة، مع أنهُ تولى كتابتها في الحقبة الثالثة والرابعة. نضرب على ذلك مثلاً الأستاذ رشيد الشرتوني الذي خدم الصحافة في الحقبة الثالثة، فإننا نشرنا ترجمته في الحقبة الثانية لأن جريدة «البشير» التي حرر فيها أنشئت في هذه الحقبة. وقس عليهِ غيره من حملة الأقلام في المدَّات المتأخرة.

«١»

(الشيخ ناصيف اليازجي)

هو ناصيف بن عبدالله بن ناصيف بن جنبلاط بن سعد اليازجي اللبناني المولد، الحمصي الأصل، هاجر جدُّه سعد المذكور من حمص مع جماعة من ذويه سنة ١٦٩٠ لحيفِ،ووقع عليهم في تلك الديار.

فتوطن أناسٌ منهم في ساحل لبنان في الجهة المعروفة بالغرب، وآخرون في وداي التيم من أعمال دمشق، وتفرق بعضهم في مواضع أخرى. ولا تزال بقية أسرتهم في حمص ونواحيها وهم عشيرة كبيرة من ذوي الوجاهة واليسار. وأكثرهم من طائفة الروم الأرثودكس، أما فرع الشيخ ناصيف فانهُ ينتمي إلى الروم الكاثوليك. وقد اقتطعنا بعض أخبار صاحب الترجمة مما كتبهُ حفيدهُ الشيخ أمين الحداد.

كان مولدهُ في قرية كفر شيما من قرى الساحل المذكورة في ٢٥ آذار سنة ١٨٠٠، وتلقى مبادئ القراءة عَلَى راهب من ليت شباب يقال له القس متى. وكان والده عبد الله من الأطباء المشهورين في وقتهِ على مذهب لين سيناء.وكان مع ذلك أديبًا شاعرًا، إلاَّ أنه كان قلما يتعاطى النظم لقلة الدواعي إليه إذ ذاك. ومن شعره أبياتُ قرَّظ بها ديوان الخوري حنانيا المنير أحد شعراء ذلك العصر، لم يحفظ منها إلاّ بيتان رواهما الشيخ إبراهيم اليازجي وهما قوله:

عِش بالهنا والخير والرضوانِ　　يا مَن عنيتَ بنظم ذا الديوانِ
إنـي لقد طالعتهُ فوجدتـه　　نظمًا فريدًا ما لهُ من ثانِ

فنشأَ ولده ناصيف على الميل إلى الشعر، وأَقبل على الدرس والمطالعة بنفسه، وتصفح ما تصل إليه يده من كتب النحو ودواوين الشعراء. ونظم إذ لم يكن في البلاد السورية، ولا المصرية إلا مطابع نادرة قلما كانت تشتغل بطبع الكتب العلمية، كان جل معتمده على كتب يستعيرها من بعض الأديار والمكاتب القديمة. فمنها ما يقرأُها مرةً

فيحفظ زبدتها، ومنها ما ينسخها بخطه. ولا يزال كثير من تلك الكتب باقيًا إلى اليوم محفوظاً عند أسرته. وهي جميلة الخط على القاعدة الفارسية، وبعضها يبلغ عدة مئات من الصفحات.

الشيخ ناصيف اليازجي

أَمضى وتبقى صورتي فتعجبوا تمضي الحقائق والرسومُ تُقينُ
والموتُ تجلبهُ الحياةُ فلو روحًا لماتَ الهيكلُ المرسومُ

وقد بلغ من كل على لبابهُ، ودرس أشهر مصنفاته. وله في جميعها تآليف مشهورة بين مختصر ومطوَل هي اليوم عمدة التدريس في أكثر المدارس السورية، وبعض المدارس المصرية لما هي عليه من الوضوح وحسن الترتيب. أشهرها وقد بلغ فصل الخطاب في أصول لغة الأعراب.

وهو من أَفضل المتون في الصرف والنحو، وعليه شرح بقلمه. وكتاب وقد بلغ «الجوهر الفرد» في موجز الصرف، وقد علق عليه الشروح ولدهُ الشيخ إبراهيم في كتاب سماه «مُطالع السعد في مُطالع الجوهر الفرد» وطبعه. وله «طوق الحمامة» في مبادئ النحو. ثم أرجوزة «لمحة الطرف في أصول الصرف»، وأرجوزة «الباب في أصول الإِعراب» في النحو. ومنها «الجمانة في شرح الخزانة» وهو مطول في الصرف. ثم «نار القرى في شرح جوف الفرا» وهي أرجوزة مطولة وقد اختصرها ولده الشيخ إبراهيم. ومنها «عمود الصج» وهي رسالة في التوجيهات النحوية انتهى بها إلى المفعول فيهِ فقط ولم تطبع. وكتاب

«عقد الجمان في المعاني والبيان»، ثم «الطراز المعلم» وهو أرجوزة مختصرة في البيان مشروحة بقلمه، و«نقطة الدائرة» في العروض والقافية، ومنها «اللامعة في شرح الجامعة» وهي أرجوزة مطولة مشروحة بقلم ولده الشيخ حبيب، وكذلك «قطب الصناعة»، وأرجوزة سماها «التذكرة» في أصول المنطق، ثم «القطوف الدانية» وهو شرح مطول على بديعيته، وكتاب «مجموع الأدب في فنون العرب» وهي مجموعة في المعاني، والبيان، والبديع، والعروض. وأرجوزة مختصرة سماها «الحجر الكريم في الطب القديم» نُشرت في مجلة الطبيب. ومعجم سماه «جمع شتات في الأسماء والصفات» لم ينشر بالطبع وهو يبحث في أعضاء الإنسان، والصفات. وساعد المرسلين الأميركيين في ترجمة الكتاب المقدس، ونظم لهم المزامير وبعض الأغاني الدينية. وكان قد شرع في وضع شرح لديوان المتنبي لم يستوفه، وكان يعلق عليه الحين بعد الحين ما يعن له من تفسير بعض الأبيات الغامضة. فأكمله بعده ولده الشيخ إبراهيم وسماه «الترف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب»، وأضاف إليه ما يُروى للمتنبي من الشعر الذي لم يثبته في ديوانه، وذيله بنقد مطول عَلَى شعر المتنبي وكلام شراحه. وأشهر تآليفه وأعظمها مقاماته المعروفة باسم «مجمع البحرين» التي عارض فيها مقامات الحريري. وهي ستون مقامة ضمنها من بلاغة الإنشاء، والفوائد اللغوية والعلمية، وتواريخ العرب وأمثالهم ما دل عَلَى غزارة محفوظه وقوة عارضته في النظم والنثر، وأودعها من الفنون البديعية الصعبة المرتقى في

بعض منظوماته: كالجناسات الخطية، وجناس ما لا يستحيل بالانعكاس، وغيرها ما لا يضطلع به إلا عن مقدرة فائقة.

وقد تفنن في صناعة التاريخ الشعري تفننًا غريبًا يقضي له بالسبق في هذا المضمار عَلَى الشعراء قاطبةً. ومن أبدع ما نظمه في هذا الباب بيتان قالهما سنة ١٢٤٨ هجرية في فتح مدينة عكا قد اقترحهما عليهِ الأمير بشير الشهابي الكبير. وهما يتضمنان ثمانية وعشرين تاريخًا بحساب الجمَّل. وذلك يحصل من كل شطر منهما ومن مهمل كل بيت منهما، ومن معجمه ومن مهمل كل شطر مع معجم كل شطر فيهما، وبالعكس صدرًا لصدر، وعجزًا لعجز، وبالخلاف سوى التاريخ الناطق لفظًا، وهما:

في فتح عكا يردُ نادرٍ معاطب　　　دارِ الخليلِ وللديارِ به البكا
رأسَ الثمانِ وأربعين بطيهِ　　　مئتان مع ألفِ فباركَ ربُّكا

ونظم من هذا القبيل أيضًا بيتين سنة ١٣٨٣في مدح السلطان عبدالعزيز. وله في مدح كل من إبراهيم باشا المصري والسلطان المشار إليه قصيدة جعل كل شطر منها تاريخًا، وصدرهما بيتين قد ضمن كل شطر منهما تاريخين. ثم وزَّع حروف البيت الأول عَلَى أوائل أبيات الغزل من القصيدة، ووزع حروف البيت الثاني عَلَى أوائل أبيات المديح منها، ومن مبتكراتهِ في فن النظم بيتا المديح اللذان إذا عُكِسَت قرآتهما انعكساهجاءً، ثم البيتان اللذان طردهما مديح وعكسهما هجاء. ومن مخترعاته في هذا الباب «عاطل العاطل»؛ وهو أن تكون حروف الكلمة

خالية من النقط كتابةً وهجاءً. وذلك لأن الحروف المعروفة بعاطل العاطل ثمانية فقط وهي: الحاء، والدال، والراء، والصاد، والطاء، واللام والهاء، والواو. فلا يسع المتكلم أن يواكب منها كلامًا كثيرًا. وقد نظم من هذا النوع أربعة أبيات لا يُعرف سواها في لسان العرب وهي:

حَــــوْلَ دُرْ حَــــلّ وَردٌ	هــــل لــــهُ للحــــرِّ وِردُ
لِحَصُــورٍ حُلْــوِ وَصــلِ	وِردُهُ للصــــحوِ طَــــرْدُ
ولــــهُ صَــــوْلٌ وطّــــوْلٌ	ولــــــهُ صَــــــدٌ ورَدُّ
دَهْــــرُ حــــرٌّ صــــدُور	هــــل لــــهُ لله حــــدُّ

وكان يصحح مطبوعات المطبعة المخلثية في بيروت. ووقف على طبع كتاب «مواعظ القديس يوحنا فم الذهب» بعد أن أصلح عبارتهُ وهذَّبها. وله الفضل بتأسيس «الجمعية العلمية السورية» التي اشتهر أمرها، وأنشئت لها مجلة باسمها. وقد قرَّظ الشعراء كتاب «مجمع البحرين» بما يستحقه من الثناء والإجلال، فنظعوا القصائد الرنانة التي نورد منها أبياتًا للسيد شهاب الدين العلوي الموصلي:

هذا المصنِّف فوق الفضل قد رُفعتْ	فضلاً مقاماتهُ والفضلَ قد جمعتْ
أعارها الأصمعيْ لو كان ينشدُها	بمثلها قال أذنُ الدهر ما سمعتْ
ثم الحريريُّ أَحرى لو يقاومها	بأن يقول مقاماتي قد اتضعتْ
يتيمةٌ ربِّ منِعنا بوالدها	عن غيرها فطمَ الألباب ما رضعتْ
تمت كمالاً وقد جاءت منزهةً	عنها النقائضُ تهذيبًا قد انخزعتْ
عَلَى الكمالات طبعُ اللطف أرخها	لطفاً مقامات ناصيف التي طُبعتْ

وترك ثلاثة دواوين شعرية تُعدُّ من عيون الشعر كثير منها محفوظ على الألسنة، ولاسيما الأبيات الحكيمة منها، وهي في شعره أكثر من أن تحصى. ويسمى أقدم دواوينه «النبذة الأولى»، والثاني «نفحة الريحان»، وآخرها «ثالث القمرين»، وقد تجدد طبعها في السنين الأخيرة. ونظم التواريخ الكثيرة التي نُقشت عَلَى القبور، أو علّقها عَلَى الكنائس، والقصور، والآثار البنائية. وله خلا ما نظمه في عهد الصبا مما لم يثبته في دواوينه المطبوعة؛ وهو شيء لا كثير لو جُمع بأسره لزاد على المشهور منه. ومع أنه لا يبلغ طبقة المشهور من شعره، فإن الإجادة ظاهرة فيهِ بما يدل عَلَى أنه رحمه الله كان مطبوعًا على الشعر. فلم يكن يتكلفهُ، ولا يتعمل لأجله، ولا تجد فيه حشوًا ولا تعقيدًا. وذلك مع اختياره للألفاظ الجامعة بين الجزالة، والرقة، واتساع تصرفه في أساليب الكلام مما كان بهِ نادرة وقته. وإذا ضمنت هذا إلى ما لهُ من التآليف العلمية، وإِحكام وضعها، وحسن تنسيقها، ثم إلى ما في مقاماته من الإبداع وجريها كلها على سنن واحدة من علو الطبقة، مما دل به على قوة ملكته في الصناعة اللسانية، وانطباعه على الفصاحة العربية، علمتَ أنهُ قد انفرد بأمور لا تجدها مجموعة في غيره. وكان في أوائل أمره قد ذاع صيت علمه بين الخاص والعام. فانتدبهُ السيد اغناطيوس الخامس بطريرك الروم الكاثوليك سنة ١٨١٦ ليكون كاتبًا عنده في «دير القرقفة» المشيد في قمة كفر شيما.

فلبث ناصيف بهذه الوظيفة مدة سنتين حتى نقل البطريرك إقامتهُ إلى الزوق. ثم أتصل بالأمير بشير الشهابي الشهير فقرَّ به إليه وجعله

كاتب يده. ومع إنهُ لبث في خدمته نحوًا من اثنتي عشرة سنة؛ أي إلى سنة ١٨٤٠؛ وهي السنى التي خرج فيها الأمير بشير من البلاد الشامية، فلم أجد له فيهِ إلاَّ مدائح قليلة. ولعل ذلك لأن شاعره الخاص كان الشاعر الكبير المعلم بطرس كرامه، فلم يشأ أن يزاحمهُ. وبعدما ارتحل الأمير بشير انتقل رحمهُ الله بأهل بيته إلى مدينة بيروت وأقام بها منقطعًا للمطالعة، والتأليف، والتدريس في «المدرسة البطريركية» للروم الكاثوليك، ثمَّ «المدرسة الوطنية» للبستاني، وكذلك «المدرسة الكلية» للأميركان. فاشتهر ذكره في جميع البلاد العربية، وراسلته أكابر الشعراء من العراق، ومصر، وغيرها. وقد طُبع ما دار بينهُ وبينهم في ديوان مخصوص عنوانهُ «فاكهة الندماء في مراسلات الأدباء» وهو فريد في بابه. ولا ندري أحدًا بين حملة الأقلام في الشرق أجمعت العلماء والأدباء عَلَى مدحه كصاحب الترجمة. وللشيخ عبد الهادي نجا الإبياري قصيدة قرَّظ بها «النبذة الأولى» من ديوان اليازجي جاءَ فيها:

هو قاضي البلاغة الفاضل الند	بُ الذي ظلَّ في المعارف أَحدْ
ملكُ القولِ مَن يقِنهُ بقس	فهو لا شكَّ في القياس مفندْ
كما سمعنا بمثله عيسويًا	يتحدَّى بمثل مُعجزِ أحمدْ
ألمعيٌّ لكنهُ عيسويٌ	كان أَولى بفضل دين محمَّدْ

فلما أطلع مارون النقاش عَلَى هذه القصيدة لم يتمالك من الرد عليها ظانًا أن فيها إهانة لصاحب الترجمة، ومساساً لكرامتهِ. فنظم

قصيدةً عَلَى نفس الوزن والقافية بلا علم من الشيخ ناصيف وأرسلها للشيخ عبدالهادي قال فيها:

أيهــا الســيد الخطيــب لمــاذا ... قمتَ تبدي ما لم يكن فيك يُعهَدْ
ورأَينــا مــن يحــرك الشــعر يهــدى ... فهــو درٌ مــن غلفــهِ لــو تجــرَّدْ
مفحــــمٌ مــــبكمٌ فريــــدٌ مزيــــدٌ ... إنمــا زادَ بالحــدّ حتــى تزيــدْ
عربــــــيٌ لكنــــــهُ جــــــاهليٌّ ... آهُ لــو كــان عيســويًا فيُنشــدْ
لــم يكــن فــنُّ الشــعر إرثًــا ولكــن ... مَن يخضْ بحرهُ استطال إذا جدْ
لا ولا الفخــــرُ بالمــــذاهب إلاَّ ... يــومَ تصــفو فيــهِ الوجــوهُ وتكمــدْ
فعلــى مَــا انزلقــت فــي غيــر وقــتِ ... تتعــدَّى لفــتح بــاب مســدَّدْ
نحــن فــي عصــر والمــودة تنمــو ... والشــداني بــين الفــريقين يوجــدْ
إنْ أَرادتَ الشــقاقَ والبعــدَ عنــا ... جــاور البيــت إنــهُ لــك أجــودْ

أما صفاتهُ الشخصية فكان معتدل القامة فوق الربعة، ممتلىء الأعضاء،أسمر اللون حنطيهُ، أسود الشعر، أَجش الصوت. وكان مهيبًا وقورًا شهمًا كاملاً متواضعًا متأنيًا في حديثهِ وحركاتهِ، قليل الضحك، عفيف اللسان، لم تُسمع له كلمة بذية لا في حديثه ولا في كتاباته. ولم يهجُ أحدًا ولا هجاه أحدٌ في زمانه. ويروى أن له بيتين قالهما ارتجالاً في رجل يوصف بالبخل كان يدعى الأمير علي شهاب من كفر شيما مسقط رأس الشيخ ناصف. والبيتان أقرب إلى المداعبة والمباسطة منهما إلى الهجو الحقيقي، وهما هذان:

قــد قــال قــومٌ إن خبــزك حــامضٌ ... والــبعض أثبــت بــالحلاوة حكمــهُ
كــذب الجميــع بــزعمهم فــي طعمــهِ ... مَــــن ذاقــــهُ ليعــــرف طعمــــهُ

وكان ودودًا مخلصًا رقيق القلب، حسن التدين، مبالغًا في اجتناب السحت، لا يعطي مالاً ولا يأخذ مالاً بالربا، ولا يكتب صكًا فيهِ ربا. وكان واسع المحفوظ، كثير النكات والنوادر، وكان يروي القصة بتواريخها، وأسماء أصحابها، وأسماء بلدانهم. ومن غريب ذاكرتهِ أنهُ كان إذا نظم الشعر لا يكتبه بيتًا بيتًا، ولكنه كان ينظم الأبيات ثم يكتبها. حتى أنه في مدة اعتلاله الأخير أملي ثمانية عشر بيتًا دفعةً واحدةً. وقد ألف إحدى مقاماتهِ وهي المقامة اليمامية على ظهر الفرس، وكان مسافرًا بأهل بيته من بيروت إلى يحمدون سنة ١٨٥٣ بقصد الاصطياف. فلما انتهى إليها أخذ قرطاسًا فعلّقها. فكان يحفظ القرآن بتمامه، ويعي من الشعر شيئًا كثيرًا ولاسيما شعر المتنبي لشدة إعجابه به.

وكان يقول: «كان المتنبي يمشي في الجو وسائر الشعراء يمشون على الأرض».

وهو من المحافظين عَلَى لهجة قومه، وتقاليد أهل بلاده في الطعام، واللباس، والجاوي، وسائر العادات كما كانوا في عصورهم القديمة. فكان لا يطيب له إلاّ أن يتغنى بما تغنوا به، وأن يحذو حذوهم في كل شيء. وكان يلبس العمامة في رأسه، والجبة والقفطان عَلَى بدنه، ويضع الدواة تحت منطقته، وروى تليمذه وابن وطنه الدكتور شبلي سميل أنه سمعه مرةً يقول عَلَى سبيل المزاح: «لو فُقد الشاش لاعتممتُ بالقطوعة»؛ وهي في لغة عامة سوريا قطعة من الحصير القديم. ومن عاداته أن يكتب عَلَى ركبته متربعًا فوق منضدة مطروحة على الحضيض،

وأمامه منضدة صغيرة لوضع القلم، والحبر، والقرطاس. واشتهر بصناعة الخط الذي اتقنه كثيرًا. ويقال إنه لو جُمع ما كتبه في حياته بخط يده لكان ذلك لا يقل عن محمول جملتين. وله ولع شديد باستعمال التبغ، فكان يدخن بالغليون ويكثر من تناول القهوة. ويروى من جملة نوادره أنه زار المعلم إبراهيم سركيس ف منزله، فلما قُدمت له القهوة أنشده إبراهيم هذا البيت:

قهـــــوةُ الـــــبن حـــــرامٌ　　　قـــد نهـــى النـــاهون عنهـــا

فأجابهُ الشيخ ناصيف اليازجي من فوره قائلاً:

كيـــف نـــدعوها حرامًـــا　　　وأنـــــا أشـــــربُ منهـــــا

وفي عام ١٨٦٩ أُصيب بمرض عضال فانفلج فالجًا نصفيًا عطل نصفه الأيسر. ثم أصابته سكته دماغية فتوفي فجأَة بتاريخ ٨ شباط ١٨٧١ في منزله الكائن في زفاق البلاط بالقرب من «المدرسة الوطنية» البستالية سابقًا في بيروت. فجرى لمشهده احتفال عظيم جدًا اشترك فيه العلماء، والكبراء، والتجار، وتلامذة المدارس، وجم غفير من الناس مما لم يسبق له مثيل. فكان ذلك أوضح دليل عَلَى سمو منزلته لدى جميع طبقات الشعب من النصارى، والمسلمين، واليهود. وبعد الصلاة عن روحه نقلت جثته بين تصاعد الزفرات، وشكب العبرات، وتوالي الحسرات إلى مقبرة الروم الكاثوليك في الزيتونة، وهناك دفن في ضريح خاص نُقشت فوقهُ هذه الأبيات:

هــذا مقــامُ اليــازجيْ فقِــف بــهِ وقل السلامُ عليك ذيا علَم الهدى

حِـرمٌ تحـجُّ إليـه أربـابُ الحجـى أبــدا وتــدعو بــالراحم ســرمدا

هو مغرب الشمس التي كم أطلعت فــي شــرق آفـاق البلاغــة فرقــدا

فخر النصارى صاحب الفرر التي ضربت عَلَى ذكرى البديع وأحمدا

هـذا عمـاد العلـم مـال بـه القضـا فأمــال ركنًــا للعلــوم مشــيدا

أمســى تجـاه البحـر جانـبَ تربـة هي مجمع البحرين أشرف مجتدى

فعليــك يــا ناصــيف خيــر تحيــةٍ طابـت بـذكرك حيـث فـاح مـردادا

لــو أنصــفتك النائبــات لغيــرت عاداتهــا ووقتــك حادثــة الــردى

تتنــزل الأمــلاك حولــك بالرضــا ويجـود فوقـك بـاكرًا قطـر النـدى

وجميل حظك في الأعالي رحمةً ارخ وذكــرٌ فــي الصــحائف خُلــدا

«٢»

بطرس البستاني

هو بطرس بن بولس عبدالله بن كرم بن شديد بن أبي شديد بن محفوظ بن أبي محفوظ البستاني. وُلد في تشرين الثاني ١٨١٩ في «الدبية» بلبنان. ودخل منذ صباه مدرسة «عين ورقة»، حيث تلقى أصول اللغات العربية، والسريانية، والايطالية، واللاتينية. فأنفق هناك بين تعلم وتعليم مدة عشر سنين حتى أَحرز كل العلوم التي تعلمها تلك المدرسة. ثم زايلها وجاء بيروت فتعرَّف بالدكتور عالي سميث رئيس الرسالة الأميركانية، وقسومها الذين أحبوه لنجابته، وشملوه بعنايتهم؛ فقرأ عليهم اللغات اليونانية، والعبرانية، والانكليزية مع بعض العلوم العصرية، وتبع

مذهبهم البروتستنتي. وإذ آنسوا منه براعةً في المعارف، جعلوه سنة ١٨٤٦ أستاذًا في مدرسة عبيه، حيث تخرَّج عليه كثير من شبان سوريا ولبنان. وبعد سنتين عين ترجمانًا لقنصلية أميركا في بيروت،

واتخذه المرسلون الأميركان معاونًا لهم في إدارة شؤون مطبعتهم؛ فساعدهم في تآلف كثيرة، لاسيما ترجمة التوراة من العبرانية إلى العربية. وألف حينئذٍ كتاب «مصباح الطالب في بحث المطالب»، وكتاب «مفتاح المصباح» في الصرف والنحو، وكتاب «كشف الحجاب في علم الحساب»، ثم «روضة التاجر في مسك الدفاتر»، وكتاب «باكورة سوريا» في تاريخ أسعد الشدياق. وتولى رئاسة «مدرسة الأحد» خمس عشرة سنة، وترجم نفعًا لها عدة رسائل دينية، وأدبية، وتهذيبية، فضلاً عن الرسائل التي أنشأها واعيًا فيها إلى تربية الأولاد، والإمساك عن شرب المسكرات. وله الفضل في وضع قانون الكنيسة الإنجيلية في بيروت، وقانون «المدرسة الداودية الدرزية» في عبيه. واشتهر في فن الخطابة، وله في هذا المعنى آثار مشكورة. وأهمها خطاب عنوانهُ: «تعليم النساء»، وكان المعلم بطرس أول من طرق هذا الباب من خطباء الشرق وغيرهم. ثم وضع مجلدين كبيرين مما جعل المعلم بطرس أول من طرق هذا الباب من خطباء الشرق وغيرها. ثم وضع في مجلدين كبيرين معجماً مطولاً للغة العربية سماه «محيط المحيط»، واختصره في «قطر المحيط»؛ فكافأه السلطان عبد العزيز بجائزة مالية تبلغ ٢٥٠ ليرة مجيدية، ومنحه الوسام المجيدي الثالث. ثم وضع كتاب «بلوغ الأرب في نحو العرب» ولا يزال غير مطبوع. ونقل إلى اللسان العربي كيباً شتى

نذكر منها: «سياحة المسيحي»، ثم «تاريخ الإصلاح»، ثم «تاريخ الفداء»، ورواية «روبنصن كروزي».

بطرس البستاني

باني المدارس للأَحداثِ مُرشدُهم	إلي الصفاتِ التي طابت مزاياها
أَعمالُهُ في جبين الدهرِ قد كتبَت	محبـةُ الـوطنِ الإيمـانُ مبـداها

ونقح وطبع كتاب «أخبار الأعيان في جبل لبنان» لمؤلفهِ الشيخ طنوس الشدياق. وسنة ١٨٦٣ أحدث «المدرسة الوطنية» التي أقبل إليها التلامذة من كل المذاهب، وهي أقدم المدارس الكبرى في بيروت. فكللت مساعيه بالنجاح، ونبغ كثير من تلامذة مدرسته الذين شرفوا البلاد الشرقية بمعارفهم الواسعة، ومآثرهم الجليلة. وكان هو بنفسه يلقي عليهم الدروس مع اشتغاله في التأليف والمطالعة. وله الفضل في أنشأء باب «دائرة المعارف» الذي جارى فيه علماء الإفرنج، وضمنهُ المباحث المفيدة والعديدة في كل فن ومطلب. وهو مشروع مبتكر لم يقدم عليه أحدٌ من علماء العربية قبله وبعده. فأحرز ثناء الأعارب، والأعاجم، وابتاع سلعة افتخار تخلد ذكره مدى الأجيال. فأبرز في حياته من هذا الأثر النفيس سبعة مجلدات تاركًا انجاز العمل له لهمة أنجاله من بعده. وإليك ما ورد في وصف هذا المشروع نقلاً عن ترجمة حال المعلم بطرس في كتاب دائرة المعارف:

«هذا وإننا لا نغالي فيما إذا قلنا أنهُ أبدى من العزيمة الماضية، والهمة السامية في تأليف الكتاب وطبعه ما لا يتوقع من رجل واحد،

ولاسيما في ديار الشرق. ولكنه ألفى هو وولده الفاضل سليم أفندي من مواطنيه وكل أهل المطالعة والأدب عمومًا، ومن الحكومة المصرية خصوصًا بدأ بالندى ندية. أما الحكومة المصرية فارتاحت أيما ارتياح إلى اقتناء هذا الكتاب، شدًّا لأزر صاحبه أولاً، وجلبًا للنفع إلى مدارسها، ومكاتبها، ومحافلها العلمية ثانياً. لا جرم أنهُ لا أولى بالثناء ممن اشترك في المساعدة والمعاونة. ثم إنَّ الذي يعلم من تاريخ الانجليزيات الابتدائية الأوروبية، أنها لم تكن في منشئ أمرها عَلَى ربع ما هي عليه «دائرة المعارف» من إِحكام التأليف، وغزارة المادة، وضبط وحسن الطبع، والورق، والتجليد، والصور مع قلة في الثمن لا أقلَّ منهُ إلاَّ اذ كان للكتب العادية. فحق إذًا لأبناء اللغة التباهي والتفاخر بذلك الرجل الذي وصفه أحد فلاسفة العصر «بالجبار» في أعماله، لما أنهُ لم يبال قط بالمنايا في ميدان الكفاح العلمي، ولا امتنع عن الكرّ والفرّ وإن علت الأسوار، وعمقت الخنادق. ولو لم يكن غير هذا المشروع لكفاه. فكيف وقد تقدمتهُ تأليفات عديدة وترجمات كثيرة؟ تسبقها وتعقبها ألوف من الخطب، والعظات، ارتجالية كانت، أو غير ارتجالية».

وكان المعلم بطرس رئيسًاللجمعية الخيرية البروتستانية، وعضوًا في عمدة الكنيسة الإنجيلية في بيروت. وتعين عضوًا فخريًا في المجمع الديني الأعلى في الولايات المتحدة. وسمي عضوًا في «الجمعية العلمية السورية» سنة ١٨٥٢، فاعتنى بتنظيم أشغالها. ثم صار عضوًا في «المجمع العلمي الشرقي» آخذاً على عاتقه مراسلة كثيرين شرقًا وغربًا في شؤون علمية.

أما مآثرة الصحافية فهي أشهر من نار عَلَى علم، لأنه أنشأ منفردًا ومتعدًا مع نجله البكر سليم البستاني أربع صحف شهيرة يغني ذكرها عن وصفها وهي: نفير سوريا، والجنان، والجنة، والجنينة. وخلاصة القول إنه كان من أعظم أركان النهضة العلمية في القرن التاسع عشر. بل إنه رفع شأنالآداب العربية بما تركهُ من الآثار الخالدة التي ضفّرت عَلَى رأسهِ إكليل الافتخار. وكان وديعًا لطيف المحاضرة، واسع الاطلاع، مقدامًا عَلَى المشاريع الكبيرة التي يُقدم عَلَى مثلها غيرهُ من أبناء الشرق على اختلاف ألسنتهم ومذاهبهم. وحلت وفاتهُ بين المحابر والأقلام في غرة أيار ١٨٨٣ بالغًا السنة الرابعة والستين من عمر، قضاه في التعليم، والتأليف، وخدمة الوطن. فأبّنهُ الخطباء، وناح عليه الشعراء، ورثته الجرائد بأقوال تدل على سمو منزلتهِ العلمية. وقد الفتت نظرنا قصيدةٌ رنانة للشيخ خليل اليازجي أنشدها بلسان «المدرسة الكلية الأميركانية» تقتطف منها الأبيات الآتية التي نجعلها مسك الختام لترجمة هذا الرجل المفضال:

يا قطر دائرة المعارف والحجى ومحيط فضل فاضَ في إمدادهِ
تبكي العلوم عليك واللغة التي بقريضها ترثيك في أنشادهِ
فإذا المحيط بكاك لم بك دمعهُ دون المحيط يزيد في ازيادهِ
يبكي الحساب عليك متخذاً لهُ دمعًا يسيل عليك من أعدادهِ
تبكي المدارس والجرائد حسرةً والشرق بين بلاده وعبادهِ
خدم البلاد وليس أشرف عنده من أن يُسمى خادمًا لبلادهِ

«٣»

رفاعة بك الطهطاوي

هو السيد رفاعة بك بن بدوي بن علي بن محمد بن علي بن رافع، ويلحقون نسبهم بمحمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن فاطمة الزهراء.

ولد في طهطا بمديرية جرجا من صعيد مصر سنة ١٢١٦ هجرية، (١٨٠١ ميلادية). ويؤخذ مما كتبهُ عن نفسه في رحلتهِ التي ستأتي ذكرها أن أجداده كانوا من ذوي اليسار، وأخنى الدهر عليهم وقعد بهم كما هو شأنه في بني الزمان. فلما ولد المترجم كانت عائلتهُ في عسر، فسار بهِ والده إلى منشأة النيدة بالقرب من مدينة جرجا. وأقام بين قوم كرام يقال لهم بيت أبي قطنة من أهل اليسار والمجد.

فأقاما هناك مدة، ثم نزحا إلى قنا ولبثا بها حتى ترعرع الغلام فأخذ يقرأُ القرآن. ثم نقل إلى فرشوط وأخيرًا عاد إلى طهطا، وكان قد حفظ القرآن. وقرأ كثيرًا من المتون المتداولة على أخواله، وفيهم جماعة كبيرة من العلماء الأفاضل؛ كالشيخ عبدالصمد الأنصاري، والشيخ أبي الحسن الأنصاري، والشيخ فراج الأنصاري وغيرهم.

ثم توفي والده فجاء رفاعة إلى القاهرة، وانتظم في سلك الطلبة بالجامع الأزهر سنة ١٢٢٣هـ. وجاهد في المطالعة والدرس جهادًا

حسنًا حتى نال من العلم شيئًاكثيرًا. ولم تمض عليه بضع سنين حتى صار من طبقة العلماء والأعلام في الفقه، واللغة، والحديث، وسائر علوم المعقول. وكان في جملة مَن تلقى العلم عليهم من العلماء الشيخ حسن العطار المتوفي سنة ١٢٥٠هـ شيخ الجامع الأزهر. فأحب صاحبَ الترجمة، وميزه عن سائر أقرانهِ التلامذة، وخصهُ بالتقرب منه لما آنس فيهِ من الذكاء والاجتهاد، فكان يتردد إلى منزل الشيخ يأخذ عنهُ بعض العلوم، أو يستشيره في أمر، أو ما شاكل ذلك. وقضى صاحب الترجمة بمجاورة الأزهر زهاء ثماني سنوات. وكان كما قدمنا في عسر، وكانت والدته تنفق عليه بما تبيعهُ من بقايا حليها ومصاغها. فلما أتم دروسه تعين سنة ١٢٤٠هـ إمامًا في يعض آلايات الجند براتب يساعده على القيام بأَود حياته.

وكان ذلك العصر زاهيًا بالمغفور له محمد علي باشا مؤسس العائلة الخديوية الكريمة. وكان رحمهُ الله آخذًا في مشروعاته تعزيزًا لشأن هذا القطر السعيد، وفي جملتها نشر العلوم. فأحب أن يرسل جماعة من شبان هذا القطر إلى أوربا لتلقي العلوم الحديثة؛ ليكونوا له أعواناً في فتح المدارس، وبث تلك العلوم في أبناء البلاد. فأمر بتعيين صاحب الترجمة إمامًا لهم للوعظ والصلاة. فسارت الإرسالية المشار إليها من مصر سنة ١٢٤١؛ وهي أول إرسالية مصرية إلى فرنسا. فتاقت نفس المترجم إلى علوم المغرب؛ فعكف عَلَى درس اللغة الفرنساوية من تلقاء نفسهِ؛ رغبةً منه في تحصيل العلوم بها، أو نقله منها إلى العربية لعله يتخلص من مهنة الإمامة. وكان معظم درسه اللغة بنفسه، فلم يتقن التلفظ بها،ولكنهُ تمكن

من فهم معانيها فهمًا جيدًا. وأخذ يطالع العلوم الحديثة فأتقن التاريخ، والجغرافيا، وعلومًا أخرى. وكان ميالاً إلى التأليف والترجمة، فترجم وهو في باريس كتابًا سماه «قلائد المفاخر في غرائب عوائد الأوائل والأواخر» وغيره. فبلغ المغفور له محمد علي باشا ما أظهره السيد رفاعة من النباهة والرغبة في العلم من تلقاء نفسه، فسرَّ بهِ سرورًا عظيمًا، واستبشر بطالعه.

وفي سنة ١٢٤٧هـ عاد رحمه الله إلى الديار المصرية بعد أن نال الشهادات الناطقة بدرجته من العلم والفضل. فولّاه محمد علي منصب الترجمة في المدرسة الطبية التي كان أنشأها سنة ١٢٤٢ في قرية «أبي زعبل» قرب القاهرة برئاسة كلوت بك الشهير. وكان متوليًا رئاسة الترجمة بها قبله المرحوم يوحنا عنحوري من أبناء سوريا، وله فيها خدمات جليلة، وشهد لصاحب الترجمة بقصب السبق فولَّوه الترجمة. وعمل عَلَى خدمة البلاد ولاسيما وأن عارفي اللغات الأجنبية إذ ذاك كانوا يعدُّون عَلَى الأصابع. ومما يُعدُّ له فضلاً جزيلاً أنه أول من باشر أنشأء جريدة عربية في سائر المشرق وهي «الوقائع المصرية»؛ فإنها أُنشئت بمساعيه ومساعدته سنة ١٢٤٨، ولا تزال إلى الآن وهي الجريدة الرسمية المصرية.

وفي سنة ١٢٤٩ انتقل من مدرسة «أبي زعبل» إلى مدرسة الطوبجية في «طرا» لترجمة الكتب الهندسية، والفنون العسكرية. وفي سنة ١٢٥١ افتتح المغفور له عزيز مصر مدرسة للألسن الأجنبية، وعهد

بإدارتها إلى صاحب الترجمة، وسميت عند فتحها مدرسة الترجمة. فقام الشيخ رفاعة إذ ذاك حق القيام بإدارة هذه المدرسة، واختار لها التلامذة من مدارس الأرياف بسائر جهات القطر. فبلغ عدد تلامذتها في أول الأمر خمسين تلميذًا، ثم زاد حتى صار ٢٥٠ تلميذًا. وكان في أبي زعبل مدرسة تجهيزية للطب فنقلت إلى جهات الأزبكية. فعهدت إدارتها إليهِ فضلاً عن مدرسة الألسن ومدارس أخرى فرعية منها مدرسة للفقه والشريعة، وأخرى للمحاسبة، وأخرى للإدارة والأحكام الإفرنجية.

وفي سنة ١٢٥٨ تشكل قلم للترجمة من أول فرقة خرجت من مدرسة الألسن. وبعد سنة ونصف من تشكيله نال رتبة قائم مقام، وكان قد نال ما يتقدمها من الرتب تدريجيًا في أوقات متتابعة. وفي سنة ١٢٦٢ نال رتبة أمير آلاي، فصار يدعى رفاعة بك بدلاً من الشيخ رفاعة.

وما زال رفاعة بك ناظرًا لمدرسة الألسن حتى أقفلت على عهد المغفور له عباس باشا الأول؛ فأمر بإرساله إلى السودان لنظارة مدرسة الخرطوم. وما زال هناك حتى توفي عباس باشا المشار إليه سنة ١٢٧٠هـ، وتولى المرحوم سعيد باشا. فعاد يشكر الله على نجاته من تلك الأقطار، فمثل بين يدي سعيد باشا فعهد إليهِ سنة ١٢٨١ وكالة مدرسة الحربية بجهات الصليبة تحت رئاسة المرحوم سليمان باشا الفرنسوي. وبعد قليل أُنشئت مدرسة الحربية بالقلعة، فأحيلت إليه

نظارتها من نظارة قلم الترجمة، ومدرسة المحاسبة، والهندسة، والملكية، والتفتيش، والمعمارجية. وعند ذلك نال الرتبة الممايزة.

وفي سنة ١٢٧٧ ألغيت كل هذه المدارس فبقى رفاعة بك بغير منصب إلى سنة ١٢٨٠، فأُعيد إلى نظارة قلم الترجمة. وتعين عضوًا من قومسيون المدارس وتولى إدارة جريدة «روضة المدارس» مع مثابرته عَلَى التأليف. وما زال قائمًا بهذه المهام حتى توفاه الله سنة ١٢٩٠هـ (١٨٧٣ ميلادية) بداء النزلة المثانية، وله من العمر ٧٥ سنة. وقد ملأَ الديار المصرية من المترجمين، والأساتذة، والمهندسين، وغيرهم ممن استفادوا من مؤلفاته وتعاليمه. وقد اطّلعنا عَلَى كتابٍ خطي اسمهُ: «حلية الزمن بمناقب خادم الوطن» تأليف صالح بك مجدي عدَّد فيهِ مناقب صاحب الترجمة، وعنه أخذنا معظم ما ذكرناه هنا. وقد ذكر فيهِ أيضًاعددًاكبيرًا من الذين أخذوا العلم منهُ، ونبغوا، واشتهروا، وذكر مناصبهم، ووظائفهم، وأعمالهم مما لا محل لذكره هنا.

وكان رحمهُ الله قصير القامة، واسع الجبين، متناسب الأعضاء،أسمر اللون، حازمًا مقدامًا على ذكاء وحدَّة، وهذا ما نهض به من حضيض العسر إلى مراتب المجد والفخر، حتى أصبح ممن يشار إليهم البنان، ويقتدي بأعمالهم بنو الإنسان. وكان في أوائل حياته إلى أن عاد إلى الديار الإفرنجية يلبس اللباس العربي الخاص من الجبة، والعمامة، والقفطان، كما ترى رسمه في هذه المقالة، ثم بدّله باللباس الإفرنجي المشهور. ونختم ترجمة حاله بذكر مؤلفاته الواحد بعد الآخر

مع وصفها بقدر الإمكان: (١) «خلاصة الابريز والديوان النفيس»؛ وهو رحلته إلى فرنسا، ذكر فيهِ ما شاهده من العادات، والأخلاق، والأزياء، وآثار التمدن الحديث، وكل ما يتعلق بذلك. ثم أمر بطبعها وتفريقها في الدواوين بين الوجهاء والأعيان. (٢) «التعريبات الشافية لمريد الجغرافية»؛ وهو مجلد ضخم ترجمهُ من الفرنساوية إلى العربية لتدريس الجغرافية في المدارس المصرية. وقد طُبع غير مرة في مجلد كبير. (٣) «جغرافية ملطبرون»؛ وهو كتاب مؤلف من عدة مجلدات كبيرة يبحث في الجغرافية بحثًا تاريخيًا مطوَّلاً. ترجم منه المؤلف أربعة مجلدات كبيرة طبعت في مطبعة بولاق، ويظهر من مطالعتها أنه ترجمها على عجل. والواقه يؤّيد ذلك لأننا علمنا أنه ترجم مجلداً منها في ستين يومًا سنة ١٢٦٥ هجرية. (٤) كتاب «قلائد المفاخر في غريب عوائد الأوائل والأواخر» ترجمهُ في باريس وقد تقدم ذكره. (٥) كتاب «المرشد الأمين في تربية البنات والبنين» وهو مجلد واحد ألفهُ للتعليم في مدرسة البنات. (٦) كتاب «التحفة المكتبية» في النحو، ألفهُ لتعليم قواعد النحو في المدارس الابتدائية مطبوع طبع حجر. (٧) «مواقع الأفلاك في أخبار تليماك» وهو تعريب وقائع تليماك الفرنساوية، ترجمه يوم كان في الخرطوم مع بعض التصرف وهو مطبوع في بيروت. (٨) «مباهج الألباب المصرية في مناهج الألباب المصرية» وهو بحث عن آداب العصر. وسياسته. وصنائعه. وعلومه. وفنونه. ومطبوع بمطبعة بولاق الأميرية. (٩) «مختصر معاهد التنصيص» وهو اختصار المعاهد مع بعض الزيادات إلى الأصل ولم يطبع. (١٠) «المذاهب الأربعة» وهو

بحث في المذاهب الأربعة ألفهُ أثناء رئاسته لمدرسة الألسن. (١١) «شرح لامية العرب». (١٢) «القانون المدني الإفرنجي» مطبوع. (١٣) كتاب «توفيق الجليل وتوثيق بني إسماعيل» وهو تاريخ لمصر طبع ونُشر. (١٤) كتاب «هندسة ساسير» ترجمةُ من الفرنساوية إلى العربية، وقد طبع ببولاق. (١٥) «رسالة في الطب». (١٦) «جمال الاجرومية» وهو منظومة سهلة في الاجرومية (مطبوعة). (١٧) «نهاية الايجاز في سيرة ساكن الحجاز» وهو آخر مؤلفاته طبع في روضة المدارس بمطبعة المدارس الملكية.

وله رحمه الله غير ما تقدم ذكره من المآثر العلمية بين منظومات، ورسائل، ومقالات شيء كثير لم يطبع، وقد وقفنا على بعضه. وأما خدماته في التعليم والتهذيب فغنية عن البيان. ويقال بالإجمال أن رفاعة بك رافع خدم خدمة كبرى في نشر العلوم الحديثة بنقلها إلى الللغة العربية، وتسهيل تناول اللغات الأجنبية بمدرسة الألسن وقلم الترجمة وغيرهما.

جرجي زيدان

«٤»

أحمد فارس الشدياق

هو فارس بن يوسف بن منصور بن جعفر بن فهد الشدياق، من سلالة المقدم رعد بن المقدم خاطر الحصروني الذي تولى جبل كسروان سبعًا وثلاثين سنة في أوائل القرن السابع عشر.

وُلد سنة ١٨٠٤ في عشقوت بلنان من أسرةٍ مارونية، تتسلسل منها فروع عيال شهيرة اتحفتنا برجال عظماء خدموا العلم والوطن. وحسبنا أن نذكر منهم السيد يوسف سمعان السمعاني صاحب «المكتبة الشرقية »، وسائر العلماء السمعانيين. ومنهم المطران جرمانس فرحات الحلبي الطائر الشهرة، ثم البطاركة الموارنة يعقوب عوَّاد، وسمعان عوَّاد، وبولس مسعد، ويوحنا الحاج، وغيرهم من المطارنة والكتبة. ومن عائلته اشتهر أخوه أسعد، وأخوه الآخر طنوس مؤَلف كتاب «أخبار الأعيان في جبل لبنان»، وأخيرًا سليم فارس الشدياق ابن صاحب الترجمة.

لما بلغ فارس من العمر أشدَّه تلقى الآداب العربية والسريانية في مدرسة «عين ورقة» فنال قصب السبق عَلَى أقرانه. وبعد ذلك سافر إلى القطر المصري فكتب في جريدة «الوقائع المصرية»، وأكبَّ على اتقان اللغة العربية حتى صار من أكبر جهابذة عصره فيها. ثم دعاه المرسلون الأميركان سنة ١٨٣٤ إلى جزيرة مالطة حيث عهدوا إليهِ إدارة مطبعتهم، وتصحيح مطبوعاتها. فأقام عندهم ١٤ سنة، وعلم في مدارسهم، ثم تبع

مذهبهم البروتستنتي. وطبع هناك كتبًا شتى من تآليفه وهي: «الواسطة في معرفة مالطة»، ثم كتاب «اللفيف في كل معنى طريف»، ثم «الباكورة الشهية في نحو اللغة الانكليزية»، وأخيرًا «المجاورة الإنسية في اللغتين العربية والانكليزية». ثم جال مدة عشر سنين في أوروبا وهو محافظ عَلَى لباسه الوطني، ولم يغير منه شيئًا. وعرَّب حينئذٍ «ترجمة التوراة»، وصنف كتابين أحدهما «كشف المخبأ عن فنون أوروبا»، والآخر «الساق على الساق في ما هو الفرياق» طبع في باريز. والفارياق لفظ مقتطع من اسمه فارس الشدياق. وبعد ذلك كلفهُ باي تونس إلى…

أحمد فارس الشدياق

(هو فرس الشدياق عينُ زمانه	مَن كان في نكتِ البلاغةِ أَوحدا)
(جابت «جوائبهُ» البلاد بارها	وغدت لها غُزرُ المعاني سُجدَّدا)
(عرفَ الجميعُ علوَّ رتبةِ علمهِ	وبفضلهِ اعترفَ الأَحبةُ والعِدى)

خدمة مملكته وأرسل له سفينة مخصوصة لتنقلهُ إلى بلاده؛ فلبى الدعوة، وهناك ترك مذهب البروتستنت وتبع دين الإسلام، وصار يُعرف بالشيخ أحمد فارس الشدياق.

وفي السنة ١٨٥٧ اتخذ الأستانة محلاً للسكن؛ فأنشأ فيها بعد ثلاث سنين جريدة «الجوائب» التي سبق وصفها. ثمَّ ألف كتبًا شتى مبتكرة في بابها نذكر منها: كتاب «سر الليال في القلب والإبدال» في مجلدين، وهو يحتوي على تبيين معاني الألفاظ، واتساق وضعها. ثم

كتاب «الجاسوس عَلَى القاموس» الذي انتقد فيهِ قاموس الفيروزابادي. وكتاب «المرآة في عكس التوراة» لم يزل غير مطبوع، وهو يشتمل عَلَى أكثر من سبعمائة صفحة كبيرة. وكتاب «لا تأويل في الإنجيل» لم يزل غير مطبوع أيضًا. وكتاب «الأجرومية»، وكتاب «النفائس في أنشاء أحمد فارس»، وكتاب «الروض الناضر في أبيات ونوادر»، وكتاب «غنية الطالب ومنية الراغب» في الصرف والنحو، وكتاب «السند الراوي في النحو الفرنساوي»، وكتاب «منتهى العجب في خصائص لغة العرب» اتلفه الحريق قبل أن يُطبع. وله ديوان شعر كبير الحجم، بحيث إنهُ أعظم من كتاب الجاسوس. وكتاب «السلطان بخشيش» مع ترجمته للمسيو أرنو الترجمان الأصلي. وكتاب «التقنيع في علم البديع» وغيرها. وله أيضًا عدة رسائل أدبية وردود عَلَى انتقادات الشيخ إبراهيم اليازجي اللغوية. وبهمتهِ برزت من مطبعة الجوائب كتب شتى قديمة في التاريخ، والشعر، والأدب، والمنطق، والفقه استخرجها من مكاتب الأستانة وغيرها. ولا غرابة في ذلك، فإنهُ كان أشهر من نارٍ على علَم بمآثره العلمية التي تنطق بأفصح بيان عما اتصف به من سمو المدارك، وسعة المعارف، ومضاء العزيمة في إحياء اللغة العربية. وقد وردَ وصف قلمه في كتاب «تراجم مشاهير الشرق» فنقلنا عنه الفقرة الآتية:

«امتاز المترجم بإتقان فنّي النظم والنثر، والإجادة في كليهما. فتراه إذا نظم، أو نثر إنما يفعل ذلك عن سعة وارتياح كأنهُ وعي ألفاظ اللغة في صدره، وأخذ عليها عهدًا أن تأتيه صاغرة حالما يحتاج إليها. فإذا خطر له معنى، سبكهُ في قالب من اللفظ، لائق بهِ بغير أن يتكلف في

ذلك مشقة أو تردُّدًا. فترى كتاباته طلية طبيعية ليس فيها شيء من التكلف، أو التقعر عَلَى كونها بليغة فصيحة. والسبب في ذلك حدة ذهنه، وقوة ذاكرته، وسعة اطلاعه، وكثرة محفوظهِ مع حرية قلمهِ. وكان يطلق لقلمه العنان غير محاذر. وأظنه السبب فيما نراه ببعض مؤَلفاتهِ من المجون الذي تنفر منه طباعنا وتمجه أذواقنا؛ عَلَى أن المجون إذا لم يتجاوز حدة كان أحماضًا، أو هو بمثابة الملح للطعام. وذلك كثير في كتابات المترجم مما يرغب المطالع في المطالعة فلا يمل منها وإن طالت. ومن خصائص كتابة الشيخ أحمد فارس السلاسة، وارتباط المعاني بعضها ببعض، وانتساقها مع التوسع في التعبير، وتتبع الموضوع إلى جزيئاتهِ مع مراعاة الموضوع الأصلي والعود إليه. وترى ذلك واضحًا في كتبه «كشف المخبأ»؛ فإذا أراد وصف عادة من عادات أهل باريس مثلاً فإنهُ يتطرق منها إلى ما يماثلها من عادات العرب أو الأتراك، فيذكر وجه الخطأ هنا أو هناك، وما هو سبب هذه العادة. وربما جاء بتاريخها ومن جاء بها حتى يخال لك أنهُ خرج عن الموضوع، ثم لا تشعر إلاَّ وقد عاد بك إليهِ بغير تكلف. وكل ذلك بغاية السلاسة، والطلاوة مع البلاغة. وترى في مؤلفاتهِ كثيرًا من الألفاظ العربية جاء بها للتعبير عن معانٍ حديثة إفرنجية لم تكن عند العرب، وهي في الغالب تدل عَلَى حسن اختياره. ومن الأدلة عَلَى اقتداره في التعبير؛ أنهُ مغالٍ، فإذا مدح بلغ ممدوحه عنان السماء، وإذا هجا أنزل مهجوه دركات الجحيم. وترى كتاباته عَلَى بلاغتها وحسن سكبها تتجلى فيها البساطة والسهولة، كأَن كاتبها كان

يكتب كل ما يمر بذهنهِ على غير تكلف، أو مراعاة لخطة الكتاب قبله، وهو استقلال في الرأي واعتماد على النفس».

ولم يفترض عن معاناة العلوم، والمطالعة، والتأليف حتى ضعف بصره، وأَثقلت الشيخوخة كاهله. فأَوقف الجريدة وهبط مصر سنة ١٨٨٥ حيث أكرم الوزراء، والعلماء وفادته، وأثناء إقامته هناك نال شرف المثول لدى الخديوي توفيق الأَوَّل الذي أثنى عَلَى خدمه الطويلة في سبيل إِعلاء شأن اللغة العربية. ثمّ عاد إلى القسطنطينية ولم يفارقها حتى حلَّ به القضاء المحتوم في ٢٠ أيلول ١٨٨٧، ورثتهُ جرائد الشرق والغرب بما يستحقهُ من الثناء. وبعد تسعة أيام شُيّعت جثتهُ من الأستانة لتُنقل إلى جبل لبنان مسقط رأسهِ. فجرى له مشهد فخيم اشترك فيهِ وزراء السلطنة، وسفراء الدول الأجنبية، والأمراء، والعلماء، والأطباء، والتجار، والأعيان، وأرباب الجرائد. وقد دُفنت جثته في الحازمية بغاية التعظيم والتكريم إلى جانب قبور المتوفين من حكام جبل لبنان. وقد جمع يوسف آصاف في كتاب عنوانه «هو الباقي» ترجمة الفقيد مع بعض ما ورد في رثائهِ من أقوال الجرائد، وقصائد الشعراء التي أجمعت آرائها على إِكبار الخطب بفقدهِ. فمن ذلك ما كتبته جريدة «الوطن» في القاهرة:

«فالجرائد العربية بهدْيهِ اهتدت، وبمثاله اقتدت... فكان كالبحر الزاخر الذي لا أوَّل لهُ ولا آخر، بل كان آية من آيات الله الكبرى في نثره، ونظمهِ، وتآليفهِ، وتصانيفه».

وإليكَ فقرة من جريدة «الاجيبسيان غازت» في القاهرة أيضًا:

«وللفقيد جملة رحلات في أوروبا، وتونس، والجزائر مع عدة تآليف غرَّاء فريدة في بابها. وكان عزيزًا بين قومه محبوبًا لدى العظماء، مقرّبًا من الملوك والأمراء. فكانوا يقدمون له أنفس الهدايا، وأسمى النياشين الافتخارية. وقد أنشأ الجوانب في الأستانة العليا متوليًا تحريرها؛ فنال أعظم شهرة في حسن التعبير، والتحبير، وبلاغة الإنشاء، وفصاحة العبارة. وأحرزت الجريدة بذلك أهمية ما نالها قط جريدة عربية لا قبلها ولا بعدها. ولا شك أننا بفقد هذا العلاَّمة العظيم فقدنا أعظم ركن للأدب».

وكان لأحمد فارس مراسلات مع عظماء العالم وملوكها. وقد وجدوا بين أوراقه بعد وفاته مئات من هذه الرسائل التي تدل على علو منزلتهِ، وسعة معارفهِ، واشتهار صيته. ومما يؤخذ عليهِ إطاله لسانه وقلمه في حق الذين ناظروه من جهابذة العلم أثناء مجادلاتهِ معهم كما أثبتنا ذلك عندما ذكرنا أخبار جريدة «الجوائب».

«٥»

«الكونت رُشيد الدحداح»

(فتاهــت أرضُ بــاريسَ افتخــارًا وعـزَّت إذ حـوت شـهيمًا هماما)

(غــدا فــي تربهــا كنــزًا دفينًــا وجـاور فـي الثـرى قومًـا فخاما)

(فقلــتُ مؤرخًــا ذاكــراهُ تــوًّا إلـى بـاريسَ احمـلْ لـي سـلاما)

لأسرة الدحداح شهرة بعيدة في جبل لبنان، ويرتقي أصلها إلى جدّها الأعلى الشيخ جرجس الذي كان مقترنًا بابنة غزال القيسي الماروني مقدم العاقورة في الربع الثالث من القرن الرابع عشر. وإلى هذه الأسرة ينتمي صاحب الترجمة الذي نذكر هنا أخباره باختصار فنقول:

هو الشيخ رُشيد بن الشيخ غالب بن الشيخ سلوم بن الشيخ موسى بن الشيخ يوسف بن الخوري جرجس بن الخوري يوسف بن الخوري ميخائيل بن الشيخ جرجس الدحداح، وُلد سنة ١٨١٣ في عرامون إحدى قرى كسروان من جبل لبنان. ثم أرسله أبواه إلى مدرسة «عين ورقة» حيث دخل مدرسة بزمار للأرمن الكاثوليك، فاشتغل في تحصيل اللغة التركية وبرع فيها.

وسنة ١٨٣٨ عينه الأمير بشير الكبير حاكم لبنان كاتبًا لأسراره، فلبث في هذه الوظيفة حتى خُلع الأمير ونُفي من الجبل. وسنة ١٨٤٣ ذهب إلى صيدا فانصبَّ على درس الشريعة الإسلامية إلى أواخر عام ١٨٤٥، بحيث سافر إلى مرسيليا وتعاطي فيها التجارة اثنتي عشرة سنة. ثم رحل مع عائلتهإلى باريز واقفًا نفسهُ عَلَى خدمة الآداب العربية التي برز فيها علمًا، وعملاً؛ فنال القدح المعلى، ومن مآثره الأدبية أنه نشر بالطبع شرح ديوان الشيخ عمر ابن الفارض في نحو ستمائة صفحة. ثم أنشأ في اللغتين العربية والفرنسية جريدة «برجيس باريس أنيس الجليس» التي شحنها بالمقالات الرنانة في السياسة، والتاريخ، واللغة، والأدب؛ فذاعت شهرتها شرقًا وغربًا. وعرَّب رسالةً عنوانها «كتاب التمثال

السياسي» بقلم المسيو دي لاكيرونيار أحد وزراء فرنسا في عهد نابليون الثالث. وطبع كتاب «طرب المسامع في الكلام الجامع» الذي جمع فيهِ أشعارًا لأشهر شعراء العرب. ونشر في مرسيليا بمعاونة الشيخ سمعان ابن عمه معجمًا عربيًا للمطران جرمانس فرحات بعد أن هذبه، ورتبهُ، وأصلح ما فيهِ من الأغلاط. فأطنب في مديحهِ المجمع العلمي الفرنسي «L'Académie Française» وأحسن صلته. ثم ألّف كتاب «قمطرة طوامير» الذي طبع أولاً في (فينا)، وثانيًا في باريز، وقد ضمنه مقالات لغوية وفوائد أدبية. ونشر كتاب «فقه اللغة» في باريس لأبي منصور الثعالبي. وألف كرَّاسة في فن المناظرات سماها «ترويح البال في القلم والمال» لم تُنشر بالطبع. ومن مؤَلفاتهِ التي لم تزل مخطوطة: ديوان شعر وكتاب «السيار المشرق في بوار المشرق» وهو تاريخ كبير في مجلدات شتى. وله غير ذلك من المناظرات الأدبية، والمقالات اللغوية، والمراسلات نثرًا وشعرًا التي جرت بينه وبين فطاحل اللغة العربية: كالأمير عبدالقادر الحسيني الجزائري، والشيخ ناصيف اليازجي، وأحمد فارس الشدياق، والشيخ محمود قبادو التونسي، وغيرهم.

وفي خلال سنة ١٨٦٢ -١٨٦٤ حضر باي تونس إلى فرنسا فتقرَّب إليهِ صاحب الترجمة، وساعده على قرض مالي بشروط موافقةٍ جدًا لم يكن ليرجوا الباي الحصول عَلَى بعضها. لاسيما وأنَّ الثقة بمالية المملكة التونسية وإدارتها كانت مفقودة في ذاك العهد. فسرَّ الباي من مساعي الشيخ رُشيد وكافأه بمبلغ عظيم على سبيل الهدية تقديرًا لصدق

خدمته. وقد مدح المترجَم باي تونس بقصيدة لامية ذات ٨٣ بيتًاأورد فيها معلقة كعب بن زُهير وهذا مطلعها:

بانــت ســعاداتنا والفــتحُ مكفــولُ   باسم المليك فلا تهليك عطبولُ

وفي سنة ١٨٦٧ منحه البابا بيوس التاسع لقب بانت سعاداتنا واكونتيتسلسل في ابكار أنجاله الذكور من بعده. ثم شملت هذه النعمة جميع أبناء الكونت رُشيد وسلالتهم من بعدهم. وسنة ١٨٧٥ ابتاع عَلَى ساحل بحر المانش في شمال فرنسا قريةً صغيرة تدعى دينار«Dinar» مع الأراضي المجاورة لها، فأنشأ فيها بلدةً تعدُّ من أنظم البلدان، وأحسنها موقعًا، وأجودها مناخًا. وهي الآن إحدى المرافئ المعدودة في فرنسا بحيث اتصلت بها السكة الحديدية وصارت مصيفًا لأغنياء الانكليز وسواهم الذين يقصدونها لقضاء فصل الحر. ثم شيد فيها قصرًافخيمًادعاه «قصر الضفتين»، وفي اللغة الفرنسية « château des deux rives»، وأَقام فيهِ عَلَى سعة العيش مع أولاده وأحفاده. وتصرَّم حبل حياتهِ في ٥ أيار ١٨٨٩ بالغًا السنة السادسة والسبعين من عمرٍ قضاه في مزاولة العلم، والمساعي المبرورة، والأعمال المشكورة.

«٦»

(خليل الخوري)

هو خليل جبرائيل بن يوحنا بن ميخائيل بن عبده الخوري، أَبصر النور في ٢٨ تشرين الأول ١٨٣٦ في الشويفات من أعمال جبل لبنان.

وبعد زمن قليل انتقل والده إلى بيروت، فتلقى المترجم أصول اللغة العربية في مدرسة الروم الأرثوذكس، وزاولها حتى أتقنها. ثم تعلم اللغتين التركية والفرنسية عَلَى أساتذة مخصوصين، فأجاد فيهما. وفي غرَّة كانون الثاني ١٨٥٨ أنشأ صحيفة «حديقة الأخبار»، فكانت أول جريدة عربيةصدرت برخصة رسمية من طرف الحكومة العثمانية خارجًا عن عاصمة السلطنة. ولهذا كان خليل الخوري من أخص رجال النهضة الأدبية في سوريا في القرن التاسع عشر بما وضعهُ من التآليف، أو نشره عَلَى صفحات جريدته من النبذ المفيدة والمباحث المختلفة. وقد نظم الشعر منذ حداثته، فنبغ في هذا الفن كما شهد له بذلك الشيخ ناصيف اليازجي في قصيدة مدحه بها وختمها بالبيتين المنشورين تحت رسم صاحب الترجمة وهما هذان:

يا هلالاً قد أرانا ... في الدُجى وجهًا جميلا
سوف نلقى منك بدرًا ... كاملاً يُدعى خليلا

وخلّف صاحب الترجمة ستة دواوين شعرية في مواضيع مختلفة، بلغ مجموع أبياتها ١٠٨٧٤ بيتًا، وهي: أولها: «زهر الربى في شعر الصبا»، وثانيها:«العصر الجديد»، وثالثها:«السمير الأمين»،ورابعها: «الشاديات»، وخامسها: «النفحات»، وسادسها: «الخليل»، والأخير وحده لم يُطبع. وهنا ننقل عن «مجلة النور[1]» المطبوعة في الإسكندرية

[1]سنة ٣: عدد ١٨- ١٩ لمديرها فارس مشرق ومحررها داود مجاعس

ما كتبهُ جرجي بن نقولا باز صاحب مجلة «الحسناء» في وصف شعر المترجم قال:

«نظم الخليل الشعر في أربعة أدوار حياته؛ فتًا، وابأً، وكهلاً، وشيخًا. وشِعرهُ طبيعي منسجم في غاية الرقة، والطلاوة، والسلاسة حتى جازت تسميته بالسهل الممتنع. وجلُّ ما تناوله من المواضيع الغزل، والمديح، والتهنئة، والرثاءُ. وله تواريخ أبجدية عديدة ضمَّ بعضها إلى ما طبع من منظوماته. وامتاز بمدح جلالة السلاطين العظام، ووصف رجال الدولة، وبيان عظمة السلطنة حتى دُعي بحقٍ «شاعر الدولة». وبمناسبة بعض قصائده نال الوسام المجيدي، وبُلغ المحظوظية السلطانية بإرادة سنية عدَّة مرات. وقد ترجم بعض أشعاره إلى اللغة الفرنسية المسيو رينو رئيس «الجمعية الأسيوية» في باريز، ونشرها في مجلة الجمعية، ونشر بعضها في جريدة «الديبا»، وغيرها من صحف الفرنسيس المعتبرة. وكتبت عنهُ جريدة الديبا وقرَّظت بعض قصائده؛ كالعنّاب والرمْان،وغيرهما. وتُرجمت قصيدته «الزيارة القدسية» التي قدمها إلى إمبراطور النمسا حينما زار القدس إلى اللغة النمسوية، ونشرت في جريدة «فينيرا باندا بوسط». وكتب عنه (لامرتي)ن الشاعر الفرنسي مقالات أذاعت فضله في أوروبا. ويقال إنه نظم له بعض قصائده المترجمة ونشرها، وكان بينهما صداقة ومراسلة. ومثلها كان لشارعنا مع كثير من شعراء الترك، والفرس، والعرب. وكتبت مرةً عن شعره وسيرتهِ جريدة «المورنن بوست» الانكليزية. وقد كان بالإجمال شاعرًا مطبوعًا، سيال القريحة، واسع الخيال، لطيف المعاني، رقيق الغزل، مكثرًا من النسيب

وإيضاح خفايا الحب، ووصف وقائع المحبين حتى سمي «قيس زمانه وجميل عصره»، وعُدَّ من مشاهير شعراء العرب الممتازين بالوصف الغرامي. وما خلا شعرهُ من لمحات فلسفية وردت في بعض قصائده. وقد عزَّز الشعر بعدم استخدامهِ إياه وسيلةً للاستجداء وجنى المال. ومما يروى عنهُ أنهُ عندما زار سوريا سعيد باشا خديوي مصر في سنة ١٨٥٩ مدحه قصيدته «السعادة»، بل كتب في حديقته أنهُ نظمها إظهارًا لاحساساته، لا طمعًا بالمال. لعلمهِ أنهُ جاء الوقت الذي يجب فيهِ أن لا تكون كلمة «شاعر» مرادفًا لكلمة «متسول»، واقتدى بهِ وقتئذ الشاعر أسعد طراد. ولذلك اشترك الخديوي بخمسين نسخة من الحديقة بكل سرور وإعجاب».

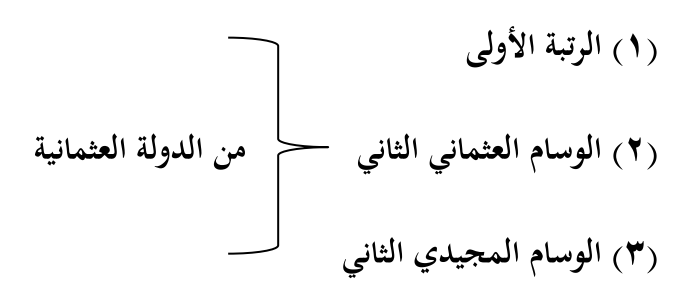
وله غير ذلك كثير من الآثار الأدبية التي نورد منها: (١) «النعمان وحنظلة»: وهي رواية تمثيلية. (٢) «وَي إِذَنْ لستُ بإفرنجي»: هو كتاب أخلاقي وضعهُ على أسلوب القصة وضمنهُ انتقادًا دقيقًا على الأخلاق والعادات، مع ملاحظات لطيفة على المتنبي، و(الفنسن دي لامرتين). (٣) «خرابات سوريا»: خطاب ألقاهُ في ١٥ آذار ١٨٥٩ في الجمعية العلمية ببيروت.(٤) «تاريخ مصر»: وضعهُ بإيعاز من سعيد باشا خديوي مصر، وهو غير مطبوع. فأتمه سنة ١٨٦٤ وقدَّمه للخديويإسمعيل الذي أجازه عليهِ بألفي جنيه. (٥) «النشائد الفؤادية»: يتضمن ترجمة فؤاد باشا الصدر الأعظم مع القصائد التي نظمها له المؤلف. (٦) «تكملة العِبر»: عرَّبه عن كتاب تاريخي وضعه في اللغة التركية صبحي باشا والي سوريا سابقًا. وهو تتمة لتاريخ ابن خلدون، ويتضمن اقتسام قواد

الإسكندر الكبير ممالكه بعد وفاته. (٧) «الدولة العثمانية في الماضي، والحال، والاستقبال»: هو خطاب فرنسيٍ لمدحت باشا نقلهُ صاحب الترجمة إلى اللغة العربية. (٨) «الدستور»: تولى بموجب إرادة سلطانية إدارة ترجمته من التركية إلى العربية بقلم نوفل بن نعمة الله نوفل الطرابلسي. (٩) «الكواكب العثمانية في تاريخ الدولة العلية»: تاريخ شعري منقطع النظير يتضمن منشأَ سلاطين آل عثمان وعلو شأن دولتهم. وقد انتهى بهِ إلى أواخر عهد السلطان محمود الثاني. وهو من بحر واحد وقافية واحدة، وفيهِ ما يزيد عَلَى ٣١٠٠ بيت. (١٠) مقتطف تاريخي من كتاب «روضة الأوائل والأواخر» لابن الشحنة.

وانفرد بعدم الاستجداء بشعره عن سائر شعراء عصره كما سبف القول. ولكنه نال عدة جوائز مهمة أتحفه بها الملوك والعظماء، وهي: خاتم من الماس أنعم بهِ عليهِ إسكندر الثاني قيصر روسيا. وخاتم آخر من الماس أهداه إياه الغراندوق قسطنطين شقيق القيصر المشار إليهِ. وخاتم من الفيروز أكرمه به ملك انكلترا (ادوار السابع). وعلبة من الذهب الإبريز يعلوها أكليل منصع بثلاثة وعشرين حجر من الماس نالها من صادق باشا باي تونس. ومسبحة من المرجان اتحفه بها الصدر الأعظم خير الدين باشا التونسي. وخاتم من الزمرد دائرةُ مرصع بالماس أُهدي له من الغراندوق نقولا. وما خلا ذلك فإنه نال شرف المثول لدى بعض الملوك والأمراء، وراسله كثير من رجال الدولة العثمانية، ومشاهير أدباء العصر.

وبعد فتنة سوريا سنة ١٨٦٠ عينه فؤاد باشا مأمورًا بمعيتهِ. وسنة ١٨٦٥ فوَّضت إليهِ ولاية سوريا إدارة مطبعتها وجريدتها الرسمية بإرادة سلطانية. وسنة ١٨٧٠ تعين مفتشاً للمكاتب غير الإسلامية، ومديراً للمطبوعات في ولاية سوريا، ومفتشًا فخريًا لمدارس جبل لبنان ومطبوعاتهِ. وسنة ١٨٨٠ صار مديرًا للأمور الأجنبية في الولاية المذكورة. ومن مآثره المبرورة أنه أنشأ الجمعية الخيرية الأرثوذكسية في بيروت.

وسنة ١٨٨٧ سافر إلى لندن حيث اقترن في ٤ آب بالسيدة ظافر بنت حبيب نوفل وحفيدة موسى بسترس. وقد جرى لزفافهما احتفال شائق شهدهُ أكارم القوم، ثم جاء العروسان إلى بيروت. وبعد مائة يوم من تاريخ القران المذكور أُصيب الخليل بفقد زوجته التي قصفتها يد المنون في السنة الخامسة والعشرين من عمرها. وفي ٢٦ تشرين الأول ١٩٠٧ فاضت روحه فأُقيم له مأتم عظيم، وأبّنه مطران الأبرشية، وبعض الأدباء والشعراء. وهي السنة التي أتمَّ فيها السنة الخمسين من تأسيس «حديقة الأخبار» القديمة العهد. أما الرتب والنياشين التي أحرزها في حياته فهذه أسماءُها:



(٤) وسام ايزابلاً الكاثوليكية	أسبانيا
(٥) القديسة حنة	روسيا
(٦) تاج بروسيا	بروسيا
(٧) شير خورشيد	أيران
(٨) فرنسيس يوسف	النمسا والمجر
(٩) تاج إيطاليا	إيطاليا
(١٠) موريس ولازار	•
(١١) المخلص	اليونان
(١٢) النسر الأحمر	المانيا

«٧»

(رزق الله حسون)

نشأت أُسرة حسون الأرمنية في بلاد العجم، وقيل في ديار بكر. وقد أشار المترجَم إلى هذا في قوله من قصيدة:

ديـــارُ كـــرجٍ وأرمـــنٍ وطنـــي قبـــل انتقـــال أبـــي إلـــى أخـــر

فجاءَ جدُّها الأعلى وسكن حلب، وولد أولادًا ذهب أحدهم إلى مدينة أزمير. فبقي اسم أولاده أولاً بني حسون، ثم عُرفوا ببني حلب أوغلي (أي أولاد حلب)، وهم فيها بهذا الاسم الأخير إلى عهدنا. وذهب أحدهم إلى الأستانة قبل تغيير اسمهم «حسون»، وبقيت سلالته فيها باسم بني حسون إلى عهدنا. ومنهم نشأَ البطريرك حسونيان (وزيادة الياء والألف والنون من اصطلاحات اللغة الأرمنية).

وكان من رجال الفضل والعلم، ولا تزال بقية أسرتهِ في الأستانة إلى يومنا. وذهب أحد أولاد حسون الجد الأعلى المذكور إلى القطر المصري. أما ولده الإخر فبقي في حلب، ومن أسرته وُلد المترجم نحو سنة **١٨٢٥**؛ فتعلم فيها مبادئ القراءة، واتقن الخط على يد الشيخ سعيد الأسود الحلبي الشهير بجودة خطه. وما ترعرع حتى انتقل إلى دير بزمار وهو دير لرهبنة الأرمن الكاثوليك الأنطونية، وفيهِ مقر الرئيس العام وموقعه في ساحل كسروان من أعمال لبنان. فدرس العلوم اللاهوتية، واللغات الفرنسية، والتركية، والأرمنية، والعربية، والعلوم الرياضية. وكان

نابغة في جودة حفظه وذكائه، حتى أنه نظم الشعر وهو تلميذ. وذلك أنه لما استُقدم المطران باسيليوس عيوظ إلى دير بزمار ليسام فيها أسقفًاعَلَى الأرمن في حلب، وتمت سيامته في ٤ فبراير (شباط) سنة ١٨٣٨، أَنشده رزق الله قصيدة من نظمه وهو في الثالثة عشرة من عمره.

ولما أتم دروسه في بزمار عاد إلى مسقط رأسه حلب، وكان يمارس التجارة لأن والده كان غنيًا وكثيرًا ما كان يختلف إلى دار قنصلية النمسا في حلب، حيث كان والده ترجمانًا فيها، فيتمرن عَلَى أعمال الترجمة في القنصلية. ثمَّ نزعت نفسه إلى طلب العلا، فذهب إلى أوربا وطاف في لندن، وباريس، وجاء مصر واستنسخ كتبًا كثيرة، لأنه كان ولوعًا بالمطالعة، كثير الميل إلى صناعة الخط التي عرف بيتهم بها، كما أشار إلى ذلك بقوله من قصيد:

لا خاملاً لا دنيا منشئي حلبٌ فسلْ وهاك بفضلي يشهد القلمُ

ثم عاد إلى الأستانة وتقرب من رجالها، ونال منزلة عندهم، واتخذه الحاج أبو بكر آغا القباقيبي—من كبار أغنيائها، وتجارها، وأعيانها— مديرًا لشؤُونه، ومؤتمنًا عَلَى أمواله، وبواسطتهِ استخدم في الحكومة.

وقد اتصل بالمرحوم يوسف جلبي الحجار، وتزوج السيدة متيلدة ابنتهُ سنة ١٨٤٨، وأرخ ذلك بطرس كرامه بقوله من أبيات:

فـلا زلتمـا طـول الزمـان بصـحبة　　وعـيش رغيـد بـردهُ الأمـنُ والرفـدُ
زفــافٌ سـعيدٌ والهنــاءُ مــؤرخٌ　　مـوافٍ لرزقـالله بـالخير مـا تِلـدُ

وقد كان بينهُ وبين أدباء عصره في سوريا، ومصر،والأستانة مراسلات، ومساجلات، ولاسيما وطنيهِ الشاعر نصرالله الطرابلسي المشهور، وأحمد فارس الشدياق، وبطرس كرامة، وغيرهم ممن جاء بعدهم مثل: فرنسيس مراش، وشقيقه عبدالله، وجبرائيل الدلال، وشقيقه نصر الله من مواطنيه، والقس لويس الصابونجي، وديمتري شحادة الدمشقي، والمطران اغابيوس طليبا الأرثوذكسي، وخليل الخوري، وغيرهم. ولقد عرف رؤساءَ الأساقفة بعهده ومدحهم. من ذلك أبيات موجودة بخطه في دار بطريركية الروم الكاثوليك بدمشق مدح بها الطيب الذكر البطريرك مكسيموس مظلوم الحلبي الشهير سنة ١٨٤٢ (١٢٥٢هـ). مطلعها:

صـرفت كربـة مـن ناجـاك مبـتهلاً　　ولـم تـرد صـرف مـن ينحوك ذا بـد

وقال من قصيدة مدح بها الطيب الذكر البطريرك بولس مسعد الماروني الشهير:

إِمــامٌ عَلَـى سـرْ الإلـهِ أمـينُ　　أضـاءت بنـورٍ مـن سـناهُ دجـونُ
بـدا علمًـا فـي أوجِ لبنـان للهـدى　　ولبنـان للـدين القـويم عـرينُ
سـميُّ الإنـاء المصـطفى نعتـهُ الصـفا　　عَلَـى نسـج أسـلافٍ طوتـهُ قـرونُ
هو البطريرك الندب بولس ذو الحجى　　وكعبـة فضـلٍ للزمـان جبـينُ

وختمها بقوله:

ودونكـمُ نظـم ابـن حسـون فائقًـا	بمعنـــى وألفـــاظٍ لهـــنَّ رنـــينُ

ومن ذلك ما بعث به إلى صديقه بطرس كرامة شاعر الأمير بشير الشهير من قصيدة ذكرت في ديوانه صفحة ٣٨٥ منها:

خذين المعالي وابن بجدتها الفردُ	بقيتَ بقاءَ الدهر يخدمك السعدُ
وزادك ربُّ العـرش اســنى كرامــةٍ	قرينٌ بها الإقبال والفخر والمجدُ
ولا زلـتَ فـي أمـنٍ وموفـور نعمـةٍ	ويمن إيادٍ كسبها الشكر والحمدُ
وبعـدُ فقـد طـال البعـاد ومهجتـي	يكاد من الأشواق يضرمها الوجدُ
فـأَبغى للاطمئنـــان مـــنكم ألوكـــة	إذا لم يكن منكم قدوم هو القصدُ

فأجابهُ بطرس بأبيات تجدها في ديوانهِ ومنها قوله:

فـلا تحسـبوا بُعـدي بعـادًا إنمـا	ودادي لكـم قربًـا وبعـدًا هـو الـودُّ
وإنـــي لأرجـــو كـــل يـــوم لقـــاكمُ	ولكـن دهـري شـأنه المنـع والصـدُّ
فـلا زلـتَ رزق الله خـدن كرامـةٍ	ويصـحبك التوفيـق والعـزُّ والسـعدُ

ولما انتشبت حرب القرم بين روسيا، والدولة العلية، وتداخلت فيها الدول المتعاهدة منحازة إلى دولتنا سنة ١٨٥٤؛ أنشأ المترجم جريدة «مرآة الأحوال» في دار السعادة. فكانت أول جريدة عربية فيها، وكان يصف فيها حرب القرم ومواقعها، ويكتب الفصول السياسية الدالة على حنكته. ويتطرق إلى وصف أحوال بلادنا؛ ولاسيما بعلبك، ولبنان،

وحاصبيا، وما كان يجري فيه إذ ذاك من الفتن الأهلية. فذاعت جريدته شهرةً وزادت نجاحًا بعد ذلك إلى أن عطلها.

ولما نشبت حوادث سنة ١٨٦٠ في سوريا، وسُفكت الدماء، وتفاقم الخطب، وجاء فؤاد باشا لإصلاح ذات البين، كان صاحب الترجمة من رجاله،اتخذه لتعريب المناشير، والأوامر التي يصدرها للشعب، وكان قد نال لديه حظوة أيام كان وزيرًا للخارجية في أثناء حرب القرم، ومدحه في جريدته «المرآة»، واثنى عَلَى بسالته حينما كان قيمًا عَلَى الجند بقيادة عمر باشا النمساوي في حرب القرم.

واتصل وهو في دمشق بالأمير عبدالقادر الجزائري الشهير، وله فيه مدائح نَشر بعضها في كتابه «النفثات» الذي قدمهُ له. وتبادل المودة مع أدباء بيروت، ودمشق، ولبنان.

وعثر وهو في دمشق عَلَى كثير من الكتب المخطوطة القديمة وأحرزها. ومن جملتها إنجيل عربي وجده في قرية «عين التينه» قرب معاولا في جبل القلمون، نُسخ سنة ٧٠٤ لآدم، و٩٤٧هـ (١٥٤٠م). فاهداها إلى المرحوم متري شحادة الدمشقي لما كان في القسطنطينية سنة ١٨٦٣، وهو الآن في المكتبة البطريركية الأرثوذكسية في دمشق (عدد ١٠٠٦)، وخطه كنسي جميل. وقد تفقد مكاتب دمشق القديمة، ووقف عَلَى نوادر مخطوطاتها، ونسخ بعض تعاليق مفيدة عنها كان يفيد بها المستشرقين بعد ذهابه إلى أوربا.

ولما عاد فؤاد باشا إلى الأستانة نائلاً منصب الصدارة العظمى سنة ١٢٧٨هـ (١٨٦١م)، نال المترجم حظوة لديه، فكان من خاصته. ولم يلبث فؤاد باشا أن صار عضوًا في مجلس الأحكام العدلية في السنة الثانية من صدارته، وذهب إلى معرض مدينة لندن معتمدًا عثمانيًا سنة ١٢٧٩هـ (١٨٦٢م)، فأخذ المترجم معه. ولما عاد إلى الأستانة أعاده معه، فرقاه إلى نظارة جمارك الدخان. فكثر حساده ومناوؤه، واشتد الأمر بينه وبينهم. فوشي به أنه رمي بالغلول في مال الجمارك هو وبعض المستخدمين، فسجن معهم. ثم فرَّ إلى روسيا وهناك أطلق لسانه بالانتقاد عَلَى الحكومة، وألّف رسالة بعنوان «قول من رزق الله حسون يبرئ نفسه من الغلول»، وذكر البعض أنه أنشأ جريدة في فرنسا لهذه الغاية. وذلك غير ثابت إلاَّ إذا كان قد أعاد نشر جريدة مرآة الأحوال. ثم توسط في أمره فقبلت الحكومة أن ترسل إليه أسرته؛ أي زوجته وأولاده، فلم يقبل إلا بجميع مطاليبه منها، فاوغر صدر السلطان عبدالعزيز عليه. فطلب من الحكومة أن تمنعه عن التنديد بالدولة، فلم يصغ لها سمعًا، بل غادرها وحل. وأدر فيها جريدتهُ «مرآة الأحوال»، وخصها بالشكوى من أعمال بعض موظفي الحكومة لعهده. وقد رأَيت منها العدد السادس عشر بتاريخ ١٨ كانون الثاني سنة ١٨٧٧ مكتوبًا بخطهِ الجميل، مطبوعًا على الحجر، وفيه مقالات سياسية بليغة. وكان يكتب فيها كثير من أدباء عصره ومواطنيه، ولاسيما المرحومان جبرائيل الدلال، وعبدالله المراش شقيق الشاعر الشهير فرنسيس مراش. وكان قد أصدر مجلة عربية عنوانها «رجوم وغساق إلى فارس الشدياق»، نشر

منها عددين في لندن: الأول في ٤ أيار سنة ١٨٦٨ في ١٤ صفحة صغيرة، والثاني في ٥ أيار سنة ١٨٦٨. وذلك ردًا عَلَى المرحوم أحمد فارس الشدياق صاحب «الجوائب» عَلَى أثر ما حدث بينهما من الخصام الشديد. وكانا يتناظران مناظرات موجعة شديدة اللهجة. وكان يبيع من «مرآة الأحوال» في سنتها الأولى في لندن ٤٥٠ نسخة.

ثم عطل مرآة الأحوال ونشر مجلة عربية طبعت في لندن سنة ١٨٧٩ كانت تصدر كل خمسة عشر يومًا مرة عنوانها «حلُّ المسألتين الشرقية والمصرية»؛ وهي أول مجلة عربية شعرية، لأنها كانت قصائد تبحث في هذه المواضيع. فاجتمع منها مجلد بقطع ربع في أكثر من ثلاث مائة صفحة.

ثم انقطع بعد ذلك إلى النسخ والاشتغال بتصحيح حروف الطباعة العربية في أوربا وساعدة كثير من المستشرقين حتى بلغ ما استنسخه من نفائس الكتب أكثر من عشرين.؛ أهمها «ديوان الأخطل»، و«ديوان ذي الرمة»، و«نقائض جرير»،و«الفردق»، و«صبح الأعشى في صناعة الإنشا» للقلقشندي، و«المتمم» لابن درستوية، و«الأناجيل المقدسة» ترجمة أبي الغيث الدبسي الحلبي، و«ديوان حاتم الطائي» وهذا طبعه كما سيجيء. ولا تزال بعض مخطوطاته في مكاتب روسيا، وفرنسا، وانكلترا حيث كان يتردد بين هذه المماليك. وجاء حلب قبل وفاته بسبع سنوات متنكرًا؛ فتفقد مكاتبها، واستنسخ منها بعض الآثار النادرة. ثم

عاد إلى انكلترا التي اتخذ معظم سكناه فيها؛ ولاسيما قرية وندسورث، حيث تفرَّغ لوضع كتبه وطبعها.

وعَلَى الجملة فإن رزق الله حسون كان سياسيًا حرًّا يرغب في إصلاح الدولة العثمانية، ويذهب مذهب كبار أحرارها كمدحت باشا وأعوانه. ولما ذهب مدحت باشا إلى لندن قابله فيها وسرَّ بهِ، ولا صحة لما شاع من أنه سعى في قتله.

أما منزلته الأدبية، فإن نثره من النمط العالي المتين، وسجعه كثير ينحو فيهِ نحو الأقدمين، وشعره يدلُّ كثير منه على طبيعتهِ، ولكنهُ كان قليل التدقيق في الأوزان، ومراعاة الأصول الصرفية والنحوية. فيشبع الحروف التي لم يرد مسوَّغ لاشباعها، ويسكن، ويحرك، ويختار القوافي الصعبة. وهذا التكلف ظاهر في كتابه «أشعر الشعر». ومع هذا فإن بين قصائده فرائد بليغة المعنى، فصيحة اللفظ، متينة القولفي تعدُّ من الطبقة العليا في الشعر. وقد خرج في بعض القصائد عن الطرق المألوفة؛ فلم يتقيد بقافية كما ترى في كتابه «أشعر الشعر»، وكثيرًا ما يميل إلى الألفاظ المهجورة. وبقي بين المحابر والأقلام إلى أن توفي فجأَة في مدينة لندن. وقيل إنه توفي مسمومًا وذلك نحو سنة ١٨٨٠، غريباً عن أسرتهِ التي بقيت في الإتسانة. وولده البير الوحيد حيٌّ إلى اليوم فيها. ولما شعر رزق الله بدنو أجلهِ نظم احتضاره (على أصح الروايات التي محصتها) بهذين البيتين:

قــد قضــى الله أن أمــوت غريبًــا فــي بــلاد أُســاق كرهًــا إليهــا
وبقلبـــــي مخــــــدرات معــــــانٍ نزلــت آيــة الحجــاب عليهــا

وقد أتقن فوق اللغات التي تلقنها في بزمار وبرع بها؛ اللغة الانكليزية، وأَلمَّ بالروسية. وأهم ما وصلت إليهِ يد البحث من مؤَلفاتهِ ومطبوعاتهِ هو:

(١) «النفثات»: وهو قسمان أولهما في تعريب قصص كريلوف شاعر الصقالية التي وضعها عَلَى طريقة بيدبا الهندي في كليلة ودمنة، ولافونتين الفرنسي في خرافاته، ولقمان في حكاياته، وما شاكل.

عرَّبها نظمًا في ٤١ قصة تقع في ٦٩ صفحة بقطع ربع، وألحق بها نخبة من منظوماتهِ من تواريخ، وأوصاف، ومدائح، وشكوى. وبينها قطعة عرَّض فيها بالشيخ أحمد فارس الشدياق، حتى أن الشدياق لما انتهت إليهِ قال فيها عبارتهُ الشهيرة: «كان حسون لصًا وله سرقات، فأصبح صلاً وله النفثات». وجميع هذا الكتاب يقع في ٨٤ صفحة، وقدمهُ للمرحوم الأمير عبدالقادر الجزائري نزيل دمشق، وطبعهُ في لندن سنة ١٨٦٧.

(٢) «أشعر الشعر»: وهو نظم سفر أيوب الصديق في ٧٤ صفحة بقطع ربع، فرغ منه في ٢٩ نيسان سنة ١٨٦٩م وهو في وندسورث (انكلترا). ثم نشيد موسى النبي، ثم سفر الجامعة، ونشيد الأنشاد لسليمان الحكيم، ومراثي أرميا النبي. وهذه بدأ

بنظمها في ٢٨ نيسان سنة ١٨٦٩، وأتمها في ٣ آيار. والكتاب يقع جميعه في ١٣٦ صفحة، وهو مطبوع في المطبعة الأميركية ببيروت سنة ١٨٧٠، ووضع في أوله مقدمة قال فيها:"إن أيوب، وهوميروس، وشكسبير أشعر الخلق". وأشار إلى نظمه سفر أيوب في أيام اعتقاله وأنهُ نظم الفصل الثامن عشر منهُ على أسلوب الشعر القديم بلا قافية. وقد كتب بعض الفصل نثرًا بليغاً، وربما أبقى بين ما نظمه في بعضها فقرات نثرية. وفي «أشعر الشعر» من الركاكة، والجوازات الشعرية ما يدل على اضطراب بال المؤلف حين نظمه، وسرعة إَعداد بعض الإسفار الأخرى. فلم تمسه يد النقد ولا جال فيهِ خاطر التهذيب.

(٣) «السيرة السيدية»: وهو عبارة عن مزج الأناجيل الأربعة المعروفة بالبشائر، طبع بمطبعة الأميركان في بيروت في ١٩٠ صفحة.

(٤) رسالة مختصرة في «الطباعة العربية» والاقتصاد فيها ماديًا ووقتًا. وقد وجدت منها نسخة بخطهِ الجميل في مكتبة أسقفية الأرثوذكس بحلب، فاستنسختها. سأَنشرها قريباً لفوائدها.

(٥) «ديوان حاتم الطائي» المشهور بكرمه، استنسخه عن نسخة قديمة وطبعهُ في لندن سنة ١٨٧٢ في ٣٣ صفحة.

(٦) كتاب «المشمرات»: طبع في سانباولو من أعمال البرازيل. سعت لطبعه إدارة جريدة «المناظر» منذ بضع سنوات.

(٧) «حسر اللثام»: وهو كتاب جدلي تمَّ تأليفه سنة ١٨٥٩. ولا أظنه طُبع.

ولقد ذَكر المترجَم كثيرٌ من المستشرقين، وآخرهم ثناءً عليهِ المسيو كليمان هوار الفرنسي في كتابهِ «تاريخ آداب اللغة العربية»، وقد اقتصر على ذكر كتابهِ «النفثات»، وجريدتهِ «مرآة الأحوال» في لندن، ولم يذكر نشأَتها في الأستانة.

عيسى إسكندر المعلوف

ميخائيل مدوَّر

(لك الفعل الجميلُ وأنتَ عِقدٌ	لجيد الدهر والدنيا يزينُ)
(عليكَ وفاء حق العلمِ دَينٌ	وفيكَ محبةُ الأوطانِ دينُ)
(وأَنتَ بذي الديارِ عمادُ مجد	وركنٌ في أعاليها متينُ)
(وإن كان المدوَّرُ ليس قطبًا	لدوْرِ المكرماتِ فَمن يكونُ)

هو ميخائيل بن يوسف مدوَّر، وُلد في بيروت بتاريخ ٣٠ تموز سنة ١٨٢٢. ودرس اللغتين الفرنسية. والإيطالية في مدرسة عين طورا. وقرأ قواعد اللغة الغربية وفقهها بدون أستاذ؛ فأَصاب منهما مهمًا وافرًا. وتعاطي التجارة مع إخوتهِ إلى سنة ١٨٥٢، وفيها اقترن بتاريخ ٣ شباط بالسيدة روزا بنت نقولا صالحاني. وكانت سيدة فاضلة قرَّظتها وردة اليازجي بأبياتٍ جاء فيها:

تنبهـــتِ العيـــونُ النرجســـيَّة عَلَـى نغَـمِ البلابـل فـي العشـية

ولكــــن غــــارتِ الأَقمــــارُ تجلــى وجـــهُ روزا الصـــالحيَّة

زَهـتْ بـاللطفِ فـي خَلـق وخُلـق وأوصــــافٍ حســـانٍ عنبريَّـــة

أديبــةُ عصــرها مــن خيــرِ قــوم لهـــم شـــرفٌ وأَنســـابٌ ســـنية

بهـا افتخـرت نسـاء العصـرِ لمـا رأَت أخلاقهــا الحســنى الرضــيَّة

ثمَّ صار ميخائيل ترجمانًا في قنصلية فرنسا، ولبث في هذا المنصب إلى آخر أيامه. وأنكبَّ عَلَى العلم، ولاسيما عَلَى التاريخ، وشعر العرب، وأخبارهم، حتى عُدَّ من فصحاء الكتبة في اللغتين العربية والفرنسية. ولذلك نال بكل استحقاق أن يكون عضوًا في «الجمعية العلمية الأسيوية» في باريس، وعضوًا في «الجمعية العلمية السورية» في بيروت. وكان صديقًا حميمًا للغوي المشهور الشيخ ناصيف اليازجي؛ فطبع له مقامات «مجمع البحرين» على نفقتهِ سنة ١٨٥٤ بعد أن طبع مقامات الحريري.

فأنشدهُ الشيخ ناصيف قصيدة نفيسة نورد منها الأبيات الآتية:

ملكـتَ الفضـلَ فـي شـرع وعُـرف فلـيس عَلَـى كمالـك بعـض خلـف

إذا عُــدّت رجــالُ العصــر يومًــا فإنــكَ واحــد بمقــامِ أَلــفِ(١)

يســوغُ لــك المــديحُ بكـل لفـظٍ ولـيس يســوغُ أن تُهجـى بحـرفِ

غلبتَ الشعرَ في الأوصافِ يا مَن غلبــتَ النــاسَ فــي أَدب وظَــرْفِ

فــلا يســعُ التأَمــلَ فيــك فكــري ولا تســعُ الثنــاءَ عليــكَ صــحْفي

(١) كان فريق من مريدي الشيخ ناصيف قد اتفقوا على جمع نفقات طبع «مجمع البحرين» من أهل الأدب. فمرَّ زمن ولم ينجزوا وعدهم. فأستغرَّت الاريحية الأدبية همة ميخائيل مدوّر فتبرع بالنفقات كلها.

والتقارير الرسمية التي كان يرسلها ميخائيل مدوَّر للوزارة الخارجية في فرنسا شهدت له بالبراعة، والحذق، وجودة الآراء. فضلاً عما كان له من المراسلات مع أعاظم علماء بلادهِ وعلماء الفرنسيس؛ كالشاعر لامرتين وسواه. ثمَّ سعى مع رؤَساء طائفة الروم الكاثوليك في إدخال الحساب الغريغوري بدلاً من الحساب اليولي عند الملة المذكورة. وكان أكبر عضد لخليل الخوري في تأسيس جريدة «حديقة الأخبار» القديمة العهد. فإنه ساعدهُ ماديًا وأدبيًا على إنشائها، وكتب فيها الفصول المفيدة، والمقالات الاصطلاحية. ولذلك قرَّظهُ خليل الخوري في العدد الخامس منها بما نصهُ: «قد جعل بمساعدته حديقة الأخبار أن تزهر برياض الشام، وتجري من ثغر بيروت زلالاً يرتشفه أبناء الوطن. وهي تكون مشروعًا يؤمل بواسطته تقدم ونجاح المعارف والتهذيب في هذه البلاد».

وقد سعى سنة ١٨٥٨ مع الكونت دي برتوي بطلب امتياز طريق العربات من بيروت إلى دمشق. وخدم الدولة العثمانية أثناء فتنة الشام سنة ١٨٦٠ خدمة جُلَّى، جلب له لأجلها فؤاد باشا الوسام المجيدي. وزار أوربا بعد ذلك، فقابل البابا بيوس التاسع في رومة، ونال منه علامة شرف. وقابل نابليون الثالث ورجال دولته في باريس، ثمَّ تجوّل في انكلترا، وسويسرا، وألمانيا، والنمسا. وبعد عودته تملك عدَّة أراضٍ في البقاع العزيز، وجهات عكا، وصار عضوًا فخريًا في مجلس بلدية بيروت. وقد اجتهد في جمع إعانة لجرحى العساكر الفرنسية في حرب سنة

١٨٧٠ من أعيان سوريا ولبنان. وفي سنة ١٨٧٢ شيَّد في قرية ثعلبايا سبيلاً للماء، فنظم فيه سليم بك نقلاً هذه الأبيات مؤرخًا:

جـزا الإحسـان إحسـانٌ فيُـولى	**جـزاءَ الخيـر نخلتُنـا المـدوَّرْ**
بظـلّ الشـاهِ سـلطانٍ عزيـزٍ	**أَقـامَ بنـاهُ بالجهـدِ المكـرَّرْ**
يبـذلِ الـدرهم الوضّـاح منـهُ	**سـقى وُرَّادَهُ ذَوَبـان سـكَّرْ**
وعنـه قيـلَ تـاريخٌ وفيـهِ	**رِدُنـي وأرشـفوا سَلْسـالَ كـوثَرْ**

سنة ١٨٧٢

وسعى في حلب مياه نهر الكلب إلى بيروت مع المسيو تفنن. ثمَّ زاول التجارة إلى عام ١٨٨٢، وبعد ذلك اعتنى بإصلاح أملاكه. وفي عام ١٨٨٤ زار مصر وقابل خديوها توفيق الأول وأعاظم رجال وادي النيل. وفي آخر أيامهِ مال إلى العزلة، والانفراد حتى توفاه الله في ١٢ آب ١٨٨٩ بينما كان يتفقد أراضيه في عكا. فنُقلت جثته إلى بيروت عَلَى باخرة مخصوصة، ودُفن في تربة أجداده بالتكريم. وقد أَفاضت الجرائد العربية في تأبينهِ لأنهُ كان عضدًا كبيرًا لتعزيز المعارف والمشارع الوطنية. وكان منزلهُ حافلاً بالعلماء، والأدباء، والشعراء الذين نظموا فيهِ القصائد الرنّانة التي لا تزال محفوظة عند أولاده وأحفاده. وأشهرهم الشيخ ناصيف اليازجي، وولداهُ الشيخ إبراهيم، والشيخ خليل. وسليم بك نقلا، وبشاره باشا نقلا، والخوري جرجس عيسى، والشيخ عمر الأنسي، والشيخ عبد الرحمن النحاس، وأسعد طراد، وخليل الخوري، والشيخ سليمان الحدَّاد، والدكتور بشاره زلزل، وشاكر البتلوني،

واسكندر آغا ابكاريوس، وخليل شاهين المعلوف، والسيدة وردة اليازجي، وغيرهم.

وخلَّف بأربعة أبناء توفي منهم اثنان وهما: نجيب، وجميل اللذان اشتهرا كأَبيهما في آداب اللغتين العربية، والفرنسية. أما الأوَّل فحلت منيته في ١٧ شباط ١٩٠٧ بعدما عمل في القنصلية الفرنسية كترجمان فخري نيفًا وعشرين سنة بنشاط وأمانة، استحقَّ عليهما وسام «جوفة الشرف» من رتبة كافلير. وكان حائزًاأيضًا على «الوسام المجيدي» طبقته الثالثة، ووسام «القديس غريفوريوس الكبير» منرتبة كومندور. ثمَّ ترك كثيرًا من الآثار الأدبية نخص منها بالذكر كتاب «بلاد الأندلس وأهلها»، وهو بحث تاريخي مدقق لم يزل غير مطبوع. وانتقد ترجمة كتاب «ألف ليلة وليلة» التي نقلها الدكتور يوسف مردروس من العربي إلى الفرنسي في مجلدات شتى؛ فعلق عليها الشروح الوافية والآراء السديدة. إلاَّ أنَّ الوفاة عاجلتهُ قبل نشر هذا الأثر النفيس بالطبع. وله أيضًا مقالات شائقة في «البشير»، و«الجنة»، و«لسان الحال» في بيروت، وجريدتي «الأهرام»، و«الوقت» في الإسكندرية. وقد أرَّخ الشيخ ناصيف اليازجي ولادته بهذين البيتين:

يـا حبـذا النجـلُ الـذي بـوروده	قد قيلَ هذا الشبلُ من ذاكَ الأسدْ
فكتبـتُ والتـاريخُ كـانَ مبشـرًا	هـذا نجيـبٌ مـن نجيـبٍ قـد وَرَدْ

سنة ١٨٥٤

ونشر نجيب مدوَّر المقالات الضافية في أعظم الصحف الفرنسية شهرةً وهي: أولاً: «Journal Asiatique»، وثانيًا: « Revue des deux Mondes»،وثالثاً: «LesDebats» وغيرها.

وسافر ثلاث مرات سائحًا في بعض أنحاء أوروبا: أولاً: سنة ١٨٧٨ فقابل البابا لاون الصالص عشر في مواجهة خاصة. وثانيًا عام ١٨٨٩ أَثناء معرض باريس العام. وثالثًا سنة ١٩٠٣ لمشاهدة آثار التمدن الأوروبي الحديث. وكان حريصًا عَلَى جمع الكتب، ومطالعة تآليف الأقدمين، ونظم في صباه شيئًا من الشعر. وقد وقفنا له على قصيدةٍ مدحَ بها أحد العلماء مطلعها:

رَقصت بلابلنا على الأغصانِ وتغرَّدت في أطيب الألحانِ

ثم قال في الممدوح:

هذا الذي نبعُ العلومُ بصدرِهِ يسقي البعيدَ ويستزيدُ الداني

ولأَخيه جمل الذي وُلد سنة ١٨٦٣ آثار جديرة بالذكر خدم بها اللغة، والتاريخ، والصحافة؛ فمنها كتاب «حضارة الإسلام في دار السلام» الذي يغني ذكر اسمه عن وصفه. وقد قدَّر هذا الكتاب قدره وأَنزله منزلة رفيعة كما يستحق كل من أحمد جودت باشا وزير المعارف العثمانية، وأحمد مختار باشا الغازي المعتمد السلطاني في مصر سابقًا، وغيرهما من مشاهير الرجال. وقد كافأَهُ عليه حينئذٍ السلطان عبد الحميد بجائرة مالية تنشيطًا له عَلَى خدمة العلم. ومنها كتاب «تاريخ بابل

واشور»، وكتاب «التاريخ القديم»، ورواية «أتلا»، وغيرها. وفي آخر حياته تولى تحرير جريدة «المؤيد» في القاهرة؛ فأَظهر من المقدرة الصحافية مما يشهد له بطول الباع في أساليب الإنشاء بين أدباء زمانهِ. وقد أدركته المنية في ٢٤ كانون الثاني ١٩٠٧ بعيدًا عن وطنه، وذويه، ومأسوفًا عليه من الرفيع والوضيع. وللشيخ ناصيف المشار إليه بيتان نظمهما مؤَرخًا ولادته وهما هذان:

لنجلــه قــد أَتــى نجــلٌ جميــلٌ   كمــا سُــمِيْ فســرَّ أَبًــا وأمًــا

دعــوتُ فقلــتُ بالتــاريخ ينشــو   غــلامٌ طــابقَ الاســم المســمَّى

سنة ١٨٦٢

«٩»

إلياس بك حبالين

هو إلياس بن يوسف بن طنوس بن يوسف حبالين، وُلد في ٥ تشرين الأول ١٨٣٩ في قرية الزوق بجبل لبنان. ولما ترعرع أَدخله والدهُ مدرسة الآباء اللغازريين في عين طورا؛ فأحرز نصيبًا وافرًا من العلوم العقلية والنقلية، وأتقن آداب اللسانين العربي والفرنسي. ونظرًا لبراعته الفائقة تعين أستاذًا في أَشهر مدارس بيروت، حيث تخرَّج عَلَى يده كثير من التلامذة الذين ترقوا إلى أَعلى المناصب، وخدموا الوطن بالصحافة، والتجارة، وسائر الأعمال النافعة. وكان في اللغة الفرنسية بنوع خاص

كاتبًا تحريرًا، وخطيبًا مصقعًا، حتى كان رجال الفرنسيس يعجبون بفصاحة لسانهِ وبلاغته. وفي سنة ١٨٦٨ تولى تحرير جريدة «لبنان» الرسمية إلى حين احتجابها. وفي الوقت ذاتهِ صار عضوًا في «الجمعية العلمية السورية» التي قام فيها خطيبًا مرَّاتٍ شتى، وخدمها قولاً وعملاً. فكافأَه السلطان عبد العزيز بالوسام المجيدي الرابع، ونفحهُ بخاتم مرصع بالحجارة الكريمة. وجرى لذلك احتفال كبير في «مدرسة ثلاثة أَقمار»، شهده أرباب الحكومة وأعيان المدينة. وفي طليعة الجميع كان والي سوريا محمد رشدي باشا شرواني الذي قدَّم الهدية لصاحب الترجمة باسم الحضرة السلطانية. وقد قرَّظته جريدة «حديقة الأخبار» عَلَى هذه المنحة السنية بهذين البيتين:

ولاَّك سلطاننا السامي أجلَّ على بخاتمٍ نورهُ كالنجم في الفلكِ

يُومي بأنك علم اللغات بما أَبداهُ جدُّك تحكي عزة الملك

ثمَّ جعلته الحكومة الفرنسية ترجمانًا أوَّل لقنصليتها في بيروت، حتى سافر سنة ١٨٧٥ إلى وادي النيل.

فأخذ يتقلب في وظائف الحكومة المصرية إلى أن فُوّضت إليه رئاسة قلم الترجمة في مجلس النظار. فنال ثقة أولياء الأمور واحترامهم باجتهاده، وشهامة نفسه، وكافأهُ الخديوي توفيق باشا بالرتبة الثانية، والوسام المجيدي الثالث. ولنا على ذلك شهادة صريحة بما قاله عنهُ رياض باشا رئيس الوزارة المصرية حينئذٍ في مجلس حافل بأعاظم القوم وهي: «إنَّ إلياس بك حبالين يستحق كل ثناء لأنه كفؤ، ليعيض عن عشرة

رجال من ذوي الهمة والإقدام». وكان في طائفته من ذوي الغيرة الوافرة، ومن الذين أنشأوا لها «جمعية المساعي الخيرية» في القاهرة. وعلى يده عُرِفت هذه الجمعية رسميًا من الحكومة المصرية، وصُودق عَلَى قانونها. وقد فاجأتهُ المنية في ٨ تشرين الثاني ١٨٨٩، وجرى لتشييع جثتهِ مشهد حافل. وابّنهُ فوق ضريحهِ كل من: يوسف، وعزيز بك زند صاحب جريدة «المحروسة» سابقًا. وكان سمين الجسم، طويل القامة، اسمر اللون، أجشّ الصوت، طاهر الوجدان، رقيق المعاشرة، لا يملُّ جليسهُ من حديثه، ولا يسع ناظره لذى رؤْيتهِ إلاَّ أن يقف له متهيبًا. وكان سخيًا يبذل الدراهم نسبة لحالتهِ بأكثر من أقرانهِ.

«١٠»

الحاج حسين بيهم

رئيس «الجمعية العليمة السورية» وأَحد مؤسسي مجلة «مجموع العلوم»

(إنْ غاب شخصُ أحبتي عن ناظري   فهمُ بقلبيِ والشمائل صورتي)
(أو غبتُ عنهم فالرجا من ودْهم   أن ينظروا عند التشوُّق صورتي)

هو الحاج حسين بن السيد عمر بن السيد الحسين بيهم العيتاني الشافعي، وُلد سنة ١٢٤٩ هـ (١٨٣٣ ميلادية) في بيروت. وينتمي إلى عائلة جمعت كرم المحتد إلى الوجاهة، والثروة، وحب الأعمال الخيرية. وكان منذ حداثته كلفًا بتحصيل المعارف، والاجتماع بأهل الأدب

والفضل. فقرأ على جهابذة زمانهِ كالشيخ عبد الله خالد، والشيخ محمد الحوت. وبعد أن زاول التجارة حينًا يسيرًا نزع إلى العلم؛ فبرع بفنون الإنشاء على اختلافها. ثم نظم الشعر فصارت له به ملكة راسخة بحيث كان يقوله ارتجالاً في محافل الوزراء، والكبراء، والأدباء. فيأتي بالنادرة الغريبة التي كانت تسير سير المَثَل، وكان يصح له نظم التواريخ الشعرية بما يطرب ويعجب. فمن ذلك ما نظمهُ لمّا أتي فؤاد باشا إلى سوريا سنة ١٨٦٠ (١٢٧٧ هجرية) وكان ناظر الخارجية. فوجهت عليه رئاسة الأحكام العدلية، ثم أُعيدت إليهِ في السنة التابعة نظارة الخارجية وهو في بيروت. فقال صاحب الترجمة فى ذلك مؤرخًا:

إن الفؤَاد لهُ في الملكِ معرفةٌ ... فالخارجية لم تترك نظارتهُ
لذاك سلطاننا المنصور ردَّ لهُ ... مع حسن أنظارهِ أرّخْ بضاعتهُ

سنة ١٢٧٨ هجرية

ومن شعره ما قالهُ في كأس فضة مؤَرخًا:

يا من يريد شرابًا حلَّ موردهُ ... أو شرب ماء ليطفي حرَّ غصتهِ
اشرب هنيئًا بكأس راق منظرهُ ... يحكي صفاتك أرّخنا بفضتهِ

سنة ١٢٨٢ هجرية

وقال هذه الأبيات مشطرًا:

الـدهرُ يفتـرسُ الرجـالَ فـلا تكـن	ذا غفلـةٍ عنـهُ مجـالات الطـربْ
واحـذرْ معـاداة الرجـال وأن تـرى	ممـن تطيَّشـه المناصـبُ والرتـبْ
كـم نَعمـةٍ زالـت بأَيسـر نقمـةٍ	أَرْدَت بصاحبها إلى أردى العطبْ
آنسـتهُ مـا قـد طـاب مـن أوقاتـهِ	ولكـل شـيء فـي تقليـه سـببْ

وكان حريصًا على اقتناء الكتب النادرة، حتى جمع مكتبة عظيمة. وهو لا يمنع طالبًا من إعارة ما يريده منها؛ بحيث كان الكتاب يبقى لدى المستعير أعوامًا وربما تناساه. وكان حاضر الجواب، عالى الفكر، عالمًا بأصول السياسة، محبوبًا عند الرفيع والوضيع. واشتهر بالصلاح، ومناصرة العلماء، وإغاثة المحتاجين من أيّ مذهب كانوا. وتقلد مأموريات شتى في خدمة الحكومة والوطن. فإنه تعين عضوًا في «مجلس قبيلة صيدا الكبير»، ثم في «قوميسيون فوق العادة»، ثم في «محكمة استئناف التجارة»، ثم في «المجلس البلدي»، ثم في «مجلس الإدارة» وغيرها. وتولى سنة ١٨٦٩ رئاسة «الجمعية العلمية السورية»، وأنشأ لها محلتها التي سبق وصفها. وظهر اقتداره خصوصًا لما انتدبهُ سكان وطنهِ ليمثلهم سنة ١٨٧٨ في مجلس النواب العثماني للمرَّة الأولى. فذهب إلى الأستانة ونال حفاوة كبرى لدى وزراء السلطنة وأعاظم رجالها. وبعد عودته إلى بيروت اعتزل المأموريات منقطعًا إلى الآداب، والمطالعة، وعمل الخير. وقد كافأته الدولة على ذلك بأن منحتهُ رتبة «باية أزمير» الرفيعة. وكان وديعًا، متوقد الذهن، شريف المبادئ، طاهر السيرة، مقدامًا على المشاريع العمومية.

ومن مآثره أنه أَدّى لجمعية «المقاصد الخيرية» في بيروت خدمًا تُذكر، فتشكر وكان من مؤسسيها الأفاضل. وحلت وفاته في ٢٤ صفر ١٢٩٨ (٢٤ كانون الثاني ١٨٨١)، ثم دفن في اليوم التابع بمشهد حافل يشهد بفضله، وعلو مكانته، وكثرة عوارفه. وقد رثاه الشعراء بقصائد رنانة ضاعفت الأسف عليهِ والبكاءَ على خسارتهِ. وقد أدرج جثمانهُ في ضريح والده، ونقشت عليهِ هذه الأبيات من نظم الشيخ إبراهيم الأحدب:

وفيه ثوى من بعد ذلك نجلهُ	حسينٌ فوفاهُ الكريم مناهُ
على أن هذا الفرع بالفضل والتقي	وكسب العلا والعلم فاق سواهُ
لقد كفَّ عن دنياه أرختُ حبهُ	ولاقى بجنات الخلود أباهُ

سنة ١٢٩٨ هجرية

ومما رُثي به الحاج حسين بيهم قول السيد محمد طاهر الأتامي:

أيا حاملينَ النعشَ كيف حملتمُ	من الفضل طودًا لا يوازيهُ العصرُ
ويا غاسليهِ ما دعاكم لغسلهِ	اتغسلهُ بالماء مع أنه بحرُ
وما دفنوهُ عند حدِ مقامه	فإن الثريا تشتهي أنها القبرُ
كأَنَّ بطون الأرض من ظلماتها	شكت فأتاها من منازله البدرٌ

«١١»

سليمان الحرائري

محرر جريدة «برجيس باريس»

ينتمي صاحب الترجمة إلى عائلة فارسية قديمة نزحت من بلاد العجم إلى شمال أفريقيا الأوسط. واسمهُ أبو الربيع عبده سليمان بن علي الحرائري الحسني، وُلد سنة ١٨٢٤ في مدينة تونس. فقرأ العلوم الدينية أوَّلاً عَلَى علماء وطنه، ثمَّ أكبَّ عَلَى درس الطبّ، والطبيعيات، والرياضيات، واللغة الفرنسية حتى أتقنها. وسنة ١٨٤٠ ولاَّه باي تونس رئاسة الكتّاب في مملكتهِ. وبعد ست سنين من ذلك العهد رحل إلى باريس، حيث عينتهُ حكومتها أستاذًا للغة العربية في مدرسة الألّسن الشرقية. وأثناء وجوده في عاصمة الفرنسيس استلم تحرير جريدة «برجيس باريس» التي كان أنشأها الكنت رُشيد الدحداح. فنشر فيها قسمًا من «سيرة عنترة»، وكتاب «قلائد العقبان» للفتح بن خاقان، ثمَّ طبعهما عَلَى حدة. وعرَّب بعض الكتب الأوربية في العلوم المستحدثة والاختراعات الجديدة. فكانت تعريباته دليلاً عَلَى سعة اللسان العربي وكفايته للمعارف العصرية. فنهج المعرّبون بعد ذلك منهجه، لاسيما المرسلون الأميركيون في بيروت. ومن مآثره العلمية: «رسالة في حوادث الجو» طبعها سنة ١٨٦٢ في باريس، وضمنها خلاصة العلوم الطبيعية والظواهر الجويةَّ. وألف سنة ١٨٦٧ كتاب «عرض البضائع العام» الذي

وصف فيه معرض باريس. ونقل إلى اللغة العربية كتاب «الأصول النحوية» بقلم مؤّلفه لومون. ووضع رسالة في القهوة سماها «القول المحقَّق في تحريم البن المحرق» وغير ذلك. ونشر بالطبع كتاب «مقامات الشيخ أحمد بن محمد الشهير بابن المعظَّم» أحد أدباء القرن الثالث عشر للمسيح. وتوفي بالغًا نحو السنة الخمسين من عمره.

«١٢»

يوسف الشلفون

منشئ صحف «الشركة الشهرية»، و«الزهرة»، و«النجاح»، و«التقدم».

هو يوسف بن فارس بن يوسف الخوري الشلفون، وُلد سنة ١٨٣٩، وتُعدُّ عائلته من أقدم العائلات المارونية في بيروت. وكان جدُّه حاكمًا عَلَى ساحل لبنان بأمر الأمير بشير الثالث الشهابي الكبير. فدرس صاحب الترجمة أصول اللغة العربية، وبعض اللغات الأجنبية في مدارس وطنه. ثمّ اتخذهُ خليل الخوري مرتبًا للحروف في «المطبعة السورية» التي أنشأها سنة ١٨٥٧ لنشر جريدة حديقة الأخبار. فتعلم حينئذ فن الطباعة، وأتقنهُ حتى صار من الماهرين في هذه الصناعة التي زاولها أكثر أيام حياته. ولما جاءَ فؤَاد باشا أثناء الفتنة الشهيرة عام ١٨٦٠ استدعاه لترتيب المحرَّرات الرسمية التي كانت تُطبع في اللغتين التركية والفرنسية، وتُرسل إلى سفراء الدول في القسطنطينية ومعتمديها في بيروت. وفي السنة التابعة لإنشاء «المطبعة العمومية» التي نشر فيها أكثر من ستين

كتابًا بين دينية، وفلسفية، وجدلية، وشعرية، وتاريخية، وعلمية، وأدبية، وفقهية، وسواها. وسنة ١٨٦٧ استدعاهُ داود باشا لترتيب مطبعة الحكومة اللبنانية في «بيت الدين»؛ فقام المندوب بهذه المهمة القيام الحسن. ولما تأسست « الجمعية العلمية السورية» عام ١٨٦٨ كان من أقدم أعضائها، وتعين حارسًا لمكتبتها. وقد ألقى في جلساتها خطبًا وقصائد شتى، نورد منها القصيدة التي أنشدها لدى افتتاح الجمعية، قال في مطلعها:

بشرى لنا اليوم نورُ العلم قد لمعا	في أُفقنا وضيا التهذيب قد سطعا
وفي بروج ربي بيروت بلدتنا	بدُ المعارف بالآداب قد طلعا
وقطرنا نال من حظ التمدّنِ ما	قد كان في نبلهِ بالأمس ممتنعا

وقال في الختام مؤرخًا:

وما بدا عام تاريخ بهِ طلعت	بشرى لنا اليوم نورُ العلم قد لمعا

أما الصحف التي أنشأها فهي: أولاً: «الشركة الشهرية» سنة ١٨٦٦، وقد مرَّ ذكرها.

ثانيًا: «الزهرة» سنة ١٨٧٠. ثالثًا: «النجاح» سنة ١٨٧١ بالشركة مع القس لويس صابونجي السرياني الذي تركها له بعد حين. رابعًا: «التقدم عام ١٨٧٤ –وستروي أخبار الصحف الثلاث الأخيرة في الجزء الثاني من هذا الكتاب–. وسنة ١٨٧١ أعقد شركة مع رزق الله خضرا لدار الكتب، على شرط أن يقتسما نفقات المطبعة وأرباحها. فبقيت

شركتهما سنتين ثم تنازل صاحب الترجمة لشريكة عبد الله خضرا عن امتياز جريدة «النجاح» والمطبعة. وسنة ١٨٧٤ طلب رخصة من وزارة المعارف لإنشاء «المطبعة الكلية»، وجريدة «التقدم» التي عاشت ١٥ عامًا. وخلّف يوسف الشلفون بعض الآثار علمية نذكر منها: «ترجمان المكاتبات»، وكتاب «تسلية الخواطر في لطائف النوادر»، ورواية «حفظ الوداد»، وديوان «أنيس الجليس». وفي سنة ١٨٧٥ أعلن نشرة في ١٤ صفحة صغيرة يعلن فيها عزمه على طبع كتاب «عقود الدور في أخبار مشاهير الجيل التاسع عشر»، وافتتحها بهذين البيتين:

إليـــــك كتابًـــا بـــهِ تُرجمـــت	فضـــائل مَـــن بـــالبلاد اشـــتهرْ
وفيـــــهِ فرائـــــدهم نُظمـــــت	لـــذلك ســـمي عقـــود الـــدورْ

غير أن هذا المشروع طوى عليه الزمان ولم يخرج إلى دائة الوجود. ويقال إنهُ نسب لنفسه بعض القصائد المتضنة في ديوانه، وهي ليست من نظمه، بل أن ناظميها الحقيقيين كان القس لويس صابونجي، والشيخ فضل القصار، وأديب إسحق، وسليم نقاش، ومصباح رمضان.. والله أعلم. وقد أضرَّ به تقلبهُ في الأشغال، والمبادئ. وتوفي خاملاً سنة ١٨٩٦ كما روى الأب لويس شيخو[1]. ويروى لأديب إسحق بيتان قالهما عَلَى سيبل المداعبة في صاحب الترجمة هما:

---

(1) كتاب «الآداب العربية في القرن التاسع عشر»: جزء ٢ صفحة ١٣٥– ١٣٦.

سأَلت فتاةَ العُرْبِ أنىَّ اغتيالها | من العُجْمِ قالت أنهم شَلَفوني
فأشكوكَ فأشكوني لأّهلي فإنني | فتاةٌ سيأتي يوسف الشلفونِ

«١٣»

إبراهيم سركيس

المحرر في «النشرة الشهرية»، و«النشرة الأسبوعية»، و«كوكب الصبح المنير»

وإن نُقض البيت الذي أنا ساكنٌ | فلي في السماء بيتٌ من الله قد بني
ونفسيَ تحيا عند فاديَّ دائمًا | وإن يكن الجسمُ التاربي قد فني

وُلد إبراهيم بن خطار سركيس عام ١٨٣٤ في عبيه من أعمال جبل لبنان. وتلقى العلوم في مدرسة القرية المذكورة عندما كانت برئاسة الدكتور كرنيليوس فان دبك. وقد توفي والده سنة ١٨٤٧، فنظم الشيخ ناصيف اليازجي بيتين يتضمنان تاريخًا لينقش عَلَى قبره وهما هذان:

خطارُ سركيس في هذا الضريح ثوى | لكنْ لهُ في مقاصيرَ العلى دارُ
يقول في طيِ تاريخٍ أَعدَّ له | أَنا إلى جنَّةِ الفردوس خطارُ

وبعد أن أنهى دروسه انتقل إلى بيروت وسكن فيها. فكلفه المرسلون الأميركيون بتبييض النسخة الأولى من الكتاب المقدَّس، والإشراف على تصحيح مسوداتها التي كان يترجمها الدكتور عالي سميث من لغاتها الأصلية إلى اللسان العربي. ثمَّ عين مديرًا للمطبعة الأميركية،

ومصححًا لمطبوعاتها؛ فقام بهذه الوظيفة خيرَ قيام، إلى أن توفاه الله في ١٠ نيسان ١٨٨٥ في بيروت. وكان كاتبًا ضليعًا أَطرف «النشرة الشهرية»، ثم «النشرة الأسبوعية»، وجريدة «كوكب الصبح المنير» بالفصول العلمية والأدبية. ونظم كثيرًا من الأشعار في مواضيع دينية يترنم بها أبناء الطائفة الإنجيلية في معابدهم؛ وعددها يزيد عن سبعين ترنيمة مطبوعة في كتاب «الترانيم والتسابيح» الصادر من المطبعة المشار إليها. وشعره لطيف الأسلوب، قريب للإفهام، خالٍ من التعقيد؛ كالبيتين المنشورين في أسفل رسمه. وله تقريظ حسن لكتاب «مجمع البحرين» وهو:

بنى اليازجيُّ الفردُ قطبُ زمانهِ   مقامات درّ زاَنها النظمُ والنثرُ
فلا تعجبوا للدرِ فيها لأنهُ   إلى مجمعِ البحرَينِ ينتسبُ الدرُّ

وألّف مع أخيهِ شاهين كتاب «تحفة الأخوين إلى طلبة اللغتين» في الانكليزية والعربية. ثم وضع كتاب «الأجوبة الوافية في علم الجغرافية»، وكتاب «الدر النظيم في التاريخ القديم»، وكتاب «الدرة اليتيمة في الأمثال القديمة»، و«صوت النفير في أعمال إسكندر الكبير»، و«أوضح الأقوال في متلف الصحة، والصيت، والمال»، وكتاب «الأجوبة الوفية في العلوم الصرفية»، وكتاب «الحساب العقلي»، وغير ذلك من التآليف العلمية، والحسابية، والفلكية، والخطب، والمقالات التي لم تشهر بالطبع. وكتب في مجلة «الجنان» فصولاً شتى تدلُّ عَلَى طول باعه في المعارف. وكان فاضلاً، أديبًا، بشوشًا يذكره بالخير جميع المراسلين

الأميركيين في هذه الديار لأنه أفادهم كثيرًا، وأدَّى لمشاريعهم خدمًا وافرة. وقد نُقشت على قبرهِ الأبيات الآتية:

لحــدٌ لإبــراهيم ســركيس الــذي	أَسـفًا عليـه كـلُّ دمـعٍ قـد جـرى
أَبكـى المعـارف والحجـى فقدانـهُ	والبـرَّ والتقـوى كمـا أَبكـى الـورى
هــذا خليــلُ والنــاسِ الــذي	نـاداهُ رب العـرش مـن أعلـى الـذُّرى
دفنـوه فـي طـي التـراب فلـم يـزلْ	كالسيف في التاريخ يغمد في الثرى

سنة ١٨٨٥

وكان لإبراهيم ثلاثة أخوة: أحدهم خليل سركيس منشئ «المطبعة الأدبية»، وجريدة «لسان الحال» الذي سيأتي ذكره. وثانيهم أمين سركيس الذي توفي في ٢٦ كانون الثاني ١٨٩٦ بعدما تعاطى التجارة بكل استقامة. ثم ثالثهم وكبيرهم شاهين سركيس الذي وُلد سنة ١٨٣٠ في عبيه، وهو والد الصحافي الشهير سليم سركيس. وكان شاهين خطيبًا مصقعًا، وكاتبًا بارعًا في اللغتين العربية والانكليزية اللتين تلقاهما في مدرسة عبيه. وفي سنة ١٨٤٨ أسس المرسلون الأميركيون مدرسة في بيروت وعينوه رئيسًا لها. فكانت الوحيدة في بابها، ونبغ فيها عدد من الشبان على اختلاف المذاهب. ثم تنحى عن خدمة العلم إلى خدمة التجارة زمنًا قصيرًا. وكتب في «النشرة الشهرية» مع أخيهِ إبراهيم، وله فيها المقالات العديدة. وعام ١٨٦٥ انتدبته الرسالى الاسكتلندية إلى إنشاء مدرسة يتولى إدارتها؛ فلبى الدعوة وأنشأ مدرسة جمعت نخبة الشبان، وأحرزت نجاحًا باهرًا. ثم علم مدةً في «المدرسة الوطنية»

لمنشئها العلاَّمة بطرس البستاني، ولبث في هذه الوظيفة حتى وافاه الأجل المحتوم في ٢ آيار ١٨٧٠ مذكورًا بالثناء والرحمة. فرثاه الشيخ ناصيف اليازجي بقصيدةٍ وردت فيها الأبيات المنشورة تحت هذا الرسم:

شاهين سركيس

المحرر في صحيفة «النشرة الشهرية»

قلْ للمدارس بعد شاهين اندبي | أسفًا عليهِ وقد يُقال لك اخربي
يربي الغلام مؤدبًا في حجرهِ | أضعافَ ما في حجر والدهِ ربي
كانت له الخطبُ التي يلقى بها | جمَّ الغفير وليس بالمتهيبِ

«١٤»

حنا بك أبو صعب

لحنًا قد أَقرَّ العُرْبُ طرًّا | بفوز بالسباقِ لدى الرِّهان
لهُ شهِدَ اليراعُ بحسن خطٍ | كما سجدَ السيوفُ معَ السِنانِ

يتصل نسب المشايخ الصعبيين الموارنة بأبي صعب الأوَّل المشهور الذي ولاَّه جبة بشراي عمر باشا والي طرابلس سنة ١٦٤٩، وجعله شيخًا عليه. وبعد موتهِ أقر حسن باشا عليَّ ابن الصجال عَلَى الجبة؛ فتغرَّق الصعبيون وجاءَ أحدهم (المسمى أبا جودة) بلاد المتن وسكنها، وإليهِ تُنسب عائلةِ أبي جودة المشهورة في فضاء المتن. وفي سنة ١٦٨٠ تملك خالد أحد أحفاده (تولا البترون)، وانتقل إليها

ودُعيت سلالته فيها بعائلة الزغبي. وفي سنة ١٧٠٩ رحل منها حفيده يونان إلى المتين وسكنها، وتسمت سلالته فيها بعائلة أبي سليمان. ونبغ منها جرجس ابن الخوري بطرس وتقربت من الأمير يوسف الشهابي؛ فكان من خواصه ورافقهُ في حروبهِ؛ فأظهر شجاعة، وحكمة، ودهاء. فأحبهُ الأمير وولّاه مقاطعة القويطع في شمالي لبنان، وشيّخه عليها، ودعاه بأبي صعب –وهي كنية جده الأعلى– وسيره إلى الشمال لإخماد فتنة حديثة؛ فأخمدها واستقر في مقاطعته. وتملك إحدى عشرة قرية واقعة بين جبهة بشراي، وبلاد البترون، والكورة. واستحسن منها بقعة جميلة يجري فيه نهر «العصفور»، وتظللها أشجار الأرز والصنوبر. فشيد بها أبنية له ولأولاده، ورجاله؛ فانتقل إليها فدعيت باسمه. ونبغ من هذه الأسرة رجال كبار تفوقوا في الغيرة، والنزاهة، والإقدام، وتقلبوا في مناصب الحكومة في مدر قرنين، وخدموا بلادهم خدمات صادقة خلّدت ذكرهم في صفحات التاريخ كصاحب الترجمة الذي نورد أخباره فنقول:

هو حنا أسعد بن جرجس (المكني بأبي صعب) ابن الخوري بطرس بن فاضل بن بطرس بن يونان بو موسى بن خالد بن ضاهر بن فارس (المكني بأبي جوده) بن أبي صعب، وُلد سنة ١٨٢٠ في قرية «أبي صعب» وكان والدهُ رئيسًا أول للعساكر اللبنانية. وفي سنة ١٨٢٣ توفي أبوه، وقيل إنهُ قُتل مسمومًا؛ فاعتنت أمهُ بتربيته. ومنذ حداثته ظهرت عليه علائم الذكاء؛ فتلقى أصول اللغتين العربية والسريانية على أشهر أساتذة ذلك العصر. وما كاد يبلغ السنة الرابعة عشرة من عمره حتى جعله الأمير أمين ابن الأمير بشير الشهابي الكبير رئيس كتبته مدة ستة أعوام. وأثناء إقامته هناك كان

صاحب الترجمة يتردد عَلَى المعلم بطرس كرامه الشاعر المشهور؛ فتعلم منهُ نظم الشعر حتى اتقنه كثيرًا. ثم سافر سنة ١٨٤٠ مع الأمير المشار إليهِ في رحلتهِ إلى جزيرة مالطا والقسطنطينية. فانتهز الفرصة لدرس اللغات الإيطالية، والفرنسية، والتركية. وأكبَّ عَلَى إتقان بعض العلوم: كالفقه، والمنطق، والمعاني، والبيان، والرياضيات، والحساب، والفلك، وغيرها. وتعلم أيضًا صناعة الخط بقواعده وأوزانهِ؛ أعني الثلث، والنسخي، والجلي، والتعليق، والديواني، والرقعي حتى صار يضرب فيهِ المثل بجودة الخط. وعنهُ أخذ الخطاط المشهور علام بن يوحنا علام هذه الصناعة، وأنشأ لها القواعد المتداولة الآن بين أيدي تلامذة المدارس في كل البلاد العربية. ولبث صاحب الترجمة في القسطنطينية حتى سنة ١٨٤٩؛ أي قبل وفاة الأمير بشير التي حلت في ٢٩ كانون الأول ١٨٥٠.

فعاد إلى وطنه مشمولاً بتعطفات السلطان عبد المجيد الذي منحهُ أَوسمة الشرف. وقد تعين حينئذ كاتبًا لمصطفى باشا الشكودري في بيروت. فلبث لديهِ سنة، ثمَّ صار ترجمانًا لخلفهِ ونامق باشا الذي أَنعم عليه سنة ١٨٥٥ بلقب البكوية. وهو أول من نال لقب «بك» بين نصارى جبل لبنان، وبلاد الشام قاطبةً. ثمَّ سكن في «بيت الدين» مركز الحكومة اللبنانية، وأنشأ فيها سنة ١٨٥٢ مطبعة حجرية نشرت فيها بعض الكتب. وأهمها كتاب «شرح المعلقات» للزَوْزَني؛ فإنهُ أصلحهُ وكتبهُ بخط يده، وطبعه في المطبعة المذكورة. وبعد ذلك صار «كتخدا» الأمير بشير أحمد اللمعي قائم مقام نصارى لبنان. ولما تشكلت الحكومة اللبنانية بعد فتنة سنة ١٨٦٠ أَقامهُ داو باشا رئيسًا للقلم العربي؛ فلبث في هذه الوظيفة إلى أن توفاه الله في ١٧ أيلول ١٨٩٧ بالغًا السنة الثامنة والسبعين من عمره، قضاه في التأليف

وخدمة الوطن. فكان مثالاً صالحًا لسائر المأمورين بالنزاهة، وعفة النفس، وإخلاص الخدمة. وكان يمقت الرشوة، ويكشف النقاب عن الحقيقة، ولا يقبل الهدايا؛ فاستعبد القلوب بهذه الصفات التي يندر أن تجتمع في مأمور لبناني بزماننا الحاضر. وكفاه فخرًا أنه خدم الحكومة وتقلب في مناصبها نيفًا وخمسين سنة بطهارة الذيل، وحرية الضمير، وسداد الرأْي مما يشهد له بهِ الخاص والعام. وهو الذي وضع طريقة المكاتبات الرسمية في مجلس حكومة لبنان التي لم تزل جارية عليها إلى الآن. وكان فارسًا مشهورًا يُضرب المثل ببراعته في هذا الفن، كما يضرب المثل بنبوغه في أساليب الإنشاء وصناعة الخط. ولذلك سماه القوم بكل حق «صاحب السيف والقلم».

ولما أُنشئت جريدة «لبنان» الرسمية سنة ١٨٦٧ تولى كتابتها مدةً من الزمان. ونشر عَلَى صفحاتها الفصول الطويلة، والمقالات المفيدة. وكتب بخطه عنوان الجريدة الذي لم يزل مستعملاً فيها حتى الآن. وخلَّف مؤلفات شتى غير مطبوعة في النحو، والمنطق، والفلك، وطبائع الحيوان.

وله ديوان كبير يقع في ٤٧٤ صفحة برز مطبوعًا سنة ١٨٩١ من المطبعة الكاثوليكية في اللغتين العربية والتركية. وهو يحتوي على ما نظمهُ من الشعر في التهنئة، والرثاء، والمدح، والغزل، والحكم، والحماسة، والاستغاثة، والتوة، والألغاز، والمراسلات، والتواريخ الشعرية وغيرها. وبلغ مجموع أبيات ديوانه ٨٢٣٦ منها ٧٧٧٧ بيتًا في القسم العربي، و٤٥٩ بيتًا في القسم التركي. وشعره بالعموم متين القوافي، رشيق المعاني، خالٍ من التعقيد والتكلف. وعَلَى سبيل المثال نورد منه بعض الأمثلة. وربما أَنشده في الحماسة:

مَـن يبتغـي طـولَ الحيـاةِ بذلـةٍ   ميـتٌ عـن الـدنيا بحـال حيـاةِ
ويخـال فـي حـالِ الحيـاة وجـودهُ   مـع أنـهُ حـيٌ بحـالِ ممـاتِ
فالشـهم مَـن يـأتي الحيـاة بهونهـا   ويعـيض عـن طـول البقـاء بوفـاةِ

وقال ارتجالاً هذين البيتين لرجل يسمى «شمعه» ليطبعها عَلَى ورق السكاير باسم نصر الله فرنقو باشا المتصرف الثاني عَلَى جبل لبنان:

يـا سـائلاً ورقًـا للتبـغ مـرَّ عَلَـى   حانوت شمعهْ وخد من أحسن التحفِ
واشـرب هنيئًـا بنصـر الله معتصـمًا   وزيـر لبنـان سـامي القـدر والشـرفِ

وذهب يومًا ومعهُ أحبابهِ لزيارة الشيخ ناصيف اليازجي، ولم يجدوه؛ فنظم له صاحب الترجمة هذه الأبيات وتركها له في بيته وذهب:

أَيـا مفتـي الهـوى ففتيـتَ ظلمًـا   أَجـاز بشـرعكم قطـع الزيـارة
قطعـت بـذا النـوى أوصـال وصـلي   وكـاد القلـبُ أن يبـدي تفـارَهْ
لمـاذا اُلجـورُ يـا كُبـار قـوم   أَلـيس الشـر ينـتج عـن شـرارَهْ
أنـا وأَبيـك كنـتُ نويـتُ صَـرْمًا   ولا أبغـي اللقـاء ولا أذْكـارهْ
وكـم حـاورتُ قلبـي عـن قـدوم   إلـى عليـاك يـا شـيخ الحضـارَةْ
ولكـن جرَّنـي قلـبٌ مشـوقٌ   كقَـوْد الحـر شـطَر بنـي الإمـارةْ
نـقِ الأنصـاف صـاحِ وكـن نصـيفي   وخيـر النـاس مَـن قـد زاد جـارهْ

وقال هذين البيتين وأرسلهما للدكتور كرنيليوس فانديك مع بعض قواعد من خطه إلى تلامذة المدرسة الأميركية وبها:

فانـديكُ يـا ذا الفيلسـوفُ ألا اقتبـلْ عــذري لأنــكَ أنــتَ أوَّلُ عــاذرِ
مـا الحبــرُ يـا حَبـرَ العلـومِ بنـافعٍ فلــذاك خطــي لـم يُـرقْ للنــاظرِ

وقال مهنئًا نصارى سوريا ولبنان بقدوم فؤَّاد باشا ونجلتهم من غدر الأشقياء الثائرين عليهم في فتنة سنة ١٨٦٠ من أبيات قصيدة طويلة:

ســـلامُ الله أقبـــل يـــا عبـــادُ فـــزال الجـــور وانقشـــع العنـــادُ
وصـــبحُ الأمـــن شـــقَّ ظـــلام ظلـــم وضـــاءت مـــن ســـنا العـــدل الـــبلادُ
وأومـــض بـــرق ســـيف الحـــق نصـــرًا عَلَـــى البـــاغين فانقصـــم الفســـادُ
بوفـــد منيـــب ملـــك قـــد تســـامت بـــهِ العليـــا وخـــصّ بـــه الرشـــادُ
فـــؤادٌ فيـــه روح الملـــك حلَّلـــت وراق لعينهـــــا مثـــــوى وزادُ
ومـــذ ثـــارت ببـــر الشـــام قـــومٌ بغـــاةٌ عـــن ســـبيل الله حـــادوا
فحـــرَّك همـــةّ بيمـــين حـــزم وعـــزمٍ منـــهُ تنـــدكُ الطـــوادُ
ولمـــا فـــي ســـما لبنـــان ذرَّت شـــوارقهُ لقـــد خلـــع الحـــدادُ
أفـــاض مراحمًـــا يمًـــا عبابًـــا بصـــيبها علـــى الـــدنيا امتـــدادُ

«١٥»

حسن العطار

كان أهله من المغرب، فانتقلوا إلى مصر، ووُلد حسن في القاهرة سنة ١١٨٠ هـ (١٧٦٦م). وكان أبوه عطارًا استخدم ابنه أولاً في شؤونهِ، ثم رأَى منه رغبةً في العلوم فساعده عَلَى تحصيلها؛ فاجتهد الولد في إحراز المعارف، وأخذ عن كبار مشايخ الأزهر: كالشيخ الأمير،

والشيخ الصبان، وغيرهما حتى نال منهما قسمًا كبيرًا. وفي أيامه جاء الفرنسويون إلى مصر؛ فاتصل بأناس منهم، فاستفاد منهم الفنون الشائعة في بلادهم، وافادهم اللغة العربية. ثم ارتحل إلى الشام وأقام مدة في دمشق. ومما نظمهُ حينئذٍ قوله في منتزهات دمشق:

بوادي دمشق الشام جزْ بي أَخا البسطِ ... وعـرّج عَلَـى بـاب السـلام ولا تخـطِ

ولا تبـكِ مـا يبكـي امـرؤ القـيس حـوملاً ... ولا منـزلاً أودى بمنعـرَج السـقطِ

فـإنَّ عَلَـى بـاب السـلام مـن ألبهـا ... ملابـسَ حسـنٍ قـد حُفظـنَ مـن العـطِ

هنالـك تلقـى مـا يروقـك منظـرًا ... ويسلى عن الأخدان والصحب والرهطِ

عـرائس أشـجار إذا الـريح هزَّهـا ... تميـلُ سـكارى وهـي تخطـر فـي مـرطِ

كسـاها الحيـا أثـواب خضـر فـدُثرت ... بنـور شـعاع الشـمس والزهـر كـالقرطِ

وتجوَّل هذا الشيخ حسن في بلاد كثيرة يفيد ويستفيد، حتى كرَّ راجعًا إلى مصر، فأقرَّ لهُ علماؤُها بالسبق. فتولى التدريس في الأزهر، وقُلد رئاسة هذه المدرسة بعد الشيخ محمد العروسي سنة ١٢٤٦، فدبرها أحسن تدبير إلى سنة وفاته في آخر سنة ١٢٥٠ هـ (١٨٣٥م). وكان محمد علي باشا خديوي مصر يجله ويكرمه. وقد خلّف عدَّة تآليف في الأصول، والنحو، والبيان، والمنطق، والطب. وله كتاب في الإنشاء، والمراسلات تكرَّر طبعه في مصر. وكان هذا الشيخ عالمًا بالفلكيات، لهُ في ذلك رسالة في كيفية العمل بالاسطرلاب، والرُّبَعين المقنطر، والمجيَّب، والبسائط. وكان يحسن عمل المزاوا الليلية والنهارية. وقد اشتهر "أيضًا الشيخ العطار بفنون الأدب والشعر. ومما يروى عنه أنه لما عاد من سياحته في بلاد الشرق رافق إِمام زمانهٍ في العلوم الأدبية السيد

إسماعيل بن سعد الشعير بالخشاب. فكانا يبيتان معًا، ويتنادمان ويتجاذبان أطراف الكلام، فيجولان في كل فن من الفنون الأدبية، والتواريخ، والمحاضرات. واستمرت صحبتهما وتزايدت عَلَى طول الأيام مودتهما إلى أن توفي الخشاب. فاشتغل الشيخ العطار بالتأَليف إلى موته، وله شعر رائق جمع في ديوانه. فمن ذلك ما رواه لهُ الجبرتي (٤ : ٢٣٣) في تاريخهِ يرثي الشيخ محمد الدسوقي المتوفي سنة ١٢٣٠ هـ (١٨١٥ م):

أحاديث دهرٍ قد ألمَّ فأوجعا ... وحلَّ بنادي جمعنا فتصدعا
فقد حال فينا البين أعظم صولةٍ ... فلم يخلِ من وقع المصيبة موعبا
وجاءت خطوب الدهر تترى فكلما ... مضى حادث يعقبهُ آخرُ مسرعا

وهي طويلة قال في ختامها:

سعى في اكتساب الحمد طول حياتهِ ... ولم ترهُ في غير ذلك قد سعى
ولم تلهه الدنيا بزخرف صورةٍ ... عن العلم كما أن تُغرَّ وتخدها
لقد صرف الأوقات في العلم والتقى ... فما أَن لها يا صاح أمس مضيعا
فقدناه لكن نفعه الدهرَ دائمٌ ... وما مات من أَبقى علوماً لمن وعى
فجوزىَ بالحسنى وتُوّج بالرضا ... وقوبل بالاكرام ممن له دعا

وممن مدحوا الشيخ حسن العطار المعلم بطرس كرامة اللبناني فقال فيهِ لما قابله في مصر:

قــد كنــتُ عــنكم كــل نــادرةٍ	حتـى رأيتـك يـا يـؤلي ويـا أَربـي
والله مـا سـمَعت أذنـي بمـا نظـرت	لديك عيناي من فضلٍ ومن أدبِ

«١٦»

(عبدالله أبو السعود)

منشئ جريدة «وادي النيل» في القاهرة

وُلد عبد الله أبو السعود المصري سنة ١٢٤٤ (١٨٢٨) في دهشور قرب الجيزة. ودرس في المدرسة الكلية التي أنشأها محمد علي باشا في القاهرة، فبرع بين أقرانه. ثم ندبتهُ الحكومة إلى نظارة أعمالها، فكان في وقت الفراغ يواصل دروسه ويعكف عَلَى التأليف شعرًا ونثرًا. وحرَّر في جريدة وادي النيل، وكاتب أدباء زمانه. ونقل بعض كتب الفرنج إلى العربية. ومن تآليفه كتاب «منحة أهل العصر بمنتقى تاريخ مصر»، نظم فيهِ مجمل حوادث تاريخ مصر للجبروتي. ووضع تاريخًا لفرنسة أَلحقه بتاريخ ولاة مصر من أوَّل الإسلام، دعاه (بنظم اللآلي). وباشر بترجمة تاريخ عام مطول واسمهُ: «بالدرس التام في التاريخ العام» طبع منهُ قسمٌ سنة ١٢٨٩. وكان أبو السعود شاعرًا مجيدًا له ديوان طُبع في القاهرة، أَودعه كثيرًا من فنون الشعر: كالمديح، والمراثي، والفراقيات. ونبغ في المنظومات المولدة آلاف الأبيات. ولهُ غير ذلك مما تفنن فيه وسبق آل عصره. توفي أبو السعود أفندي في ربيع الأول سنة ١٢٩٥ (١٨٧٨). وقد رثاه أحد شعراء وطنهِ بقصيدةٍ قال في مطلعها:

خُلـق الهبـوط مـع الصـعودْ	ومـــع القيـــام بـــدا القعـــودْ

إلى أن قال:

لــــيس البكــــاء لغـــادةٍ	أبـــدت لمغرمهـــا الصـــدودْ
لكنـــــهُ لمـــــا قضـــــى	ربُّ القـــريضِ أبـــو الســـعودْ
مَــن لــم يُجبــهُ بدمعـــهِ	فكأنمـــا نقـــضَ العهـــودْ
فهـــو الحـــريُّ بـــأن تـــذو	بَ عليـــهِ بالأســـفِ الكبـــودْ
بحـــــرٌ تـــــدفق مـــــاؤُه	لكنـــهُ عـــذبُ الـــورودْ
بقريحـــــةٍ ســـــالت عَلَـــى	أرجائهـــا سُـــبلَ العهـــودْ
كـــم انتجـــت نخبًـــا لـــهُ	فكأنهــــا الأمُّ الوَلـــــود
أبـــــدًا توقـــــدُ بالــــذكا	ءِ فلـــيس يعروهـــا خمـــودْ
نشـــبت مخالبهـــا المنيــــ	ــةُ فيـــه وهـــو مـــن الأســـودْ
لا غـــروَ أن صـــعد الســـما	بـــين الملائكـــة الســـجودْ
فبنـــاتُ نعـــشٍ قـــد حملـــن	ســـريرهُ لَمِـــن الشـــهودْ

لويس شيخو

«١٧»

سليم الخوري

المحرر في جريدة «حديقة الأخبار»

هو سليم بن جبرائيل بن حنا بن ميخائيل بن عبده الخوري، وُلد سنة ١٨٤٣ في بيروت. وقرأ أُصول اللغة العربية وآدابها على الشيخ

ناصيف اليازجي، فاقتبس منهُ الميل إلى صناعة الشعر. فنظم القصائد الشائقة منذ صباه، وترك ديوان شعر نفيس سيبرز قريبًا إلى عالم الوجود. وكان ذا ذوق سليم في الفنون والصنائع. وتعمق خصوصًا في فن الموسيقى حتى بلغ به اجتهاده إلى أن يحسن التوقيع عَلَى أكثر آلات الطرب. وقصد أن يضبط الألحان العربية عَلَى الروابط الإفرنجية، فوضع مقدمة لتأليف مخصوص في هذا الفن، ولكنَّ الأجل لم يفسح له بإتمامه. ثمَّ شرع بوضع «تاريخ سوريا » شعرًا، فنظم منه أبياتًا شتى وتركهُ أيضًا. وسنة ١٨٦٨ انتظم في سلك «الجمعية العلمية السورية»، وله فيها آثار مشكورة. وساعد أخاهُ خليل الخوري في تحرير جريدة «حديقة الأخبار» في قسميها العربي والفرنسي مدة خمس عشرة سنة. وألف رواية «الشاب الجاهل والوصي الغافل» وهي أدبية. وله رواية «نكبة البرامكة»، ورواية «أنطيوخوس بن سلفقوس» وهما مأساتان تاريخيتان. وأنشأ رواية «أمراء لبنان» مع سميه سليم بن ميخائيل شحادة ترجمان قنصلية روسيا.

وفي سنة ١٨٧٣ سافروا إلى وادي النيل حيث قدَّم للخدوي إسمعيل كتابًا يتضمن قصائد التهنئة التي نظمها بمناسبة زفاف أنجالهِ الأمراء توفيق الأول الخديوي السابق، وحسن كامل باشا، وحسن باشا. فسرَّ بهِ إسمعيل باشا وأجازهُ عَلَى ذلك بعطية مالية. ثم سافر إلى القسطنطينية ونال حظوةً لدى أعاظم رجال السلطنة العثمانية الذين امتدحهم بالقصائد الشائقة.

وبعد إيابه إلى وطنه اتفق مع سليم شحادة على وضع كتاب «آثار الأدهار»: وهو المعجم التاريخي الجغرافي الذي كان صدرور الجزء الأوَّل منه في بداية سنة ١٨٧٥ مرتبًا عَلَى الحروف الهجائية. ولما رفعاهُ إلى السلطان عبد العزيز كافأّهما عليهِ بمائتين وخمسين ليرة عثمانية، لأنه أوَّل معجم من نوعه في لسان العرب وسائر الألسنة الشرقية. وقد اقتدى بهما المعلم بطرس البستاني في كتاب «دائرة المعارف» الشهيرة. إلا أنَّ المنية انشبت أظفارها بصاحب الترجمة بعد صدور الجزء الأوَّل من «آثار الأدهار» فمات في ١٠ آب ١٨٧٥ في قرية «سوق الغرب» مصابًا بالهواء الأصفر. ولكنَّ سليم شحادة استأّنف العمل وحدهُ، فطبع باسمه واسم زميلهُ ستة أجزاء أخرى من هذا الكتاب بلغت صفحاتها نيفًا وأَلف صفحة بحجم كبير ولم تتجاوز حرف الباء. وقد أبقى (السليمان) حسرات في القلوب لعدم نجاح هذا المشروع العظيم الذي كان يُرجى من ورائهِ نفع كبير لأَبناء اللغة العربية.

وكان المترجمَ ممتلئ الجسم، طويل القامة، حنطيَّ اللون، شديد الذكاء. وكان كاتبًا بليغًا، وشاعرًا مطبوعًا، ومؤرخًا مدققًا. ومن شعرهِ قصيدة عنوانها «العَوْد الحسن» رفعها للسلطان عبد العزيز سنة ١٨٦٧ لدى رجوعهِ من معرض باريز العام مطلعها:

قد سارتِ الركبُ لا نوقٌ ولا هجنُ — وإنما البحرُ تسري فوقهُ القننُ
سارَ العزيزُ منيرُ الشرقِ مالكنا — للغربِ والنورُ يحيي مَن بهِ قطنوا
شقَّ البحارَ بأَطيارِ النجارِ فقلْ — أَينَ الرياحُ بما لا تشتهي السفنُ

وله قصيدة نظمها في تهنئة نصر الله فرنقو باشا عند تعيينه حاكمًا على جبل لبنان نذكر منها هذه الأبيات:

بنصـــرِ اللهِ والفـــتح القريـــبِ لقـد فـاض السـرور علـى القلـوبِ
ولاح عَلَــى عــلا لبنــان فجــرٌ تبـدّى مـن ضـيا الملـك المهيـبِ
فمـــدَّ بـــأرزهِ كفًـــا لشـــكرٍ يـــردّدهُ بـــأفواهِ اللهيـــبِ
وخـــطَ علـــى عمامتـــه ســـطورًا بـــأقلام مـــن النـــورِ العجيـــبِ

ورثاهُ بعد وفاتهِ عددٌ من العظماء والشعراء منهم محمد راشد باشا وزير الخارجية العثمانية حينئذٍ، فإنهُ أرسل إلى أخيه خليل الخوري أبياتًا تركية رقيقة المعنى. ومنهم جرجس بن إسحق طراد الذي قال:

مَــن لــم نقُــنْ أبـدًا بحـق ثنائـهِ ولـــى فهـــل مـــن قـــائمٍ برثائـــهِ
أَبكــى العيــونَ دمًــا وأودعَ جمــرةً فـي كـل قلـبٍ كـانَ مـن تبعائـهِ
هذا السليمُ سليم قلبٍ قد مضى فمضـى سـليم العهـدِ مـن نظرائـهِ

«١٨»

سليم شحادة

المحرر في جريدة «حديقة الأخبار» ومنشئ مجلة «ديوان الفكاهة»

هو سليم بن ميخائيل شحادة، ولد في بيروت يوم الثلاثاء في ١٤ سبتمبر (كانون الأول) سنة ١٨٤٨م في بيت عُرف بالفضل والعلم. فدرس في المدرسة الأرثوذكسية الكبرى المعروفة بالثلاثة أقمار (التي

أُسست أولاً في سوق الغرب نحو سنة ١٨٥٢) عَلَى أشهر أساتذة عهده، ولاسيما إلياس حبالين. فأتقن عليه الفرنسية والعربية عَلَى بعض الأساتذة، ثم درس الانكليزية والعلوم على بعض المرسلين. وتعمق في التاريخ والجغرافية، وانقطع إلى مكتبته الغنية بالمؤلفات المطبوعة والمخطوطة (مجلة المشرق: ١: ٩٦١) وتبحر في المعارف، وتبسط في التاريخ تبسيطًا كافيًا. وكان يتمرن بمساعدة والده ميخائيل شحادة في القنصلية الروسية التي دخلها في سنة ١٨٦٦. وعُرف بأَصالة رأَيه، وحصافة عقله، ومقدرته في اللغتين العربية والفرنسية. وله مع والده اليد الطولي في تأسيس الجمعية الخيرية الأرثوذكسية في مدينة بيروت. فترأَسها نحو سبع عشرة سنة، وتولى إدارة شئون مدرستها نحو عشر سنوات، فنجحت وازدهرت. وفي أثناء ذلك تجددت «الجمعية السورية العلمية» سنة ١٨٦٨م بعد المغفور لهما راشد ناشد باشا والى سورية، وكامل باشا متصرف لواء بيروت؛ فانتظم المترجم في سلك أعضائها العاملين. ونحو سنة ١٨٨٠م تجدَّد انتظامها ثالثًا باسم المجتمع العلمي الشرقي، وكان من أهم أعضائها مَن نذكرهم بحسب الحروف الهجائية: إبراهيم الحوراني، إبراهيم اليازجي، اسبر شقير، الدكتور اسكندر بك البارودي، بطرس البستاني، جرجس همام، جرجي زيدان، جرجي بني، سليم البستاني، سليم شحادة، سليم نوفل، الدكتور فارس نمر، الدكتور كرنيليوس فان ديك، مراد بك البارودي، نعمة بافث، الدكتور يعقوب صرُّوف، الدكتور يوحنا ورتبات وغيرهم. فألقى المترجم مثل كثير من

زملائه الأعضاء خطبًا شائقة؛ منها رسالات سنيكا الفيلسوف الروماني إلى لوسيليوس نشرت في المجموعيتن الثامنة والتاسعة لأعماله.

ولما نُشرت جريدة «حديقة الأخبار» لصديقه المرحوم خليل أفندي الخوري باللغتين الفرنسية والعربية سنة ١٨٧٠م حسب طلب المغفور له فرنكو باشا ثاني متصرفي لبنان، كان المترجم ينشئ القسم الفرنسي مع زميله المرحوم سليم شقيق صاحب الحديقة. وله فيه مقالات تشهد بطول باعه في السياسة والإنشاء. وعَلَى منضدة مكتب تلك الجريدة اتفق السيمان عضلَي وضع «آثار الأدهار» في التاريخ والجغرافية، وساعده في بعض أبوابها المرحوم أديب إسحق الكاتب الشهير. فطبعا الجزء الأول من القسم الجغرافي في أوائل سنة ١٨٧٥م بالمطبعة السورية في ١٩٢ صفحة. ثم عَلَى أثر ذلك هصرت المنية زميل المترجم بالهواء الأصفر فبقي هو مثابرًا وحده على العمل. وطبع الجزء الثاني في ١٥ نوفمبر سنة ١٨٧٥م، والثالث في ١٣ مارس سنة ١٨٧٦م. ثم الجزئين الرابع والخامس. وجميعها الآن في مجلد واحد لم تتجاوز حرف الباء وصفحاتها ٩٨٠ صفحة بقطع كبير في عمودين بحرف من الجنس الثاني، ونهاية مباحثه بعض تاريخ بلجكا. ومن فوائده أنهُ ذكر فيه جميع قرى ومدن سورية، وأوربا، وأميركا.. إلخ، القديمة والحديثة، وما تقلب عليها، وتاريخ نشأَتها ومميزاتها. ومن إِنصاف المترجم أنه أبقى جميع الأجزاء باسمه واسم زميله الذي عاجلتهُ المنية عَلَى أثر إنجاز الجزء الأول. أما القسم التاريخي فطبع الجزء الأول منهُ سنة ١٨٧٧م في ٣٨٤ صفحة وحفظ فيهِ اسم زميله بعد أن مضى عَلَى وفاته سنتان وفاءً

بحقوق الإخاء. ورفع الكتاب بقسميه خدمة للأعتاب السلطانية. وصدر القسم التاريخي بمقدمة في فلسفة العمران، صدرها بالبحث عن الإنسان وشؤُونه. ثم استرسل إلى علم التاريخ، وأحواله، ومنشأه، ونتائجه، وتقسيمه في ١٤ صفحة بقطع الكتاب وحرفه، وجاء بما لم يجيء به إلا كبار علماء العمران.

وعلى الجملة، فإن «آثار الأدهار» هو أوَّل دائرة للمعارف التاريخية والجغرافية في اللغة العربية مرتبة عَلَى الحروف الهجائية وافية المباحث المفيدة. وعلى أنقاضه قامت «دائرة المعارف» العربية التي أَسسها المرحومان بطرس البستاني، وولده سليم. ولقد ذكر الآثارَ كثيرون من المستشرقين.

ولما أنشأ الصحافي الشهير خليل أفندي سركيس اللبناني مجلة «المشاة»، أنشأ المترجم فيها مقالات هامة في تاريخ الأندلس، وتراجم أهله ونواردهم. ونشر في «المقتطف» مقالة ضافية في الجغرافية وجغرافيي الإسلام. وأنشأ سنة ١٨٨٥ مجلة «ديوان الفكاهة» الروائية بشركة سليم طراد.

وكان رفيع المنزلة بين أصدقائه، وجيهًا في قومه، تولى الترجمة في القنصلية الروسية أعوامًا عديدة. فأنعم عليه القيصر بوسام القديسة حنة الثالث سنة ١٩٠٢، وقضى حياته يخدم السياسة، والعلم. واشتغل في أواخر أيامه بوضع تاريخ مطوَّل للكنيسة لم يتمه. وتوالت عليه المحن في

أواخر عمره بوفاة معظم إخوته، ووالديه مما أثار به الحزن فأّصيب بعلة قلبية ذهبت بحياته في ١٥ أكتوبر ١٩٠٧.

تراجم مشاهير الشرق

«١٩»

(الشيخ يوسف الأسير)

أحد محرّري جريدة «لبنان» الرسمية، «ثمرات الفنون»، و«لسان الحال»

وُلد الشيخ يوسف بن السيد عبد القادر الأسير في ذي القعدة سنة ١٢٣٠ هـ (١٨١٥م) في صيدا. ومال منذ حداثته إلى تحصيل المعارف؛ فقرأَ شيئًا منها على الشيخ أحمد الشرمبالي. ثم ذهب إلى دمشق حيث تعلم في «المدرسة المرادية» مدة سنة. وأثناء إقامته فيها نُعي إليه والده فرجع إلى مسقط رأسه لتدبير أحوال عائلته. ونظرًا لاجتهاده أحب زيادة التعمق في العلوم؛ فسافر إلى القاهرة. وهناك انتظم في سلك تلاميذ الجامع الأزهر الذي كان برئاسة الشيخ حسن العطار. ولما توفي حسن العطار تقلد مشيخة الأزهر سميهُ (حسن القويسني)، فقال فيه أحد الشعراء معترفاً بفضل الحسنين:

ولـئن مضـى حسَـنُ العلـوم لربـهِ	فلقد أَتى حسنُ وأحسَنُ من حسنْ
أنـــتَ المقـــدَّمُ رتبـــةً وئاســـةً	وديانـةً مَـن ذا الـذي سـاواكَ مَـنْ

ولبث الشيخ يوسف الأسير سبع سنين في الأزهر حتى نبغ في جميع العلوم: كالفقه، واللغة، والحديث، والتوحيد، والتفسير، والشعر، والمنطق. وصار إمامًا يُرجع بها إليه. ثم عاد إلى صيدا فلم يطل الإقامة فيها بعد ما درَّس وهذَّب الطلبة الذين كانوا يتهافتون من كل صوب إليه. فسافر إلى طرابلس الشام، وهناك قضى ثلاثة أعوام؛ فأخذ عنهُ العلم كثيرٌ من فضلاء سكانها وغيرهم. ونخص منهم بالذكر السيد يوحنا الحاج بطريرك الموارنة، ويوحنا الحبيب مؤسس جمعية المرسلين المارونية. وكانت بيروت في ذلك الحين أخذت تزهر بالمدراس والمطابع فاختار الإقامة فيها. وتولى في أثناء ذلك رئاسة كتّاب محكمتها الشرعية، وكلفهُ المرسلون (الأميركان) بتصحيح عبارة الكتاب المقدس الذي ترجموه من لغاتها الأصلية إلى اللسان العربي. وعلم بعضهم اللغة العربية: كالدتور عالي سميث، والدكتور كرنيليوس فان دبك. ونظم لهم كثيرًا من الترانيم المستمدَّة مواضيعها من المزامير، والكتاب المقدس؛ وهي مطبوعة بأسرها ومستعملة في الكنائس الإنجيلية. ثم تولى منصب الفتوى في عكا، وتعين مدعيًا عموميًا مدة أربع سنين في جبل لبنان عضلَى عهد متصرفهِ الأول داود باشا. وقد كتب حينئذٍ مقالات في جريدة «لبنان» الرسمية التي أشار إليها في هذه الأبيات:

تـــرى لبنـــانَ أهـــلاً للتهـــاني	فقــد نــالَ الأمــانَ مــع الأمــاني
وأضـــحى جنـــةً مـــن حـــلَّ فيـــهِ	قريـــر العـــين مســـرور الجنـــانِ
وجـــدَّت للعلـــوم بـــهِ دروسٌ	وكانـت فـي الـدروس وفـي التواني
وللأخبـــار قـــد وجـــدت ســـلوك	كذلك طبع ذي الصحف الحسانِ

ثم انتقل إلى الأستانة حيث تعين أستاذًا للسان العربي في دار المعلمين الكبرى، وتولى رئاسة التصحيح في نظارة المعارف، وكتب في جريدة «الجوائب» لمنشئها أحمد فارس. وأثناءَ إقامته في العاصمة العثمانية أخذ العلم عنه... أعاظم رجالها: كالصدر الأعظم، ورشدي باشا شرواني، وأحمد جودت باشا وزير المعارف، ووصفي أفندي رئيس كتاب شورى الدولة، وذهني أفندي رئيس مجلس المعارف، والمسيو بوره سفير فرنسا، وغيرهم.

ولما ثقلت عليه وطأة البرد في الأستانة زايلها عائدًا إلى بيروت. فأخذ يعلم في مدارسها الكبرى كالمدرسة الوطنية للبستاني، ومدرسة الحكمة للمطران يوسف الدبس، والكلية الأميركانية، ومدرسة «ثلاثة الأقمار» للروم الأرثوذكس وغيرها. وأكبَّ على التأليف فوضع كتابًا في الفقه سماه «شرح رائض الفرائض»، وشرَحَ كتاب «أطواق الذهب» للزمخشري. وألف رواية تمثيلية سماها «سيف النصر»، وأَرصد ربعًا لمشتري أدوات لجريدة «ثمرات الفنون» عند أوَّل نشأَتها. وطبع كتاب «رد الشهم الشهم» جوابًا عَلَى كتاب «السهم الصائب» الذي انتقد فيهِ الشيخ سعيد الشرتوني كتاب «غنية الطالب» لأحمد فارس الشدياق. وله قصائد، وموشحات، وأبيات حكيمة جُمعت في ديوانه «الروض الأربض» المطبوعِ في بيروت. غير أنَّ هذا الديوان لا يحتوي إلاَّ عَلَى النزر اليسير من أشعار صاحب الترجمة، لأنَّ كتاباته وأكثر مؤلفاته احترقت فذهبت فريسة النار.

وللشيخ ناصيف اليازجي قصيدة نفيسة مدح بها صاحب الترجمة وقرَّظ فيها الديوان المذكور، نقطتف منها هذه الأبيات:

أسير الحق في حكم تساوى فما يُدرى الحبيبُ من البغيضِ
يقلب في المسائل كل طرفٍ ويلقى الناسَ بالطرْفِ الغضيضِ
إِمامُ الشعر يبتدعُ القوافي ويأمن دونها حوْلَ القريضِ
يقالُ لهُ الثناء ولو أخذنا قوافيه من الروضِ الأريضِ

وتولى رئاسة جريدتي «ثمرات الفنون»، و«لسان الحال» مدة من الزمان. وقد توفاه الله في ٢٨ تشرين الثاني ١٨٨٩ (١٣٠٧ هـ) مشكورًا بكل لسان؛ لرقة أخلاقهِ، وزهده في حطام الدنيا، وحبه لنشر المعارف. ومن الذين درسوا عليهِ ف آخر حياتهِ غريغوريوس الرابع البطريرك الأنطاكي للروم الأرثوذكس، والدكتور مررتين هرتمان أستاذ اللغة العربية في مدرسة الألسن الشرقية في برلين. ورثاه كثير من الشعراء وأرباب الصحف في الأستانة، وسوريا، ومصر معددين فضائله. فاعتنى بجمعها الشيج قاسم الكسني ونشرها بالطبع في كتاب مخصوص. ومن الترانيم النفيسة التي نظمها للمرسلين الأميركيين ترنيمة تتضمن «وصايا الله العشر» وهي:

غيــــري إِلـــــهُ لا يكـــــن	لا تســــــــجدّنَّ للصـــــــــنمْ
لا تأخــــذِ اســــمي بـــــاطلاً	ولا تهنـــــــــهُ بالقســـــــــمْ
والســــبتَ فـــاحفظ واصــــنعنْ	لوالـــــــديكَ المكرُمــــــــةْ
والقتـــــلَ فاحـــــذرْ والخنـــــى	فــــــي عمـــــلٍ أو كلمـــــةْ
لا تخـــــــتلس شـــــــيئًا ولا	تكـــذِبْ وَقـــل قـــوْلَ التقـــى
ولا تكـــــــــنْ مشـــــــــتهيًا	مـــــا للقريـــــبِ مطلقـــــا
وكـــــلَّ هـــــذي جَمَعـــــت	وَصــــيةُ الفـــادي الحبيـــبْ
أحِبــــبْ بجُهـــــدٍ رَبَّنـــــا	وَأحبـــب كنفســـكَ القريـــبْ

ومن المراثي التي تُليت بعد الصلاة عليهِ في الجامع العمري الكبير قصيدة لشيخ سليم الجارودي مطلعها:

مــن الــدنيا لقــد ســارَ الأَســيرُ	إلـى الأُخـرى فيـا نِعـمَ المسـيرُ
إمـــامٌ كـــان للأفضـــال قطبًـــا	عليــــهِ مــــدارها أبـــدًا يـــدورُ
مصــابٌ هــدَّ ركــنَ العلــمِ حزنًــا	عليـــهِ وأَظلـــمَ الفلـــكُ الأَثيـــرُ

«٢٠»

محمد بيرم الخامس

المحرر في «الرائد التونسي» ومنشئ جريدة «الأعلام» في القاهرة

هو من علماء تونس ووجهاتها، ومن أكثر المسلمين تفانيًا في نصرة الإسلام، وُلد في تونس سنة ١٢٥٦ هـ (١٨٤٠). ويتصل نسبه ببيرم أحد قوَّاد الجند العثماني الذي جاءَ تونس بقيادة سنان باشا سنة

١٩٨١هـ. تفقه في جامع الزيتونة ونشأ حرَّ الضمير يكره الاستبداد. فسرَّه إنشاء مجلس الشورى في تونس عَلَى عهد الصادق باشا، وكان من أكبر نصرائهِ، وتولى رئاسة المجلس الوزير خير الدين باشا. وتعيّن بيرم سنة ١٢٨٧ مدرسًا في الجامع المذكور، وبعد سنتين توفي والده عن ثروة طائلة.

وظهرت في أثناء ذلك فتنة عمومية في الايالة التونسية على أثر انحلال مجلس الشورى، فشقَّ ذلك عليهِ، وتمكنت علائقه مع خير الدين باشا من ذلك الحين لاتفاقهما في النقمة على الحكومة.

وفي سنة ١٢٩٠هـ عاد خير الدين باشا إلى الوزارة الكبرى في تونس. فجاهر بيرم بنصرته وصرَّح بآرائه السياسية عَلَى صفحات الجرائد وهو أوَّل من تجاسر على ذلك هناك. وأعجب الوزير بنشاطه وتعقله، فعهد إليه إدارة الأوقاف سنة ١٢٩١هـ؛ فأحسن إدارتها ونظمها. وأصيب في السنة التالية بانحراف حملهُ عَلَى السفر إلى أوربا للاستشفاء، ولقى في باريس المارشال مكماهون فأكرمهُ. وحضر المعرض العام وشاهد كثيرًا من ثمار قرائح أهل هذا التمدن. فلما عاد إلى تونس أخذ في تنظيم مستشفاها على نحو ما رآه في مستشفيات أوربا.

ووقع في أثناء ذلك بين قنصل فرنسا الكونت دوسانسي. والحكومة التونسية نِزاع على بقعة أرض كانت الحكومة منحتهُ إياها لتربية الخيل على شروط أَخلَّ بها. فأرادت استرجاعها فأَبى، وبينما هي تنازعه

وتجادله عليها ذهب الوزير وهو يومئذٍ مصطفى بك إسماعيل إلى تلك الأرض، ودخلها عنوةً في زمرة من أعوانه. فاغتنم القنصل هذا التعدي لتمكين سيادة دولته في تونس. فرفع أمره إليها وطلب عزل الوزير، فخاف هذا وأسرع إلى الترضية، فعينوا لجنة تحكيم كان بيرم أحد أعضائها. فأخذ جانب الدفاع عن الحكومة قواه، وكان نحيف البنية مصابًا بمرض في الأعصاب الموصلة بين المعدة والقلب مع ضعف شديد في الدم يستخدم المورفين لتسكين آلامه. فأثر ذلك في صحته واضطر أن يشخص إلى باريس للاستشفاء. وأما اللجنة فصدر حكمها لمصلحة القنصل.

ونهض التونسيون عَلَى أثر ذلك يطلبون الجنوح من الحكم الاستبدادي إلى الشورى. وسعوا في ذلك سعيًا حثيثًا، لم يأتِ بنتيجة لأن أمير البلاد يومئذ لم يعضد مطالبهم. ويقال إن ذلك كان بتحريض فرنسا لأنها تعتقد أن الحكومة الدستورية تخالف مصلحتها هناك. وأما بيرم فقد كان في مقدمة الراغبين في الشورى، وعاتبهُ الأمير عَلَى تعضيده الأهالي في مطالبهم. فأجابهُ بحرية لمُ يعهد مثلها وبين له خطأَهُ.

وتوجه تلك السنة إلى باريس كالعادة، واغتنم وجوده هناك ورفع تقريرًا مسهبًا يشكو فيه سوء تصرف القنصل ووقوفه في سبيل كل مشروع نافع للبلاد. وبلغ خبر ذلك إلى القنصل فزاد غضبًا ونقمة. واتفق في سبب طلب التونسيين الشورى أن الدول كانت مشغولة بخلع إسمعيل باشا خديوي مصر، وكان الصدر الأعظم في الأستانة يومئذ خير الدين

باشا. ونظرًا لما يعلمونه من علائق بيرم بخير الدين، استنتج الفرنسويون أن مطالب التونسيين لم يكن الغرض منها إلا فتح السبيل لمداخلة الباب العالي، واتهموا صاحب الترجمة أنه الواسطة بذلك. ولما بلغهُ الخبر استعفى من منصبه في تونس، وعزم على البقاء بعيدًا عنها، لكنه عاد إليها بعد إلحاح أصدقائه. وكان قد فهم وهو في باريس رغبة فرنسا في ضم تونس إلى أملاكها ضمًا كليًا، وأنها أغرت الوزير مصطفى فمالأها طمعًا بالترقي. فذهبت آمال صاحب الترجمة بإنقاذ بلاده، فعزم عَلَى الخروج منها، فلم تأذن الحكومة بسفره.

فاحتال بطلب الرخصة للحج فأُذن له، فخرج سنة ١٢٩٦ وجاءَ مصر وسافر منها إلى الحرمين. ثم يمم سوريا فالقسطنطينية فأحسنت الدولة وفادتهُ. ولكن الوزير التونسي كتب إلى الباب العالي بإرجاع الشيخ بيرم لأنهُ لم يقدم حسابًا عن إدارة الأوقاف التي كانت في عهدته، فنصره خير الدين ولم يسامه. ولما تم لفرنسا ضم تونس إلى أملاكها سنة ١٢٩٨ عزلت الوزير مصطفى وعاملته معاملة الخائن.

واشتغل الشيخ محمد بيرم في أثناء إقامتهِ في الأستانة بالكتابة والتحرير. وراعى صحتهُ فتحسنت كثيرًا، وقلَّ استعماله للمورفين. وكانت وجهتهُ النظر في ما آل إليهِ حال البلاد الإسلامية من طمع الأجانب، ووصفُ الأدوية لملافاة ذلك، ولم يجدِ الكلام نفعًا.

ولما تحقق رسوخ قدم فرنسا بتونس بئس من العودة إليها. فأراد أن يكون قريبًا من أهله، فانتقل إلى مصر بعد الحوادث العرابية سنة ١٨٨٤ وقد باع أملاكه في تونس ونقل عائلته منها. وأنشأ في مصر جريدة سياسية اسمها «الأعلام» تصدر ثلاث مرات في الأسبوع، ثم صارت أسبوعية. وكانت خطبتها محاسنة الإنجليز والاستفادة منهم. فانتقد بعضهم عليه هذه الخطة لأنها تخالف ما كان عليه في تونس، وأنهُ إنما هجرها فرارًا من الحكم الأجنبي؛ فكيف يكلف المصريين عكس ذلك؟ ولكن الذين يرون رأُيه كانوا يعتذرون بأنه إنما حث على محاسنة الانكليز والاستفادة منهم، لأن معاكستهم وأمر البلاد في أيديهم لا يجدي نفعًا، وأن مجافاة الفرنساويين أوجدت أسبابًا ساعدتهم على ضم تونس إلى بلادهم. وقد ألجأه إلى انتهاج هذا المسلك أيضًا ما قاساه من ظلم الحكم الاستبدادي في تونس، وما آنسه من العوامل المحركة في مصر بإغراء بعض الأجانب الذين يغرون صدور الناس على حكامهم مما يعود بالضرر، واضطر بعد إقامته سنتين بمصر أن يعود إلى أوربا، فتمم سياحاتهُ فيها. وعاد إلى مصر فعينتهُ الحكومة سنة ١٨٨٩ قاضيًا في محكمة مصر الابتدائية. وكثيرًا ما كلفته الوزارة كتابة ملاحظتها على القضاء الشرعي لأنهُ كان واسع الاطلاع فيهِ. وما زال عاملاً مجتهدًا رغم ما يتعوره من المرض، حتى توفي سنة ١٣٠٧هـ (١٨٨٩م).

وقد خلف آثارًا كتابية أكبرها كتاب «صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار» طبع بمصر في خمسة أجزاء. وهو عبارة عن رحلة عامة في أوربا، ومصر، والشام، والحجاز، وغيرها. وكر فيها كثيرًا من الحقائق التاريخية، والاجتماعية

عن بلاد العرب، وتونس، والجزائر لا تجدها في كتاب آخر. وأكثرها شاهدهُ بنفسه، أو كان داخلاً فيهِ، ولاسيما تاريخ تونس والجزائر.

وله ما خلا ذلك رسالة «تحفة الخواص في حل صيد بندق الرصاص»، ومختصر في فن العروض، ورسالة في «التحقيق في شأن الرقيق» بحث فيها عن كيفية معاملة الرق عند المسيحية، وان منع الحكومات الإسلامية لتجارة الرقيق شرعي. وكتاب «تجريج الأسنان للرد على الخطيب رينان» رد فيهِ على ما كتبهُ رينان في الإسلام والعلم. ورسالة في جواز ابتياع أَوراق الديون التي تصدرها الممالك الإسلامية حتى تبقى أموال المسلمين في بلادهم ولا يحجبهم عنها اشتباه الربا وهو لا ينطبق في هذه الحالة عليها. وألف كتابًا مسهبًا في شأن التعليم بمصر، فيهِ إلى وجوب انتشاره باللغة العربية لسهولة تناوله وتعميمه بين طبقات الناس. وله كتابات أخرى لم نقف على أسمائها. ويؤخذ من مجملها أن صاحب الترجمة كان من محبي الإصلاح، وتقريب المسلمين إلى عوامل التمدن الحديث، وإزالة ما قد يعترضهم من أشباه الموانع الدينية على نحو ما كان يفعله الشيخ محمد عبده رحمهما الله.

جرجي زيدان

«٢١»

فرنسيس مرَّاش

كانت منزلة آل مرَّاش بين نصارى حلب بنهضتهم الأدبية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر كمنزلة آل اليازجي، وآل البستاني

في لبنان والديار الشامية. فإنهم أَيقظوا روح المعارف في أبناء وطنهم وخدموا العلوم بالتأليف والصحافة. واشتهروا منذ القرن الثامن عشر بالوجاهة، وطيب الأرومة، والصيت الحسن. ومنهم قام الشاب بطرس بن نصر الله مراش الذي استشهد في سبيل دينه في ٦ نيسان ١٨١٨ عَلَى يد خورشيد باشا والي حلب مع عشرة شبان آخرين[١]. وقد رثاه حينئذٍ الشاعر الكبير نقولا الترك بقصيدة طويلة نورد منها بعض أبيات وهي:

كم يشتكي قلبي الموجع كلما	قد مضهُ الهمُّ الذي قد كلما
ما حسرة الثكلاء ما الخنساء مذ	كانت تئن توجعًا وتألما
تبكي نعم لكن عَلَى صخر الفلا	وأنا على صخر العلى أبكي دما
سلت يد الباغي الذي قد أهرقت	دمه الزكيَّ وحللَّت ما حرما
لله فجعة بطرس كم فتتت	كبدي وألقت في فؤادي أَسهما
وافي إلى سفك الدما بشهامةٍ	وغشي المنايا مسرعًا متقحمًا
وانضمَّ منحازًا مع الشهداء في	جنان خلدٍ بالسماء منَّعما
فلذلك قلتُ صلِوهُ تمجيدًا بتا	ريخي ففي دمهِ الزكي ورث السما

ثم اشتهر فتح الله مرَّاش وكان ذا إلمام وافر باللغة العربية وآدابها، وترك منها آثارًا مخطوطة. وسنة ١٨٥٠ سافر إلى فرنسا لضرورة دعت إلى ذلك فمكث فيها ثلاث سنين. وقد استصحب معه شعرًا ونثرًا. وإليك ما ورد في كتاب «الآداب العربية في القرن التاسع عشر» عن أخباره باختصار:

---

(١) راجع تفاصيل هذه الحادثة في كتابنا «السلاسل التاريخية في أساقفة الابرشيات السريانية» المطبوع سنة ١٩١٠ صفحة ٢٣٥.

وُلد فرنسيس بن فتح الله بن نصر الله مرَّاش في ٢٩ حزيران سنة ١٨٣٦، ثم تلقن العلوم اللسانية وآداب الشعر. وانكبَّ عَلَى دراسة الطب أربع سنوات تحت نظارة طبيب انكليزي كان في الشهباء. وأراد أن يتم دروسه في عاصمة الفرنسيس فسافر إليها في خريف سنة ١٨٦٦. وقد وصف سفره إليها إلى وطنهِ وتفرَّغ للتصنيف رغمًا عما أصابه من ضعف البصر وانحطاط القوى، حتى أفل نجم حياتهِ فمات سنة ١٨٧٣ في مقتيل الكهولة. وكان فرنسيس صادق الإيمان، كثير التدين. وقد ألف كتابًا بناه على مبادئ العلوم الطبيعية والعقلية بيانًا لوجود الخالق، وإثباتًا لحقيقة الوحي، سماه «شهادة الطبيعة في وجود الله والشريعة»؛ أعرب فيهِ عن دقة نظر ومعرفة بأحوال الطبيعة والعلوم العصرية. ومن مصنفاتهِ التي جمعت بين الفلسفة والآداب فأودعها آراءَهُ السياسية والاجتماعية على صورة مبتكرة؛ كتاب «غاية الحق» الذي طُبع في حلب سنة ١٨٦٥، ثم كرر طبعه في بيروت ومصر. ومثله كتاب «مشهد الأحوال» المطبوع في بيروت سنة ١٨٨٣ على أسلوب لطيف ونسق حديث.

وفي بيروت طُبعت له رواية حسنة دعاها «درّ الصدف في غرائب الصدف». ومما طبعهُ قبلها في حلب كتاب «المرآة الصفية في المبادئ الطبيعية» (١٨٦١م)، لخص فيهِ أصول علم الطبيعة. ثم خطبة في «تعزية المكروب وراحة المتعوب» (١٨٦٤م)، وكتاب «الكنوز الغنية في الرموز الميمونية» (١٨٧٠م)؛ وهي قصيدة في نحو خمسمائة بيت

ضمنها رموزًا خفية على صورة رواية شعرية. ومن نظمهِ أيضًا «ديوان مرآة الحسناء» طبعه له محمد وهبه سنة ١٨٧٣ في بيروت.

وكان فرنسيس المراش يحبُّ في كلامهِ الترفع عن الأساليب المبتذلة؛ فيطلب في نثره ونظمه المعاني المبتكرة، والتصورات الفلسفية، فلا يبالي بانسجام الكلام وسلاسته. فتجد لذلك في أقواله شيئًا من التعقيد والخشونة مع الأغضاء عن قواعد اللغة. فمن شعره ما قاله يشكو الدهر:

دَمَت قلبي نبال الدهر حتى	رأَيتُ دمي يسيل من العيونِ
فلو كان الزمان يُصاغُ جسمًا	لكنتُ أُذيقه كاس المنونِ

ومن أشعارهِ الحكيمة قولهُ:

صدقوني كلُّ الانام سواءٌ	من ملوكٍ إلى رُعاة البهائمْ
كلّ نفسٍ لها سرورٌ وحزنٌ	لا قني في ولائمٍ أو مآتمْ
كم أمير دستهِ بات يشقى	بالُهُ والأسير في القيدِ ناعمْ
أصغرُ الخلق مثل أكبرها جر	مًّا لهذا وذا مزايا تلائمْ
والخلايا للنحل أعجبُ صنعًا	من قصور الملوك ذات الدعائمْ

وكان فرنسيس المرَّاش يراسل أهل الفضل في زمانهِ كالشيخ ناصيف اليازجي وغيره. وله آثار عديدة وفصول إنشائية، وقصائد، وأراجيز نشرها أرباب الجرائد في عهده كأصحاب «الجوائب»، و«النحلة»، و«الزهرة»، و«الجنان»، و«النشرة الأسبوعية»، و«المشتري»، و«البشير»،

و«المجمع الفاتيكاني»، و«مرآة الأحوال»، و«الجنة» وغيرها. وقد رثاه الأديب المرحوم بشاره الشدياق فقال يذكر تآليفه:

تركــتَ يــا مفــردا شــأنًا يــذكرنا ... شذاه كالمسك لما فاح في الطللِ
من مشهد قد جلا الأحوال بان لنا ... منـهُ عجائـب أفعـالٍ بـلا خلـل
ومن غرائب ما شاهدت من صدفٍ ... أبهى من الدر أو أشهى من العسلِ
ورحلة سرتَ فيها قد حوت حكمًا ... صيغت من الدر من قولٍ ومن عملِ

ونقشت أخته مريانا الشاعرة الشهيرة على نعش أخيها فرنسيس بعد وفاته هذين البيتين:

ويلاه من جور دهر قد أحلَّ بنا ... مصائبًا شأنها أن تصدع الحجرا
يشتت الشمل منها حيثما نزلت ... تفني الجميع ولا تبقي له أثرا

«٢٢»

الدكتور كرنيليوس فانديك

(قـال علـم الطـبْ لمـا ... قـد قضـى ذاكَ الهمـامُ)
(مـات فنـديك النطـامي ... فعلـي أطيـب السـلامُ)

ولُد الدكتور كرنيليوس فان ديك في ١٣ أغسطس (آب) سنة ١٨١٨ في قرية كندرهوْك من أعمال ولاية نيويورك بأميركا، وولد غيره سبعة هو أصغرهم. وكان في صغره يتعلم في مدرسة قريته، فامتاز بالاجتهاد والثبات، وبرع في اليونانية، واللاتينية حتى حاز نصب السبق على رفقائه وكانوا كلهم أكبر منه سنًا.

وكان أبوه طبيبًا فجعل يدرس الطب حتي صباه عليهِ، وكان يخدم في صيدليته فأتقن فن الصيدلة فيها علمًا وعملاً. ولما حصل ما تيسر له الحصول عليه عند أبيهِ جعل يتلقى الدروس الطبية في سبرنكفيلد، ثم أتمَّ دروسه في مدرسة جفرسن الطبية بمدينة فيلادلفيا من مدن الولايات المتحدة، حيث نال الدبلومة، والرتبة الدكتورية في الطب. وكان تعلمهُ في هذه المدرسة عَلَى نفقة ذويهِ؛ فكانت مساعدتهم هذه أساسًا للأعمال العظيمة التي عملها في سورية وسائر البلدان العربية من التعليم، والتهذيب، والتأليف، وخدمة الصحافة، وأنشاء المدارس.

وفي الحادية والعشرين من عمره فارق الخلان والأوطان، وأتى سورية مرسلاً من قبل مجمع المرسلين الأميركيين. وكان قد سبقهُ طبيب آخر أميركي وهو الدكتور آسادوج الذي توفي في القدس سنة ١٨٣٥ بعد إقامته فيها نحو سنتين. وكان وصول الحكيم فتنديك بعد نحو ٥ سنوات لوفاته. وحل في بيروت في ٢ أبريل (نيسان) سنة ١٨٤٠، ولكن لم تطل إقامته فيها حتى قام منها بايعاز المجمع المذكور. وأتى القدس طبيبًا لعيال المرسلين الذين كانوا فيها أيام فتوح إبراهيم باشا في بلاد الشام. فأقام فيها تسعة أشهر ثم قفل راجعًا إلى بيروت حيث شرع في درس العربية. وحينئذٍ تعرَّف بالمرحوم بطرس البستاني وكانا كليهما عزبين. فسكنا معًا في بيت واحد، وارتبطا من ذلك العهد برباط المودة والصداقة، وبقيا عَلَى ذلك طول الأيام حتى صار يُضرب المثل بصداقتهما. ولما توفي البستاني كان أشد الناس حزنًا عَلَى فقده حتى أنه لما طُلب منه تأبينهُ خنقته العبرات وتلعثم لسانهُ عن الكلام. وبقي برهة

يردد قوله «يا صديق صباي» حتى لم تعد ترى بين الحاضرين إلا عينًا تدمع وقلبًا يتوجع.

وجعل يدرس العربية عَلَى الشيخ ناصيف اليازجي، ثم عَلَى الشيخ يوسف الأسير الأزهري، وغيرهما من علماء اللغة. وبذل الجهد في درسها والأخذ بحذافيرها حتى صار من المعدودين في معرفتها، وحفظ أشعارها، وأمثالها، وشواهدها، ومفرداتها، واستقصاء أخبار أهلها، وعلمائها، وتاريخها، وتاريخهم. فهو بلا ريب أول افرنجي أتقن معرفة العربية، والنطق بها، والبيان، والتأليف فيها، حتى لم يعد يمتاز عن أولادها. وبقي على ذلك إلى خريف سنة ١٨٤٢ ثم انتقل إلى عيتات؛ وهي قرية بلبنان. واقترن هناك بالسيدة جوليا بنت مستر آبت قنصل انكلترا في بيروت المشهورة بفضلها وحسن أخلاقها. ثم انتقل من عيتات إلى قرية (عبية)، وهناك أنشأ مع صديقه بطرس البستاني مدرسة عبية الشهيرة. وشرع من يومهِ في تأليف الكتب اللازمة للتدريس في تلك المدرسة. فألف كتابًا في الجغرافية، وآخر في الجبر والمقابلة، وآخر في الهندسة، وآخر في اللوغارثمات، وفي المثلثات البسيطة والكروية. وفي سلك الأبحر والطبيعيات، وقد طبع بعضها وبعضها لم يُطبع. وبعد أن قضى في عبية أربع سنوات عَلَى ما ذكرنا في التدريس والتأليف، دعاه مجمع المرسلين إلى صيدا؛ فلبث فيها سبع سنين وسافر سنة ١٨٥٣ إلى مسقط رأسه، وفي تموز سنة ١٨٥٤ رجع إلى سورية. وعند وفاة الدكتور سميث سنة ١٨٥٧ تعين من المرسلين في سورية بتصديق المجمع الأميركي، وجمعية الكتب المقدسة لترجمة كتابه تعالى. فشمر

عن ساعد العزم وأخذ يعاني المشاق بتجسم المصاعب بتطبيق كل كلمة عَلَى أصلها حتى تم له ذلك. وكان في هذا الأثناء متوليًا إدارة المطبعة الأميركية المشهورة، وحسن فيها وزاد الشكل عَلَى الحروف حتى صارت من أحسن مطابع المشرق وأشهرها. وأتم الترجمة سنة ١٨٦٤، وبعثه مجمع المرسلين إلى الولايات المتحدة سنة ١٨٦٥ ليتولى أمر طبعها، وعمل الصفائح الكهربائية لها هناك. فأقام في الولايات المتحدة سنتين حتى أتم ذلك وعاد إلى سورية سنة ١٨٦٧.

وفي تلك الأثناء تم أمر إنشاء «المدرسة الكلية السورية» في بيروت على نفقة جماعة من أهل الخير في الولايات المتحدة بأميركا. فعرضت عليهِ عمدتها الكبرى في أميركا أن يكون أستاذًا فيها، فأجابها إلى ذلك. ثم طلبت إليه أن يعين راتبهُ السنوي بنفسه، فكتب ٨٠٠ ريال مع أن راتب أصغر أستاذًا لا يقل عن ١٥٠٠ ريال، وقد فعل ذلك حباً بخير البلاد ونفع أهلها.

ولما وصل إلى بيروت باشر ترتيب المدرسة الكلية الطبية مع صديقهِ الفاضل الدكتور يوحنا وتبات. ووضعًا نظامًا لدروسها، وشرعا في التعليم من ساعتهما لا يحاسبان على أتعاب، ولا ينتظران من أحد تبجيلاً لقدرهما ومدحًا لاسميهما. بل أن الدكتور (فان ديك) لما رأَى أن المدرسة تفتقر أستاذًا يدرّس الكيمياء فيها أقبل من فوره على تدريسها حال كونه معينًا أستاذًا لعلم الباثولوجيا وحده، ولم يكن في المدرسة حينئذ من كل أدوات الكيمياء إلا قضيب من زجاج، وقنينة عتيقة؛ فأنفق

من ماله مئتي ليرة انكليزية على ما يلزم من الأدوات. ولم يكن في يد التلامذة كتاب يطالعون فيه، فجعل يلقي العلم عليهم خطبًا مبتدئًا بالتجارب الكيماوية، ومستطردًا من الجزيئات إلى الكليات على أسلوب يقرّب هذا العلم من الأفهام، ويرسخ حقائقهُ في الأذهان. وألّف حينئذ كتابًا مختصرًا في مبادئ الكيمياء، ثم توسع فيه وطبعهُ على نفقتهِ، وهو يعلم أنه لا يسترجع نفقات طبعهِ قبل مماتهِ. وبقي يدرّس هذا الفن ست سنوات متواليات، وينفق على لوازم التدريس من جيبهِ. وجاء أستاذ الكيمياء وبقي سنتين من الزمان يدرس العربية، والدكتور فان ديك يدرْس مكانهُ مجانًا حبًا لصالح المدرسة، وخير أبناء البلاد. ولما تولج أستاذ الكيمياء أشغاله اعتزل الدكتور فان دبك عنها، وترك للمدرسة كل ما أنفق عليها، ولم يأخذ مقابله إلا مئة ليرة انكليزية.

ولم يقتصر على هذا التبرع، بل أنه تولج منصب أستاذ ثالث وهو أستاذ علم الفلك. وذلك أن المدرسة لم يكن عندها مال يقوم بنفقة أستاذ لهذا العلم. فتبرَّع بتدريسه مجانًا وألف له كتابًا مسهبًا وطبعهُ على نفقته أيضًا، كما طبع كتاب الأنساب، والمثلثات، والمساحة، والقطوع المخروطية، وسلك الأبحر. ولم يكن في المدرسة آلات فلكية يُعتدُّ بها، فما لبثت أن شرعت في بناء مرصدها حتى ابتاع له آلات بسبعمائة ليرة انكليزية من ماله الخاص و..... وفرش فيه على نفقتهِ. وكان أسلوبه في تعليم الكيمياء والباثولوجيا مبنيًا على العمل والمشاهدة، حتى يجد الطالب فيهِ لذةً قلما يجدها في درس العلوم العويصة كهذا العلم.

وأنشأ للمرصد سلمًا كبيرًا حتى صار معروفًا في المشارق والمغارب، مقصودًا من القريبين والبعيدين، مراسلاً لأشهر مراصد الأرض. ولما خلفه الدكتور فارس نمر في تدريس علم الفلك الوصفي ألف كتابًا في الفلك العملي، وجعل يعلّم بهِ الطلبة على الآلات. وكان مع تدريسه علم الباثولوجيا، وعلم الكيمياء، وعلم الفلك يتولى إدارة المطبعة الأميركية؛ فينقح ما يطبع فيها من الكتب، ويهتم بتأليف جريدة «أخبار انتشار الإنجيل»، وجريدة «النشرة الشهرية»، وجريدة «كوكب الصبح المنير»، ثمَّ «النشرة الأسبوعية»، ويطيب في مستشفى ماري يوحنا؛ حيث كان يتقاطر إليه المرضى أفواجًا أفواجًا حتى يبلغ عددهم الألوف في السنة. وما بقي من الوقت الذي يخصصه البعض بالنزهة، والرياضة، والراحة، والنوم كان يقضيه في تأليف الكتب العلمية والطبية، والدرس، والمطالعة، والتجارب العلمية، وحضور الجمعيات النافعة، ومراسلة العلماء في سائر أقطار الأرض. حتى كان أهل بيته لا يرون منه أكثر مما يرى منه الغريب، وكل ذلك قيامًا بالواجبات التي يعجز جماعة من الرجال عن القيام بها.

ومن مزاياه أنهُ لم يكن يؤخر إلى الغد عملاً يقدر أن يعمله اليوم. ولذلك كنت تراهُ معدًّا كل ما يطلب منهُ قبل زمان طلبه. وكان كلما طلب منهُ أهل بيته أيام اشتغاله في المدرسة الكلية أن يستريح بين عمل وآخر، ويؤخر الأشغال إلى أوقاتها حرصًا على صحته، يجيبهم: «أخاف أن يفاجئني مرض، أو يعارضني معارض، فأكون سبب خسارةٍ لكل من تتعلق أشغالهم ومصالحهم بي. فالواجب عليَّ أن أكون سابقًا في إنجاز

أشغالي، حذرًا من ذلك». ولكثرة اهتمامه بأشغال المدرسة، واشتغاله بمصالحها عن غيرها، كان أصحابهُ يكلمونه في ذلك فلا يسمع لهم، حتى صار من الأقول الشائعة بين معارفهِ: إنك إذا رميتَ أن تكون على رضا مع (فان ديك)، فإياك أن تشغله بشاغل عن المدرسة الكلية. وإذا أردت أن تسر قلبه، فكلمهُ عن المدرسةو والتلامذة، والمرصد، والتأليف. وقد ألّف أثناء وجوده في المدرسة الكلية كتابهُ في الباثولوجيا؛ وهو مجلد ضخم، وكتبًا في التشخيص الطبيعي، وفي الكيمياء، وفي الفلك الوصفي، وفي المثلثات، والمساحة، والقطوع المخروطية، وكلها مطبوع. وألف كتابًا في الفلك العلمي، وآخر في أمراض العين، وآخر في تخطيط السماء وقد طُبع حديثًا.

وكان تعليمه متين التحقيق، متأَنيًا في التقرير، حسن الفكرة. حافظًا للمسائل، صحيح النقل، جامعًا بين العلوم القديمة والحديثة، ذاكرًا التجارب الماضية، مطلعًا وراويًا الاكتشافات الحاضرة، كثير الإحسان للطلبة؛ معلمًا ناصحاً وأَبًا صالحًا، يشجع الأقوياء، ويرق للضعفاء، ويشفق على البلداء. وقد تخرَّج على يده في الكلية السورية سبعون طبيبًا، وسبعون بكلوروسيًا، وسبعة صيادلة كلهم أخذوا الشهادات وتشوفوا بمصادفتهِ عليها بخط يدهِ. وأكثرهم عنهُ حبَّ العلم أخذوا. ومن مآثره أنه أخرج على يدهِ كثيرٌ من مشاهير أرباب الصحف العربية والمحررين فيها: كالدكتور يعقوب صرُّوف، والدكتور فارس نمر، والدكتور شبلي شميل، والدكتور بشارة زلزل، والدكتور إسكندر بارودي، والدكتور

نقولا نمر، والدكتور خليل سعادة، والصيدلي مراد بارودي، وجرجي زيدان، والدكتور فارس صهيون، والدكتور لويس الخازن.

وكان هو أعجمي اللغة عربي النطق. وله في محاسن اللغة وبدائع منثورها ومنظومها القول الصحيح، والرأي الرجيح، حتى كان يحسب آية ظاهرة في آدابها وأقوالها، وأعجوبة باهرة في نكاتها وأمثالها، لأنهُ كان قوي البادرة، كثير المحفوظات، لذيذ العشرة، لطيف المنظر، جيد المخبر. وهو يجري معها إلى طبع سليم، وخلق دمث، ومحاورة سارَّة.

وفيما هو لاهٍ بأشغال التأليف، والتدريس، والرصد، والمراسلات العلمية عما سواها من مطامع البشر نكبت المدرسة الكلية بحادث أبعد عنها أكثر أساتذتها. فتركها محتملاً آلام فراقها محافظةً عَلَى مبادئه. وبقي يطيب في مستشفى ماري يوحنا عَلَى جار عادته إلى أن اضطر أن يتركهُ عَلَى غير رضا منهُ. لكنهُ إنما تركهُ ليحيي في الوجود مستشفى طائفة الروم الأرثوذكسيين الذي صار لهُ فيهِ أيادٍ تذكر في الرحمة بالمسكين، ومعالجة المرضى والبائسين.

وقد تقدَّم المستشفى بعنايته وفضله تقدمًا عجيبًا؛ فازدادت أهميته حتى صار من أعظم المستشفيات في الشرق. ولما أن توفاهُ الله في ١٣ تشرين الثاني ١٨٩٦ كان المرحوم نخله بن حبيب بسترس رئيسًا لعمدة المستشفى. فتبرَّع من جيبهِ الخاص بدفه مبلغ كبير لإقامة تمثال لفادنديك في ساحة المستشفى الكبرى. ثمَّ عرض على سائر أعضاء

العمدة أن يشتركوا في هذا المشروع، فأظهر الجميع رغبتهم في الإقبال عليه. وقرَّروا وجوب إقامة أثر خالد للرجل الذي اجتمعت القلوب عَلَى حبه، واعترفت الأَلسن بفضله. وفي ٢٦ شباط ١٨٩٩ جرى الاحتفال بنصب الأثر، فإذا هو تمثال من المرمر الأبيض ناصع يمثل صاحب الترجمة، وقد كُتب عليهِ بحروف واضحة:

(أثر حميد لخير فقيد نُصب إِقرارًا بفضل عَلَم العلماء والحكماء المرحوم)

(كرنيليوس فانديك عُفي عنهُ - ١٨٩٥)

ولما اختارته المنية بالتاريخ المذكور، جرى لمشهده احتفال عظيم، ثم دُفن في المقبرة المحاذية للكنيسة الإنجيلية. وبناءً عَلَى ما شاع بأنهُ أوصى ألاَّ يؤبن، توقف الأدباء والشعراء عن تأبينهِ وفي قلوبهم جمرات من التحسر عليه. وقد اهتمَّ فريق من أصدقائه وتلامذته بإقامة نصَبٍ عَلَى ضريحه. فجمعوا بإدارة أخدهم الصيدلي القانوني مراد البارودي مبلغًا كافيًا، واستحضروا من أوربا قطعيتن بديعتي الصنع؛ إحداهما من الرخام وضعوها مسطحة على القبر، والأخرى من الحجر الأعبل قائمة عليهِ. وقد نُقشت عليهِ هذه العبارة باللغتين العربية والانكليزية:

(هذا الضريح شادهُ بعض من خلّانهِ وتلامذتهِ السوريين ذكرًا لمِا أَتاه)

(من فضلٍ وبرٍّ في خمس وخمسين سنة من عمرهِ بين)

وفي ٢ نيسان (أبريل) سنة ١٨٩٠ احتفل أَهل سوريا بمرور خمسين عامًا على إقامته بينهم. فأقاموا له نوبيلا شاركهم فيه أفاضل المشارقة في مصر، والعراق، وغيرهما الاكتتاب. وتقاطرت عليهِ الرسائل، والقصائد، وكتب التهنئة من وجهاء سوريا وأمرائها، وجمعياتها، وبطاركتها، وأساقفتها، ومجامعها عَلَى اختلاف المذاهب والنحل. وملأَت جرائد القطرَين السوري والمصري أعمدتها بذكر مآثره، وأفضاله، وأعماله، ولولا ضيق المقام لجئنا ببعض ما قيل فيهِ. ولكن ذلك مجموع في كتاب عنوانهُ «حياة فانديك» مطبوع عَلَى حدة بعناية تلميذهِ الدكتور إسكندر بارودي صاحب امتياز مجلة «الطبيب» البيروتية.

وكان فنديكُ يحتزئ به باليسير من الغذاء والملبس، غير عاكف على شيء من الملاذ الدنيوية، بل همهُ الأمور الجوهرية، يؤثر العزلة عَلَى الاجتماع، والاجتماع مع مَن احتاجه عَلَى العزلة. ويصرف في مكتبته ما فضل من أوقاتهِ عن الواجبات بين مطالعة جرائد، وتأليف كتب، وتصحيح مسودات. وكنت تراه وهو مرتدٍ بعباءَة الشرقية كأن لسان حاله يقول:

ولبس عباءَة وتقرُّ عيني … أحبُّ إليَّ من لبس الشفوفِ
وبث معارفٍ في دور علمٍ … أحبُّ إليَّ من كسب الألوفِ

أما مؤَلفاتهُ فتشمل أهمَّ العلوم القديمة والحديثة، وهو أوَّل من ألف في تلك العلوم ونشرها باللسان العربي في الديار الشامية؛ فأجاد وأَفاد وهي :

(١) «الباثولوجية الداخلية الخاصة»؛ وتبحث في مبادئ الطب البشري النظري والعلمي في مجلد ضخم. (٢) «محيط الدائرة» في العروض والقوافي. (٣) «المرآة الوضية في الكرة الأرضية» طُبعت غير مرة. (٤) «الروضة الزهرية في الأصول الجبرية». (٥) «الأصول الهندسية». (٦) «التشخيص الطبيعي». (٧) «الأنساب والمثلثات المستوية والكروية، ومساحة السطوح، والأجسام، والأراضي، وسلك الأبحر». (٨) «أصول الكيمياء». (٩) «رسالة الجدري والحصبة» للرازي مع ملحق بقلم الدكتور. (١٠) «أصول علم الهيئة» في الفلك. (١١) «إرواء الظماه من محاسن القبة الزرقاء». (١٢) «النقش في الحجر» في ثمانية مجلدات صغيرة كل منها يبحث في علم من العلوم الحديثة: كالفلسفة الطبيعية، والكيمياء، والجغرافية الطبيعية، والنبات، والفلك، والجيولوجيا وغيرها؛ يراد بها تعليم هذه العلوم في المدارس العالية، أو نشرها بين الذين شبوا وتعاطوا التجارة أو الصناعة ولم يدرسوا شيئًا منها. (١٣) «النفائس لتلامذة المدارس». (١٤) «قصة شونبرج وبركا» وهما دينيان. (١٥) «أصول الإيمان المسيحي». (١٦) «ترجمة العهد الجديد». (١٧) «النشرة الشهرية». (١٨) «النشرة الأسبوعية» في أول نشأَتها. (١٩) جريدة «كوكب الصبح المنير في أول عهدها. (٢٠) رسالة «الافتخار بالصليب». (٢١) «أَخبار عن انتشار الانجيل». (٢٢) ترجمة «تاريخ الإصلاح» في القرن السادس عشر في مجلدين. (٢٣) «السهم الطيار والفخ الغرار» لتوقية الكروم من الثعالب الصغار. (٢٤) كتاب «كشف الأباطيل في عبادة الصور والتماثيل».

(**٢٥**) **كتاب «بزوغ النور عَلَى ابن حور». (٢٦) كتاب «طب العين». (٢٧) كتاب «الباثولوجية المرضية» لم يُطبع منه سوى بعض مقالات في مجلة «الطبيب» البيروتية. (٢٨) كتاب «الباثولوجية العامة» وهو غير مطبوع. (٢٩) كتاب «تاريخ الأطباء» نشرت مقالات منه في مجلة «المقتطف» في سنيها الأولى. وهو الذي أوعز إلى الدكتور يعقوب صروف أن ينقل كتاب «سر النجاح» إلى اللغة العربية، فكان سببًا كبيرًا في إنهاض الذين قرأُوه من شبان بلادنا إلى الاقتداء بأعاظم رجال العلم والعمل مع النسج عَلَى منوالهم.**

ونختتم هذه الترجمة بالأبيات التي نظمها إلياس حنيكاتي عند نصب تمثال الدكتور فانديك في باحة المستشفى الأرثوذكسي وهي:

افنديك في شرق البلاد وغربها ... مآثر لا تختفي عَلَى أحد منا
تجلت كنور الشمس قبل وفاتهِ ... وتبقى إلى ما شاء ربك لا تفنى
همامٌ بني في ساحة الفضل منزلاً ... وهذا العمر الحق من خير ما يُبدى
أَلا حسبهُ وصفًا لهُ حسن شهرةٍ ... يضوع شذاها كما طائرٌ غنى
إِمامٌ قضى في الشرق معظم عمرهِ ... فمعظمهم أهل الشرق يبكونهُ حزنا
ولاسيما جمعية شد ازرها ... بتعزيز مستشفى تعول بهِ المضنى
ففي عامها العشرين جدَّد ذكره ... وأرخْ بدا تدشين تمثالهِ الأسنى

فهرس